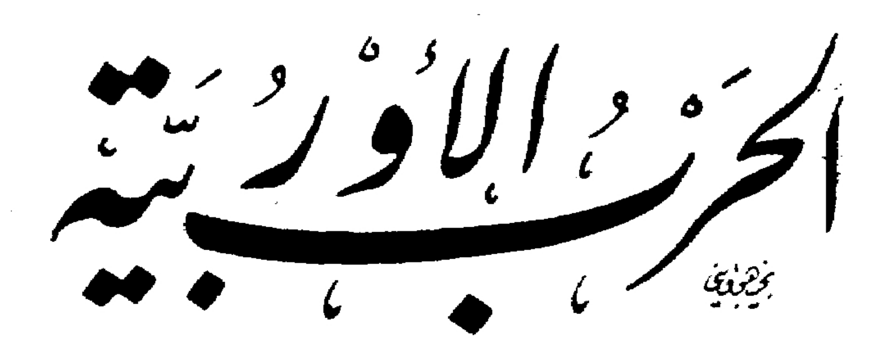
جوستاف لوبون

# الحرب الأوربية



تعريب : اميل زيدان




تأليف
العلامة الدكتور
جوستاف لوبون

تعريب
اميل زيدان
محرر الهلال

نشوء المانيا الحديثة
اسباب الحرب البعيدة والمباشرة
اثر العوامل النفسية والمعنوية في المعارك
تقلب الذاتية . الضغائن الجنسية
العوامل الاقتصادية والعاطفية والروحانية
في منشأ الحرب
مجهولات الحرب . الصلح . المستقبل

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر
سنة ١٩١٦



الدكتور جوستاف لوبون

# مقدمة

كيف ولماذا نشبت هذه الحرب ؟

ما هي العوامل البعيدة التي هيأت الدول الاوربية لخوض غمارها ؟

اين مصدر الشرارة التي اضرمتها ؟

ما هي العقائد والغرائز والعواطف التي ثوّرت الجماعات الاوربية حتى دفعتها الى هذه المجزرة الفظيعة ؟

علامَ يقف النصر في المعارك — قديماً وحديثاً ؟

من أي العوامل تكوَّن مزاج الالمان العقلي ؟

ما هي المبادىء التي تعتمد عليها هيئة اركان الحرب الالمانية ؟

ماذا يحل بالعالم بعد الحرب ؟ هل يرجى سلام دائم أم قد كتب للانسانية ألا تجوز حدود الحيوانية ؟

تلك اسئلة تخطر لكل متبصر في هذه العاصفة الجنونية ، التي هبت على العالم فزعزعت اركان الدول وهددت كيان المدنية . وقد تصدى غير كاتب للاجابة عنها او عن بعضها ولكننا لا نعلم كاتباً جمع من الفوائد الثمينة والآراء السديدة كالدكتور جوستاف لوبون في كتابه هذا [١] . فاننا لم نكد نطالعه

---

(١) اسمه التام « التعاليم البسيكولوجية للحرب الاوربيـة » وبالفرنسية :
Les Enseignements Psychologiques de la Guerre Européenne, par le Dr. Gustave Lebon.

حتى عزمنا على نقله الى العربية وجعله ملحقاً للسنة الرابعة والعشرين للهلال (١)

والذي يميز كتب الدكتور لوبون انها تطرق الموضوعات العلمية الراقية والمباحث الفلسفية العامة بعبارة واضحة جلية يستطيع فهمها جمهور القراء. وعليه ينطبق قول احدهم عن الفيلسوف وليم جيمس الاميركي « انه يكتب الكتب الفلسفية كأنها قصص فكاهية »

الدكتور لوبون من طبقة العلماء الذين لم يقصروا بحثهم على موضوع ضيق او فرع محصور من العلوم والفنون. فهو يحيط بظواهر الحياة الاجتماعية جميعاً ، يحدثك عن باطنها وظاهرها وعن جوهرها وعرضها . ثم لا يفوته وهو يبحث في باب منها ما لسائر الابواب من الاثر في حياة الانسان . وذلك ما يعزب عن بال الكثيرين من العلماء في هذا العصر — عصر التخصص المتناهي — اذ ترى العالم يحصر عقله طول حياته في مجال لا يتعداه حتى يصبح وهو لا يحفل بمبحث غير مبحثه الخاص

لا نريد بذلك ان ننكر الفوائد التي جناها العالم من تقسيم العمل والتخصص في البحث . فهما من الشروط اللازمة للرقي الاجتماعي . وانما التطرف في هذا الباب — بل وفي أي باب لا يضل التطرف — يحوّل النظر عن المسائل العامة الجوهرية الى المسائل الخاصة العرضية . وقد اشتهر علماء الالمان بالمغالاة في التخصص

* * *

قال احد الكتّاب الاجتماعيين « لو حسبنا ان الدور التاريخي للبشرية يبلغ

(١) وليست هذه اول مرة يعنى الهلال بتآليف الدكتور لوبون فقد لخص وترجم غير مبحث من مباحثه الشائقة

عشرة آلاف من السنين فان تقدم الاجتماع في القرن الماضي وحده يوازي تقدمه في القرون السابقة جميعاً » . هذا امر ثابت لو نظرنا الى التقدم المادي في الصناعة والزراعة والتجارة . ولكن ماذا عسى ان نقول عن التقدم الادبي والمعنوي ؛ ألا ينبغي ان تعد الحرب الحاضرة — مثلاً — رجوعاً الى الوراء ؟

لا ريب في ان هذه الحرب هي للروح الوحشية المستقرة في الطبع البشري فوز على الروح الملكية السامية التي تدفعه الى التخلص من نير الهمجية والتحرر من سلطان غرائزه الحيوانيـة . فالانسان مزيج هذين العنصرين : العنصر الحيواني والعنصر الملكي . وهما في نزاع دائم بين هجوم ودفاع ، وبين تغلب وانكسار . والنفس البشرية اشبه شيء بالرقاص المتنقل بين الجهتين على الدوام

ولكن ألا نستطيع ان نجد في تلك الحركة المتواصلة نزوعاً خفياً مستديماً الى جهة دون جهة ؛ أو أليس للتطور الانساني — على الاجمال — متجه معين يتجه اليه صعوداً أو هبوطاً ؟

اننا نعتقد على الرغم من الازمات التاريخية التي تغلبت فيها الغرائز الحيوانية ، وعلى الرغم مما نشاهده اليوم في ارقى الجماعات البشرية من دلائل الهمجية — نعتقد أن الانسانية سائرة سيراً حثيثاً الى الامام . ولله در ذلك المؤرخ الفيلسوف — واظنه مومسن — الذي شبه مجرى التاريخ بعامود لولبي مائل : فانك لو وضعت اصبعك على الحد اللولبي البارز وترقيت بها من اسفله الى اعلاه لوجدت اصبعك تارة تكون تحته وتارة تكون فوقه ، أي ترتفع طوراً وطوراً تنخفض ولكن النتيجة النهائية انما هي الصعود . وعلى هذا المبدأ يستعمل المزارعون لولب ارخميدس ( المسمى

عندهم بالبدالة او الطمبور ) فيرفعون به الماء من مجراه لاستخدامه في الزراعة . كذلك الانسانية صاعدة بلا ريب وان تخلل صعودها هبوط من حين الى حين

فلا ينبغي لنا أن نيأس اليوم ازاء الفظائع التي ترتكب في ميادين القتال. فلا شدة الا ويخلفها فرج ولا عناء الا ويتبعه راحة — وبضدها تتميز الاشياء

على اننا لسنا من القائلين بان « هذه الحرب نهاية الحرب » فسوف يقع الناس في ازمنة ضيق وشدة قد تفوق المأساة التي تمثلها الدول الاوربية اليوم هولاً وفظاعة . ولكننا مع ذلك نرى ان الانسانية في ترقٍ وصعود — بل يتراءى لنا كما قال الدكتور لوبون « ان الامم كلما دخلت في طور معين من حياتها لا تستطيع ان تتقدم وترتقي الا بفعل تلك الانقلابات العظيمة ، ولعلها ضرورية لترفع عن الامم ضغط الماضي الثقيل ولتحررها من اوهام وعادات تأصلت فيها »

* * *

ان « التكيّف وفقاً للبيئة » سنة رئيسية لجميع المخلوقات الحية افراداً وجماعات . فلا يستطيع انسان ان يعيش في وسط - مادياً كان او نفسانياً — مالم يندمج فيه و يتشرب روحه ، والا لفظه الوسط وانكره . كذلك الشعوب لا تستطيع ان تنمو مالم تتدبر محيطها وتدرك ميزات عصرها وتتخلق باخلاق زمانها ، ولا سيما في هذا العصر وقد توثقت روابط الشعوب وتوافرت وسائل الاتصال المادي والفكري . وان اشد الصفات خطراً على الشعوب الوقوف والجمود فانهما نذير التقهقر والانحطاط

لقد أصيب الشرق منذ زمن طويل بجمود عم جميع اعضائه — جمود في اللغة ؛ جمود في العادات والاخلاق ، جمود في النظام الاقتصادي ، جمود في الدين ، جمود في التربية والتعليم ، جمود في جميع اركان الاجتماع . فليس الغريب مع هذا الجمود الشامل ان يكون الشرق على ما هو عليه من التقهقر ، بل الغريب ان يظل فيه رمق من الحياة !

يؤثر عن مريض اعياه المرض واضناه الداء ان قد جاءه الطبيب ووصف له ان يتناول بعض الادوية وان يقتصر على مأكولات قليلة وأن يعيش عيشة منتظمة وان . . وان . . وان . . الخ . . . فسأله المريض « واذا فعلت كل ذلك فماذا اربح ؟ » قال الطبيب « تعيش سنتين » فقال « واذا لم افعل ؟ » قال « ربما عشت اسبوعين » فقال المريض « والله لان اكون حياً التذ بالعيش اسبوعين خير من ان اكتفي بالوجود المجرد سنتين »

قضى الشرق دهوراً وهو في حكم الموجود فقط لا في حكم الحي ، وشتان بين الحالتين : فان الشرط الاول للحياة التطور والتكييف والتبدل وفقاً لتقلب الزمان والمكان . وما برح ذلك التقلب يتزايد شدة مع تقدم المدنية واحكام الروابط بين الامم حتى يكاد لا يمضي عقد الا ويطرأ على العالم بعض العوامل الجديدة والآراء المستحدثة . فكيف به بعد هذه الحرب الضروس وهي فاتحة لعهد انقلابات عظيمة في التاريخ البشري

فاذا ادركنا ذلك واردنا أن نحيا حياة حقيقية وجب علينا الا نخشى العوامل والآراء الجديدة بل وجب ان ننفخ في ماضينا البالي روحاً حديثة تبعث فيه الحياة والنشاط . فان العالم يسير على قدمين : القديم والجديد . ولا تقوم المدنية باحدهما دون الآخر . وان من دلائل الانحطاط الاجتماعي

ان يعيش قوم في القرن العشرين بعقل وعادات وأخلاق هي أجدر باهل القرون الوسطى

* * *

وليأذن لنا القارىء الآن ان نشير الى نقل هذا الكتاب من الفرنسية الى العربية . فنقول ان رائدنا كان «الوضوح قبل كل شيء» . ويعلم الجميع تلك العقبات الجمة التي تعترض ناقلي المباحث العلمية الحديثة من اللغات الاوربية . فان بعض الكلمات الاصطلاحية عندهم قد تؤدي الى ذهن قرائهم معنى جلياً محدوداً في حين انه لا يُؤدى في العربية بكلمة واحدة بل ولا بكلمات. على انا قد بذلنا جهدنا في نقل آراء المؤلف بما في وسعنا من الوضوح والجلاء

ولا بد لنا من الاشارة الى انا الجئنا الى اختصار بعض الفصول لظروفنا الخاصة ( ولا سيما الاقوال التي جمعها الدكتور لوبون واستشهد بها ) وبسطنا القول في فصول أخرى ، مما يستدعيه الفرق بين الجمهور الفرنسي والجمهور العربي . على ان ذلك التصرف لم يلحق الا الامور الثانوية . أما أفكار الدكتور لوبون الجوهرية ومراميه الرئيسية فلم يلحقها تغيير ولا تبديل

اميل زيدان

# تمهيد

ليس غرضي من هذا الكتاب درس حوادث الحرب الاوربية ، وانما الذي أرمي اليه استقصاء الظواهر النفسية التي أدت اليها والتي رافقتها منذ نشأتها . فان تدوين وقائعها بانصاف واخلاص ليس بميسور لنا اليوم وان الاهواء لا تزال متسلطة على نفوسنا . ولا يتسنى للاجيال التي تخلق التاريخ ان تدونه ، ولا بد من فترة تمر بعد انتهاء المآسي البشرية حتى يتمكن الانسان من استكشاف سرها وادراك حقيقتها . فان التاريخ لا ينصف الا الموتى

ان وراء الحوادث المنظورة التي تجري في ميادين القتال قوى ودوافع غير منظورة توجدها وتسيّرها . فالى تلك القوى الكامنة ، والى تلك الدوافع الخفية ترجع اسباب الحرب . وما القصد من هذا البحث الا كشف القناع عن هاتيك المعالم المجهولة

ليس من المعقول ان تشب حرب كهذه عن ارادة رجل واحد ، فهناك اسباب عميقة بعيدة ما برحت تتراكم شيئاً فشيئاً منذ زمن بعيد حتى انفجرت دفعة واحدة

ولكي نفهم منشأ هذه الحرب لا بد لنا من الرجوع الى الحوادث التي سبقتها — ولا سيما درس تطور الروح الالمانية الحديثة — فان سلوك الامم موقوف على عقائدها وآرائها وعواطفها ، وبعبارة أخرى موقوف على مزاجها النفسي

* * *

ان هذه الحرب نزاع بين قوى نفسية متناظرة ، وبين عقائد سياسية متنافرة : ففريق يحترم حقوق الشعوب ويبر بوعوده وعهوده وفريق يجعل الحق للقوي معتقداً ان الواجب عليه السيطرة على الضعيف ، فريق يتمسك بالحرية الشخصية ازاء سلطة الجماعة وفريق لا يعترف للفرد بحق الا ما يخوله اياه المجموع ، وبعبارة أخرى فريق يرى الدولة لمنفعة الافراد وآخر يرى الافراد لمنفعة الدولة

وليس مذهب تأليه القوة من مبتكرات الشعب الالماني . فقد كان رائد العالم قديماً

وما برحت روح المدنية منذ الفي سنة تهذبه وتصقله شيئاً فشيئاً . فاذا فاز الالمان فكأنهم سيرجعون ادبياً بالعالم الغربي الى عهد همجيته حين لم يكن للحق أساس الا القوة . الى ذلك الزمن الذي اوشكت الانسانية ان تنساه — أيام كان الضعيف مهضوم الحقوق موطوءا تحت الاقدام ، ذلك الزمن الذي كان فيه المطمح الاعلى للامم انما هو الفتح والنهب والتخريب . ولقد كان من الوهم العقيم ان يسود الاعتقاد بان تقدم المدنية يمنع نشوب الحرب

والذي يزيد خطر المذاهب الالمانية انها اتخذت في مخيلتهم صورة شبه دينية فأصبحوا يعدون تفوقهم على سائر الشعوب نعمة الهية خصوا بها ، و يعتقدون ان الله قد أرسلهم في الارض لتطهيرها مما علق بها من الادران

ان آلهة الشعوب وعقائدها لا تعبر فقط عن أحلامها وأوهامها ، بل هي للعاقل درس يستخلص منه حاجاتها وأحقادها وعواطفها . وهذا الدرس انما يستفيده المتبصر في حالة الالمان النفسية وفي مطامعهم وآمالهم . فانها من قبيل العقائد الروحانية التي كان لها تأثير عظيم في التاريخ ، والتي طالما ضحّى الناس في سبيلها بارواحهم وممتلكاتهم

ولا شك ان هذه الحرب تشبه في جوهرها الحروب الدينية القديمة ، فقد جمعت كل ميزاتها ولا سيما بعدها عن أحكام العقل . ولو كان للعقل ادنى سلطان على آراء الملوك والشعوب لما حمي وطيسها ولا ذكا أوراها

* * *

فنرى مما تقدم انه لا يتيسر ادراك حقيقة هذه المأساة الاوربية بالرجوع الى أحكام العقل الصحيح . لاننا اذا تمسكنا بالقياس العقلي في استجلاء غوامضها وقفنا دهشين أزاء غرابة الحوادث وتناقضها : انظر الى امبراطور المانيا الذي حافظ على السلم خمساً وعشرين سنة كيف دخل مرغماً في نزاع لم يشأه كأنه مدفوع بقوة لا ترد . وهذا الشعب الالماني الذي بلغ في ميدان الرقي المادي والادبي شأواً غبطته به الامم الاوربية الاخرى رأيناه يستقبل بفرح عظيم خبر حرب سوف تجر عليه الخراب والدمار . وأي شيء أغرب من ان نرى رجالاً متهذبين متعلمين يحرقون المدن والمكاتب التاريخية والآثار الفنية

ثم اذا انتقلنا الى الدول الاخرى وجدنا فيها من غرابة الحوادث ما لا يقل عما طرأ على المانيـا : انظر إلى الشعب الفرنسي الذي اشتهر بشدة تأثره وتقلبه وكثرة تحزباته كيف اتحدت عناصره فجأة وتحول الى شعب جلود يتفانى في سبيل الوطن

اوَ ليس من الغريب ان نرى أمة صغيرة كالبلجيك لا تجبن أمام تهديد المانيا ثم تقدم على محاربتها في حين انها تعلم فشلها وضعفها أزاء ذلك العدو الجبار ؟

* * *

انه ليتعذر شرح تلك الظواهر وما هي عليه من التناقض بأحكام العقل ، ولا يسعنا الا الاعتراف بعجزها عن تعليل مثل هذه الحرب الضروس . ولئن اعتمد العالم في معمله على القياس العقلي في استجلاء غوامض الكون ، فان من الجهل تعليل الحوادث التاريخية بالاقتصار على أحكامه وقوانينه . وليس يفوتنا ان في الانسان فضلاً عن العقل والتميز قوى ودوافع لها القسط الاوفر في توجيه مجاري التاريخ ، وفي مقدمتها العواطف والاهواء البشرية وروح الجماعات والعقائد الروحانية والسياسية

ولما كانت حقيقة تلك القوى لا تزال مجهولة ، فان المؤرخين ما برحوا يقيسون مجاري التاريخ على احكام العقل ، كأنهم يجعلون حوادثه متسلسلة الاسباب والنتائج كالقضايا العلمية ، فلا عجب ان تكون تعليلاتهم بعيدة عن الحقيقة

الحرب الاوربية بدء عهد انقلابات عظيمة في المعيشة وفي العقائد وفي العواطف . ولعل الانسانية قد بلغت اليوم احدى تلك النقط التي يتحول فيهـا مجرى التاريخ وتتغير عندها مطامح الابصار والقلوب

ان الامم الآن لمدفوعة نحو مستقبل مظلم ليس فيه بصيص من النور يضيء ظلمته ، فهي تحت سلطان المجهول الذي لا يمكن التنبؤ به . ولقد أصبحت بعض العقائد السياسية والادبية — وهي التي ظنها الناس وطيدة الاركان — مزعزعة يتهددهـا الوهن والسقوط . فان النظامات والمذاهب قصيرة الاجل تنمو ثم تضمحل تدريجاً فيلحق بعضها بعضاً وهلم جرّا

على ان فلسفة الكتب واوهام العلماء لا تقوى على النهوض أمام الاعمال الراهنة ، وان من العسير ان ينصت الى الوعظ والارشاد بين قصف المدافع ودوي المفرقعات

# الباب الاول

## ما يلزم من علم النفس لفهم هذا الكتاب

# الفصل الاول

## العوامل الخفية في تاريخ الامم

١ — أدوار الحياة

اذا نظرنا الى الحرب الاوربيــة نظرة عرضية ملنا الى الاعتقاد بانها مسيرة طبقاً لأحكام العقل والعلم، بدليل ما نراه من تنظيم الجيوش وتنوع الاسلحة والآلات . الاّ اننا اذا تجاوزنا العرض الى الجوهر وجدنا هذا الحكم فاسداً — وان صح بعض الصحة على الخطط الحربية في المعارك — فان هناك قوى غير منظورة تسيّر الجنود والحكومات بل الملوك أيضاً . واذا كانت الحرب تستخدم اسلحة مادية على مبادئ علمية فان القوى التي تحركها هي في الحقيقة قوى نفسية

ان ظواهر هذه الحياة متشعبة يتعذر فهم كنهها وادراك بواعثها . وغاية ما يتسنى لنا أن نقوله هو ان أعمال الانسان — على اختلافها وتنوعها — يمكن ارجاعها الى خمسة مصادر كبرى وهي :

١ — الوظائف الحيوية : كالأكل والنوم والتنفس الخ . وغايتها البقاء والتمتع

٢ — العواطف والانفعالات النفسية : كالحب والبغض والغضب الخ .

٣ — العقل : كالتفكير والحكم والتمييز الخ .

٤ — روح الامة ، وروح الجماعات التي ينتسب اليها الفرد . فان أحكام العقل البشري اذا كان في الانفراد مغايرة لأحكامه اذا كان مجتمعاً

٥ — العقائد الدينية وما جرى مجراها كالعقائد السياسية التي تتسلط أحياناً النفوس فتحدث أعظم الانقلابات

فلكل قسم من هذه الاقسام أحكام خاصة تختلف عن أحكام غيره . الاّ العلماء ظلوا — الى مدة قريبة — يؤلهون أحكام العقل ، زاعمين انها القياس الامثل للحياة البشرية . اما اليوم فقد أخذت الآراء تتحول عن هذا النظر الضيق بعد ما ثبت من خطورة العوامل الاخرى في حياة الشعوب . فالعواطف مثلاً سنن وأحكام تسير بمقتضاها كما يسير العقـل بمقتضى أحكام المنطق ، فالحب والبغض ليسا موقوفين على البراهين المنطقية ، أو بعبارة اخرى : ان للعواطف منطقاً خاصاً بها . وكذلك أيضاً أحوال الجماعات النفسية فان مداركها وعواطفها تختلف كثيراً عن مدارك افرادها وعواطفهم . ومثلها العقائد الدينية والسياسية ، فان قبولها ليس بموقوف على أحكام العقل بل على قواعد أخرى بعيدة عنه كالعدوى والارث والمصلحة والمزاج وغيرها

نعم انه بفضل أحكام المنطق العقلي يستكشف العالم الحقائق العلمية ، ولكنها قلما تؤثر في العقائد الدينية والسياسية . والفرق كبير بين تأثير الحقائق وتأثير العقائد . فالحقيقة العلمية باردة جافة لا سلطة لها على قوى الانسان او أحواله الاجتماعية . وذلك عكس العقيدة ، فانها تبعث فيه حرارة تجعله يقوم بأعظم الاعمال و يتعرض لاجسم الاخطار

وعلى هـذا يصح ان نقول بوجود منطق عاطفي ومنطق جماعي ومنطق حيوي ومنطق روحاني فضلاً عن القياس المنطقي المعروف عند الاقدمين . وسندرس هـذه الانواع متوالية

٢ — العوامل الحيوية

نقتصر على اشارة طفيفة الى هـذه العوامل التي تسيّر جميع الكائنات الحية . ولا يخفى ان أعظم دوافع الشعوب الجوع والحاجات المادية . وتأثيرها في التاريخ معلوم لا يحتاج الى زيادة بيان

٣ — العواطف والاهواء

يتألف خلق الانسان أو طبعه من مزيج عواطف يتوارثها عن اسلافه . وفرق عظيم بين وظيفة العقل ووظيفـة الخلق في حياة الانسان . فبالاول يفهم ويفكر ، وبالثاني يسلك ويعمل . فالاخلاق هي العامل الاول في حياة الافراد وفي حياة الشعوب

ولما كانت عواطف الانسان لا تخضع لارادته فقلما يستطيع تحوير خلقه الذى هو مزيج عواطف متوارثة كما رأينا . ويكفي ان نلقي نظرة على الحياة اليومية لنوقن عجز العقل عن التأثير في العواطف والاخلاق . بل يكفي ان ننظر الى هذه الحرب لنرى كيف ان أحكام العقل واستنباطاته لم تكف لوقف الاهواء البشرية عند حدها وما ذلك الا لان احكام العقل غير احكام العواطف كما قلنا . وانه لمن العبث ان تحارب عاطفة بالجدال والبرهان . وانما السهل الميسور ان تحاربها بعاطفة اخرى أقوى منها

ولا شك ان لتباين العواطف القومية تأثيراً عظيماً في توجيه مجاري التاريخ . فكل شعب من الشعوب يمتاز بمجموع عواطف متوارثة جيلاً عن جيل تجعله ينظر الى الامور نظراً خاصاً يختلف عن نظر غيره . فاذا كان بين الاسلاف تنافر فطري من حيث الاميال والمشارب اورثوه أولادهم فأحفادهم ، ومن ثم تنشأ الاحقاد الجنسية المتأصلة في نفس الانسان والتي يتعذر عليه اخمادها مهما يكن من معالجة عقله . ولقد كان لها اليد الطولى في منشأ هذه الحرب . فاذا تحركت تلك الاحقاد محيت الضغائن والتحزبات الداخلية . ويصدق هنا قول ابقراط اليوناني « اذا أحس الانسان ألمين أو عاطفتين من نوع واحد فان أقواهما يمحو الآخر » . فقد كانت دول الحلفاء كثيرة التحزب والشقاق حين تشوب الحرب ، ولكنها نبذتها بسرعة غريبة حين أحست الخطر الذي يهدد حياتها القومية

فمن حدوث هذا التغيير فجأة في جميع الدول ( ولا سيما في انكلترا حيث كانت المشكلة الارلندية تنذر بالحرب الداخلية ، وفي روسيا حيث تفاقمت الاضطرابات والقلاقل الفوضوية والثورية ) نستدل انه نتيجة سنة نفسية عامة يجب ان لا تبرح من اذهان رجال السياسة . ولكن الالمان قد جهلوها في اول هذه الحرب ولو حسبوا لها حساباً لما عدوا ذاك الشقاق من عوامل النصر

## ٤ — الروح القومية

روح الفرد قصيرة الاجل . أما روح الامة فلا تخاف الموت ، لانها نتيجة ماض طويل . وما تاريخ الشعوب المتمدينة الا تاريخ مساعيهم للحصول على روح قومية ثابتة تسمو على ارواح الافراد . فبهذه الروح القومية فقط تخرج الامم من الهمجية

وتتقدم نحو الرقي والكمال . وبفضل الروح القومية نجد افراد الامة الواحدة على الاجمال يتشابهون قولاً وعملاً في المواقف الخطيرة . وقد قيل ان الموتى أشد تأثيراً من الاحياء في توجيه مجاري التاريخ ، لان الاحياء انما استمدوا منهم اخلاقهم وآدابهم وعقائدهم

فكأن لكل فرد روحين : روحه الفردية الميالة الى الابتكار ، وروحه المشاركة لبني وطنه وهي التي تميل به الى ان يكون لهم مشابهاً ونظيراً

واذا كانت روح الامة المستقرة في اعماق النفس لا تظهر في الاوقات العادية فانها تقود الشعوب متى كانت حياتها مهددة فتنمحي أمامها الشخصيات الفردية . ولما كان من الواضح الجلي ان ينشأ الفرد محباً لذاته كانت هذه العاطفة هي التي تحركه عادة . ولكن متى استيقظت الروح القومية نبذ حب الذات جانباً . واندفع بدافع لا يرد يذود عن حياة امته ويفنى في الدفاع عنها

٥ — روح الجماعات

تلك هي الروح القومية الكامنة في اعماق النفس . ولا بد لنا الآن ان نميز بينها وبين روح الجماعات التي سندرسها فيما يلي : فالاولى ثابتة لا تتغير ، اما الثانية فوقتية تتكون عندما يجتمع الانسان بأمثاله في مجتمع أو مجلس الخ . فيطرأ على عقله وعواطفه وارادته من هذا الاجتماع المجرد تغيرات خطيرة

فقد ثبت اليوم ان عقل الانسان منفرداً يختلف عنه مجتمعاً ، فكما ان خلايا الجسم تولد بمجموعها ذاتاً مستقلة ومختلفة عنها ، كذلك تختلف نفس الجماعات عن نفوس الافراد الذين يكونونها في أحكامها ومنطقها . ومن المؤكد ان الانسان الراقي مجتمعاً أحط منه منفرداً من حيث المدارك العقلية ، ولكنه من حيث العواطف أشد تأثراً وانفعالاً . ومن مميزات الجماعات انها لا تمارس بعض العواطف التي يعرفها الافراد كمعرفة الجميل مثلاً . ولكنها تساعد على انماء عواطف اخرى لدرجة عالية جداً كالتضحيــة في سبيل الغير والشجاعة ونحوهما . ومن مميزاتها ايضاً سرعة العدوى بين أفرادها وسرعة الانقلاب ، فقد تتحول في لحظة من العبادة الى البغض

وعلى الاجمال يصح القول بأن الرجل السامي ينحط بالاختلاط ، وعكسه الرجل المنحط فانه يرتقي به

والجماعات سهلة الاخذ بالاوهام ، فاذا ما تسلط وهم على مخيلة الجماعة أصبح في قوة حقيقة راهنة عندها

ولا بد للجماعات من قائد يتسلط على افكارها و يستهويها . وقادة الجماعات يقنعونها بطرق خاصة توافق منطق الجماعات وتختلف عن طرق القياس العقلي ، وفي مقدمة هذه الطرق : التأكيد والتكرار والعدوى والظهور بمظهر العظمة . غير ان بعض العلماء اليوم ينكرون هـذه الحقيقة ويدعون ان قادة الجماعات ليسوا الآ ممثلين للرأي العام يستمدون منه أقوالهم وأعمالهم . والذي نراه ان الرأي العام اذا تكوّن وتشرب فكرة قادته تشرباً كاملاً أصبح ذا قوة هائلة فيؤثر في قادته بعد ان أثروا هم فيه . ولا ريب عندنا ان مرجع آراء الجماعات انما هو آراء بعض الافراد

ومهارة رجال السياسة والحكومة موقوفة على مقدرتهم من هذا القبيل . فعليهم تكوين الرأي العام واستمالته اليهم . ومما لا شك فيه ان حكومة المانيا قد عرفت هذه الحقيقة فسعت لتحكم الرأي العام الالماني بواسطة الصحف والجمعيات وغيرهما ولقد تم لها ذلك . بل انها كما لا يخفى قد بذلت مالها ونفوذها لاستمالة الرأي العام في الدول المحايدة كذلك

ويشبه الجماعات المجالس والجمعيات الكبيرة فان لهـا نفس الخواص النفسية كسرعة التأثر وشدة الانفعال وسهولة الانقياد والخضوع للقادة الخ . ومن الظاهر الجلي ان الدول المتمدينة قد وكلت جميع شؤونها الى مثل هذه المجالس فهي تسن الشرائع وتقر القرارات التي يقف عليها عمران البلاد ومستقبلها . ولـكن لهذه المجالس فوائد من وجوه أخرى ، فانها تستجلي الغوامض السياسية وتقف رجال الحكومة عند حدهم خشية ان ينتقدوا افعالها و يعيبوا اعمالها

وتزداد سلطة الجماعات زيادة كبيرة في وقت الاضطرابات الوطنيـة كالثورات والحروب فيصبح — اذ ذاك — تيار الرأي العام قوياً جارفاً لا يستطيع أعقل العقلاء ان يقف في سبيله أو يؤثر فيه أدنى تأثير . أما في وقت السلم فان الجماعات تنقاد غالباً لآراء الخاصة

٦ — العوامل الروحانية

نقصد بالعوامل الروحانية ميل الانسان الى التمسك بعقائد غامضة ، وحبه لما هو

خارج عن السنن الطبيعيــة ، واعتقاده بتأثير قوى غير بشرية في مجرى التاريخ . فلهذه العوامل الروحانية تأثير كبير في حياة الشعوب واليها كان ينسب الاقدمون جميع الظواهر الطبيعية

على أن تأثير هذه القوى ليس بمقصور على الحياة الدينيــة بل قد ينال الحياة السياسية ايضاً — وفي السياسة والاجتماع عقائد ومذاهب لا تقل عن العقائد والمذاهب الدينية تسلطاً على عقول البشر — حتى اننا نجد التعصب لحزب سياسي أو مذهب اجتماعي ( كالاشتراكية والفوضوية ) أشد من التعصب الديني في بعض الاحيان

ولا تتكون العقائد الروحانية على أنواعها من أعمال الفكرة والمجادلة ، اذ لا سلطة للعقل عليها لا في منشأها ولا في زوالها ، وانما هي تنشأ عادة بطريق الاستهواء والعدوى فتظهر للمؤمنين بها كأنها حقيقة ثابتة لا يجوز الارتياب فيها ، وغير خاف ما لمثل هذه العقائد من السلطان الشديد على الافراد والجماعات ، والتاريخ أوضح برهان

ثم ان الدوافع الروحانية لا تعبأ بالماديات كما انها لا تعبأ بالقياس العقلي . فمتى كان الانسان تحت سلطانها نسي الالم والانانية ، وقد لا يتردد في اهلاك مضاديه — ولو كانوا من اهله — نصراً لايمانه وهو يعتقد انه يأتي عملاً يستحق عليه كل مدح وثناء . وبسبب تلك العوامل الروحانية يستشهد الكثيرون من الناس في سبيل عقائدهم سواء كانت وطنية او اجتماعية أو سياسية

وبفضل العدوى العقلية يسرع انتشار العقائد الروحانية فيزداد بانتشارها ايمان الواقعين تحت سلطانها . وما برحت تلك العقائد من اكبر أسباب القوة لدى الشعوب . يدلك على ذلك اعتقاد اليهود في التاريخ القديم والعرب في الاجيال الوسطى والالمان في الوقت الحاضر بانهم شعوب مختارة من الله

ولا يخرج أحد من الناس — مهما يكن مستنير العقل — عن حكم تلك العوامل ، حتى أعقل الرجال فانهم يؤخذون كغيرهم في تيار العقائد العامة فيعجزون عن ادراك حقيقة الواقع

وسنرى انه كان للعوامل الروحانية مقام عظيم في منشأ الحرب الاوربية ، كما كان لها فيما مضى . فلاشك انه كان لايمان العرب المستجد عليهم شأن عظيم في فتوحاتهم . ومثلهم

الصليبيون فانهم انما جاءوا الشرق تأييداً لعقيدة وطلباً للاستيلاء على قبر الههم . وقس على ذلك امثلة اخرى كثيرة

ولا ريب ان العوامل الروحانية هي أقوى العوامل التي تسيّر الانسان . فهي خالقة الاوهام الكبيرة التي تشاد عليها ممالك وتهدم من أجلها ممالك

وقد يظن اهل العالم الحديث انه لم يعد لتلك العوامل تأثير فيهم نظراً لانتشار العلم . والحقيقة انها في هذا العصر أقوى منها في أي عصر سلف وأشد تسلطاً على نفوس الناس

واذا كان لهيب الحرب يمتد اليوم من مشارق اوربا الى مغاربها ، وكان نخبة شبانها يستشهدون في ساحات القتال وقد عمّ الحزن والبكاء والخراب ، فما ذلك الاّ لأنه قام شعب يدعي الامتياز والتفوق على سائر الشعوب ويعتقد انه مختار لتنظيم العالم واصلاح الذي فسد فيه

# الفصل الثاني

## تغير الذاتية

١ — في ثبات الذاتية وقبولها للتغير

ما زال علماء النفس منذ القدم يعدون الانسان مؤلفاً من جوهرين منفصلين انفصالاً تاماً : الجسم والروح . وكانوا يعتبرون الروح أو النفس ذات أقسام محدودة معروفة قلما يطرأ عليها تغيير . أما اليوم فانه يتعذر على العالم الباحث التمسك بمثل هذا الرأي لان المباحث الحديثة قد دلت على الارتباط المتين بين الجسم والعقل ونقضت مذهب وحدة الذاتية . فعقل الانسان مؤلف من قوى مختلفة قابلة للتغير وباجتماعها تتكون الذاتية

فما دامت البيئة التي يعيش فيها الانسان لا تتغير فان تلك القوى تحفظ توازنها ، ولكن متى تغيرت البيئة اختل التوازن القديم وقام مقامه توازن جديد — أي ذاتية جديدة . او بعبارة أخرى ان ثبات الذاتية موقوف على ثبات البيئة

ومثل هذا التغير كثير الشيوع في وقت الانقلابات التاريخية الكبرى فان ذاتية الناس تتغير عندئذ تغيرًا عظيماً . كما حصل في الثورة الفرنسية مثلاً ، فيتحول أعقل الناس الى مخلوقات فظيعة : فقد كان رجال الثورة من خيرة الناس ولكنهم أتوا أعمالاً منكرة وحشية

ولا حاجة بنا ان نرجع الى التاريخ لنتوثق من صحة ذلك . بل يكفي ان نلاحظ ما يجري اليوم من الانقلابات النفسية الغريبة في الشعوب المتحاربة . فلم يكن أحد يتوقع مثلاً توحش الالمان ولا ثبات الفرنسيين

ان مذهب ثبات الذاتية القديم لا يزال كثير الانتشار ، فترى الناس يستهجنون تغير سلوك البعض عند انتقالهم الى وسط جديد . ولكن الغريب ان لا يتغير سلوكهم لان تغير الاحوال قد جعلهم أشخاصاً آخرين

على ان هذا التغير قد يكون طفيفاً في بعض الاحيان فتضطرب الذاتية قليلاً من غير ان تنقلب انقلاباً تاماً . وكل يعلم كيف يتغير نظر الانسان الى الامور في احوال المرض والفرح والحزن

فنرى ان ذاتيتنا قابلة للتغير ولولا الروادع الاجتماعية التي تشل حركة الانسان لكان ذلك التغير أجلى ظهوراً . فان القوانين والشرائع والعادات تمنع الانسان اتيان اشياء كثيرة . فتلك الروادع هي شرط ضروري لبقاء المدنية وثباتها

وكثيرة هي الامثلة التاريخية التي تبين تطور الذاتية اثناء الحروب والثورات حين يقل الضغط الاجتماعي على الغرائز المستقرة في الطبع البشري

ولقد شهد العالم مذهولاً مما تم في الحرب الاوربية من الاعمال الوحشية التي أتاها شعب ذو حضارة وعلم وأدب . على ان تحت تلك القشور المزخرفة كانت الغرائز الوحشية كامنة تتحين الفرصة لتثب ، ولم يكن يمنعها من الظهور سوى ضغط القوانين الاجتماعية . فحالما نشبت الحرب فرج عنها ذلك الضغط واتخذت مجراها الطبيعي

اما السبب في ان الامم الاخرى لم تقتد بها فهو ان معظمها ينتسب الى اجناس قديمة العهد في التمدين قد توطدت آدابها الاجتماعية وثبتت في نفوس أفرادها على مرور الزمن

فكلما توالت الاجيال في الامة الواحدة توطد مزاجها العقلي وثبتت اخلاقها وآدابها المكتسبة . ومتى بلغت الامة ذلك الرقي قل احتياجها الى القوانين والشرائع الاجتماعية اذ تقوم القوانين الشخصية مقام القوانين العامة

على انه من العسير جداً ان نجد امة بلغت هذه الدرجة من الرقي النفسي ، فان أرقى الامم الحديثة لا تستغني عن الروادع والزواجر الاجتماعية لاهداء الناس ومنع اصحاب الاخلاق المزعزعة والعقول المقلقلة من اتيان الاعمال الشائنة

## ٢ — الارادة الوجدانية والارادة غير الوجدانية

ان الظواهر النفسية التي يدركها الانسان ويحسها ليست الا جزءاً من حياته النفسية التي تضم غير ذلك عوامل ودوافع خفية خارجة عن حيز الادراك والوجدان ، أي انه لا يشعر بها ولا يدركها . وبعبارة اخرى ان الحياة النفسية أوسع مما يتراءى

لادراكنا وشعورنا ، ففيها معالم واسعة مجهولة لا تقع تحت أحكام الوجدان . وقد ثبت اليوم ان لتلك العوامل النفسية الخارجة عن الوجدان مقاماً عظيماً في حياة الانسان وانها تقوده في معظم الاحيان . وبهذا الرأي يقولون ان للانسان ارادتين : ارادته التي بها يعمل ما يحكم بلذته أو بفائدته أو يقتنع بضرورته ، وارادته أو قل ان شئت دوافعه التي تدفعه الى اتيان أعمال في حركة ميكانيكية أي من غير أن يفكر فيها . وهذه الارادة الثانية اشد تأثيراً في حياة الافراد وحياة الامم من الارادة الوجدانية التي لم يعرف علماء النفس سواها

وتستمد الارادة غير الوجدانية ( inconsciente ) قرارتها ونزعاتها من حاجات الامة أو الجماعة التي ينتسب اليها الانسان ومن مطامعها وآمالها فانها تدفعه الى العمل من غير ان يحكم في صحتها

ولما كان جمهور الناس ينقادون بهذه الارادة غير الوجدانية فاننا نجد في كثير من الاحوال تناقضاً بين أقوال الانسان الصادرة عن تفكيره وارادته الوجدانيـة وأفعاله الصادرة عن ارادته غير الوجدانية التي هي تراث اختبارات الاجيال السالفة وأميالها

والشعوب كالافراد تختلف اختـلافاً بيناً في درجة خضوعها للارادة الوجدانية وللدوافع الغريزية( اوالارادة غير الوجدانية ) فالشعب الانكليزي مثلاً كثير الخضوع لغرائزه فتجده يأتي معظم اعماله كما توحيه اليه غرائزه اي من غير تفكير ولا تدبر . قال المسيو ستيد المدير السياسي لجريدة التيمس في مثل هذا المعنى ما يأتي :

ان الانكليزي شديد الاعتماد على غرائزه . فهو يتحرز من الافكار ويكره المنطق كأن عاطفة بديهية تقنعه بان الحياة لا تسير على احكام العقل وانما هي تقوم بقوى عمياء في الغالب تخرج عن حدود الوجدان

واذا فحصنا الانكليز عن كثب وجدنا تناقضاً عظيماً بين آرائهم وسلوكهم كأن بين حيز الافكار وحيز الدوافع الغريزية حجزاً منيعاً . ولا يتيسر لك ان تعلم ما يأتيه الانكليزي في حالة الاضطراب الفردي أو الوطني بالقياس على ما يأتيه في حالته المعتادة . فانه في تلك الحالة يظهر بمظهره الحقيقي وخلقه الغريزي فيتكلم قليلاً ويعمل كثيرا

ان للقوى النفسية الخارجة عن حيز الوجدان اثراً خطيراً في كل عمل يأتيه الانسان — حتى الاعمال التي يعتمد فيها على حكمه وتمييزه — وان لم يظهر ذلك التأثير في الغالب

قلنا ان الارادة غير الوجدانية تستمد نزعاتها من تراث الاجيال السالفة ولكنها

في بعض الاحيان تنتج عن العواطف والاهواء الوقتية أو عن العادات التي يمارسها المجموع . وبفضل تلك الارادة يقوم الانسان بأعمال كثيرة من غير ان يكلف نفسه مشقة التأمل والتفكير

٣ — تقلبات الارادة

تتغير الارادة الوجدانية وغير الوجدانية وفقاً لما يؤثر فيها من العوامل التي تقويها أو تضعفها . ومن العوامل التي تضعف الارادة حب البذخ وطلب الملذات

فاذا ما ضعفت الارادة بين امة وتجنب افرادها تحمل المسؤولية كانت تلك الامة على طريق الانحلال . فالامم تبيد من التاريخ حين تفقد أرادتها كما سقط الرومان في اواخر عهد الامبراطورية

ان للارادة المقام الاول في حروب الامم فليست المعركة الا نزاع الارادات . ففي معظم المعارك يصل الفريقان الى نقطة يصبح النصر بعدها لاثبتهما ارادة . خذ مثلاً معركة المارن فقد تقهقر الجنرال فون كلوك بالجناح الايمن من الخط الالماني في الوقت الذي اوشك فيه الجنرال مونوري الفرنسي أن يتقهقر ، ولو تجالد الالمان قليلاً لفازوا فوزاً مبيناً . وكذلك في معركة الايزر فقد خسر الالمان ١٥٠٠٠٠ جندي بلا فائدة ولو ثبتوا قليلاً لتمكنوا من نيل النصر ، قال احد الكتاب الحربيين « لو صبر الالمان ربع ساعة فقط لتمكنوا من اختراق صفوف الحلفاء » . ومثلها ايضاً معركة الجنرال كورونه التي دارت امام مدينة نانسي فقد صدر الامر الى احدى الفرق الفرنسية بالتقهقر فرفض القائد ولكنه اذعن حين جاءه أمر كتابي ، فهمّ بالتقهقر ولكنه ما لبث ان رأى الالمان يتقهقرون قبله

كل تلك الامثلة تدل على مقام الارادة في المعارك وخطورتها لاحراز النصر

فوظيفة القواد الكبار هي أن يقووا ارادة جنودهم ولا سيما ارادتهم غير الوجدانية ، وهذا ميسور بايقاظ العواطف والدوافع الموروثة . فاكبر القواد هم الذين عرفوا كيف يستخدمون الكلمات والحركات والاعمال التي توطد العزيمة وتجلب النصر

ان الارادة — لا الايمان — تزحزح الجبال

# الباب الثاني

## نشوء المانيا الحديثة

---

## الفصل الاول

### نشأة القوة الالمانية ونموها

---

١ — تاريخ بروسيا

ليست الحياة السياسية الا عنصراً من العناصر التي تكوّن تاريخ الشعوب. ولا بد لمعرفة الشعب معرفة يقينية من درس منشأ روحه وعواطفه وعقائده. ولقد تختلف عوامل النشوء التاريخي باختلاف الشعوب وفقاً لما اكتنف تاريخ كل شعب من تأثير الوسط والاخلاق والعادات وآثار الافراد والجماعات الى غير ذلك

فتاريخ الشعوب اذاً يتكوّن من عناصر كثيرة مختلفة، ولذا كان من أصعب الامور درس أحوالها وادراك حقيقة امرها. الا ان الشعب اذا كان حديث العهد وكانت العوامل التي أثرت في تكوينه ونشأته محصورة كان درس تاريخه سهلا ميسوراً، وانه لمن حسن الحظ ان تكون بروسيا من هذا القبيل

كذلك لا بد لمن يريد الوقوف على أحوال ألمانيا الحديثة ان يرجع الى العوامل النفسية التي أثرت في نشأتها حتى ثوّرتها ودفعتها الى هذه الحرب. ولا يخفى ان اتحاد ألمانيا تحت سيطرة بروسيا حديث العهد لم يبلغ عمره نصف قرن. وكان قد سعى كثيرون من امراء الالمان لتحقيق هذه الامنية بل وتمكن بعضهم من ضم عدة مقاطعات ألمانية الى اراضيهم ولكن ذلك الاتحاد لم يطل أمره ولا امتد مداه. والمستقبل وحده هو العليم بعمر هذا الاتحاد الالماني الحاضر. غير ان الذي يتراءى لنا اليوم هو انه

سوف يدوم طويلاً لان التأثير الذي أصاب الروح الالمانية في هذه المرة من جراء السيطرة البروسية قد أمعن وتغلغل في طيات النفوس . يدلك على مقدار هذا التأثير ان البرنس بولو ( المستشار الالماني السابق ) أوجس في بعض كتبه حدوث رد فعل يستثير تلك الشعوب ويدفعها الى نبذ السلطة البروسية في طلب الاستقلال المادي والفكري

وسنذكر بعد فصلاً نخصه بالبحث في تكوين الروح الالمانية تحت النفوذ البروسي اما الآن فنقتصر على درس نشوء بروسيا النفسي

تشبه الروح البروسية روح الشعوب التي اضطرت — بحكم اقليمها ومقامها الجغرافي — ان تنازع جيرانها طمعاً فيما يمتلكون من ارض ويحرزون من ثروة . فهذا الميل القهري الى الفتح هو مرجع عاداتها وآدابها وشرائعها

لم تنمُ بروسيا نمواً طبيعياً بل نشأت تدريجياً بضم شعوب مختلفة اليها . فما فتئت مساعيها للفتح متواصلة من غير ان يصيبها كلل ولا ملل حتى أدت هذه الروح غير مرة الى نقص كبير في عدد سكانها . ففي سنة ١٦٤٠ مثلاً ( أثر حرب الثلاثين سنة ) هبط عددهم في معظم المقاطعات الى أقل من نصف العدد الذي كانوا عليه

الا ان بروسيا — مع هذا كله — كانت تستعيض من تلك الخسارة باستجلاب بعض الشعوب المجاورة لها فأصبحت وهي مجموعة تكونت من جملة شعوب وامم . وقد أسعد حظها ان اضطهاد البروتستنت في فرنسا ( بعد الغاء منشور نانت سنة ١٦٨٥ ) أدى الى مهاجرتهم آلافاً . وكان من حكمة ملك بروسيا وقتئذ انه استمال الى بلاده نحو عشرين ألفاً منهم فاستقروا فيها ورقوا العلم ونهضوا بالصناعة ، فاليهم يرجع القسط الاوفر في تقدم بروسيا هذا التقدم المادي . وقد تناسل اولئك المهاجرون في سرعة عظيمة ففي سنة ١٧٤٠ كان من نسلهم ستمائة ألف نفس من سكان بروسيا جميعاً ( وعددهم وقتئذ يبلغ مليونين ونصف مليون فقط ) . فترى من ذلك ان البروسيين الفرنسيي الاصل كثيرون وان يكن فريق منهم قد استبدلوا اسماءهم بأسماء ألمانية

وما برح ملوك بروسيا مطلقي الحكم فان الدولة في نظرهم تسمو على الافراد ويحق لها ان تستخدمهم صاغرين لنيل اغراضها وتحقيق أمانيها . هذا هو المبدأ الاساسي الذي كان رائد الدولة البروسية في جميع أدوارها

وقد توجهت بروسيا عملاً بهذا المبدأ الى العناية بامر الجيش . في سنة ١٧٣٣ صدر القانون الذي يجعل الخدمة العسكرية ضربة لازب على الشعب جميعاً (وكان ذلك قبل الدول الاوربية كافة) وظلت بروسيا منذ ذلك الحين توسع في ملكها وتستبحر في عمرانها تستفيد غنمها من غرم جيرانها الى زمن نابوليون الذي نزع شوكتها وفل من غربها

ولكنها ما لبثت ان استعادت قوتها بعد سقوط نابوليون وضمت اليها مقاطعات غنية ولا سيما مدينتا كولونيا ومايانس . ومن ثم دخل نجم بروسيا في السعود حتى تكاملت عظمتها بعد نصرها على النمسا سنة ١٨٦٦ وعلى فرنسا سنة ١٨٧٠ — فكأن عظمة بروسيا قد شيدت على انتصارات ثلاثة وهي : واترلو (نابوليون) وسادوفا (النمسا) وسيدان (فرنسا)

ولايخفى ان النصر والقوة يولدان العجب والكبرياء ، فلا بدع اذا ازدادت الروح الالمانية عتوّا واختيالاً في اثناء القرن الماضي ولا سيما بعد ان قام بين الالمان فلاسفة ومؤرخون اثبتوا هذا التفوق بالادلة العلمية والتاريخية وزعموا ان الله قد وكل الى الالمان تنسيق ما اضطرب واصلاح ما فسد !

وجملة القول ان بروسيا التي تكونت بالفتح لم تستطع ان تعيش وتنمو الا بالفتح . ومن الغريب ان الدول المجاورة لها — وفرنسا خاصة — لم تدرك هذه الحقيقة ولم تفطن لها زمناً طويلاً . فقد ظلت بروسيا مستحبة الى الشعب الفرنسي منذ زمن فولتير (صديق فريدريك الثاني ملك بروسيا) الى نصرها على النمسا سنة ١٨٦٦ ، حتى قال دانتون احد زعماء الثورة الفرنسية « ان بروسيا هي حليفتنا الطبيعية » وكذلك يؤثر عن ميشليه المؤرخ الفرنسي الشهير (١٧٩٨ — ١٨٧٤) قوله « عسى ان يجود علينا الزمان بمشاهدة المانيا عظيمة قوية ! »

٢ — الامبراطورية الالمانية والافكار العسكرية

أول ما كان يعنى به بسمارك — اثر تكوّن الوحدة الالمانية — صون الدولة التي شيدها وحفظ السلم الاوربي . وقد عقد لهذا الغرض اتفاقات ومعاهدات ترمي الى منع فرنسا من الاخذ بثأرها . فان هذه الفكرة — فكرة ثأر فرنسا — كانت لا تزايل مخيلة ذلك السياسي المحنك . وكثيرًا ما ابدى تخوفه من ذلك في خطبه السياسية .

فمن هذا قوله في سنة ١٨٧٧ عند عرضه مشروع زيادة الجيش :

ان بين المانيا وفرنسا قضية تاريخية بخصوص الحدود الفاصلة بينهما . ولم يفصل في هذه القضية حتى اليوم . على ان موضوع الخلاف ـ أي الالزاس واللورين ـ بيدنا الآن . فليس ما يدفعنا الى محاربة فرنسا ولكن لا يستطيع أحد ان يقنعنا بأن فرنسا لا تضمر ثأراً ولا تبغي استرداد ما قد فقدته

ظل بسمارك محافظاً على السلم الاوربي واتبع الامبراطور الحالي سياسته بادئ الامر فتقدمت البلاد الالمانية تقدماً عظيماً في سبيل الاثراء المادي وأخذ اسطولها التجاري يجوب العالم من اقصاه الى اقصاه . الا ان ذلك الاسطول كان يجد أمامه حيثما قصد منافساً قوياً جباراً — ذلك هو انجلترا ! فكان من أثر هذه المنافسة في نفوس الالمان ان تلاشى تخوفهم من ثأر فرنسا ( ولا سيما ان التحزب والانشقاق كانا يمزقان أحشاء الشعب الفرنسي ) وأصبح سعي الالمان محصوراً في مسابقة انجلترا الممقوتة ومزاحمتها في اسواق العالم

وبعد ان كانت الحرب الشبح المخيف لبسمارك ومبعث حذره واحتياطه اصبحت امراً مرغوباً فيه اثر التوسع الصناعي والاقتصادي : وذلك لاثراء المانيا اولاً ولتوطيد سيطرتها على العالم ثانياً . فمن ذلك الحين قوي ساعد الحزب العسكري وتألفت الجمعيات الوطنية لحض الرأي العام على الحرب واقناعه بضرورتها ومنافعها . وقد كان للصحف والجامعات قسط وافر في نشر هذه الدعوة

### ٣ — سياسة الفتح في المؤلفات الالمانية

في مقدمة الكتّاب الذين هيأوا الرأي العام لهذه الحرب الجنرال فون برناردي الالماني فهو خير من يمثل الروح العسكرية البروسية . ويتبين المطلع على مؤلفاته كيف ان تلك الروح قد تأصلت في الالمان . واليك بعض اقواله :

على الدولة ألا تعتمد في اعمالها غير القوة . ولها ان تغض النظر عن القوانين والعهود التي لا توافق مصلحتها

لا نستطيع ان نوطد مكانتنا في القارة الاوربية الا بهدم اركان الاتفاق الثلاثي وبتذليل فرنسا وجعلها في الدرك الاسفل الذي تستحقه

يجب ان تنضم دول اوربا المتوسطة الى المانيا . وما دمنا لم نشهر سلاحنا في وجه انجلترا فان سياستنا الخارجية مقضي عليها بالفشل

ينبغي لنا ان نختار نحن الوقت الذي نشهر فيه الحرب . لا ان نترك اختياره لاعدائنا

بالقوة وحدها ، لا بالحق ، يسوّى الخلاف بين الدول وكما ان نظر الافراد الى ماهية العدل يختلف باختلاف مبادئهم ومشاربهم كذلك يختلف نظر الشعوب اليها وفقاً لامزجتها وتواريخها . ولا يستطيع احد ان يحكم بتفضيل نظر فريق على نظر فريق آخر . كما انه لا يمكن سن قوانين واحدة لتعامل بها جميع الدول مع ما هي عليه من الفروق الشاسعة

ان كل الاتفاقات التي ترمي الى التحكيم الدولي تضر الامم القوية الطامحة الى العلى ولا سيما اذا لم تستكمل نموها . فاستسلامنا للمحاكم الدولية يقف اتساع دولتنا في حين ان الدول الضعيفة تستفيد منه

ان الآداب الدولية غير الآداب الفردية . ولن تقوم للدولة قائمة الا بالقوة وان ضعف الحكومة لجريمة على الامة . ومن المخالف لآداب الدول ان تقف الدولة نموها واتساعها متى اقتضى ذلك تكاثر سكانها . ولا يجوز ان ترتبط الدولة باتفاقات تهدد كيانها أو تضر مصالحها

* * *

يقف ابن القرن العشرين دَهِشاً امام هذه الاقوال لانها ترجع بالعالم الى زمن سيطرة القوة، وما هي في الحقيقة الا صدى مبادئ ماكيافلي الكاتب السياسي الايطالي الشهير الذي عاش في الاجيال المظلمة . ولا يبرح من ذهننا ان تلك الآراء شائعة شيوعاً عظيماً بين اهل الطبقات الراقية من الالمان وخيرة رجالهم واساتذتهم فضلاً عن عامتهم . فاقوال الجنرال برناردي المتقدمة انما هي مثال مما يكتبه كتاب الالمان على اختلاف درجاتهم واليك مثالاً آخر من كتاب لاحدهم عنوانه « لو كنت ملكاً » :

لما كانت المانيا فوق كل شيء فلها وحدها الحق في كل شيء . ان واجبها الاول ازالة كل ما يعوق توسعها بالدم والحديد . فيجب ابادة انكلترا واذلال فرنسا حتى ننزع منها مستعمراتها ونستحوذ على جميع الاراضي التي نحتاج اليها لنأمن كل اعتداء . ويجب ان نضع البلجيك وهولندا تحت وصاية المانيا وان نكسر روسيا ونستعمر اراضيها

ولعل الجملة الآتية التي قالها احد المعجبين ببسمارك ادل من غيرها على اساس السياسة الالمانية :

على المفكرين الذين اعتركهم الدهر ان يضعوا القول المبتذل جانباً ذلك الذي يقول « ان السياسة الصادقة هي افضل ضروب السياسة » فهو اجدر بان يعلم في المدارس . فان العالم لم يشهد بعد سياسة صادقة صالحة ولا بد لرجل السياسة من غض النظر عما يلحق جيرانه من الاضرار في سبيل توطيد سلطته وسداد مراميه

ومن افضل ما يدل على ازدراء الالمان للدول الصغيرة واعتقادهم بان ليس لها حق الاستقلال ما ذكره المسيو بينس سفير البلجيك السابق في برلين من محادثة دارت بينه وبين وزير الخارجية الالمانية اذ قال الوزير :

للدول العظمى وحدها حق الاستعمار وان الدول الصغيرة سوف تضطر الى الالتحاق بالدول العظمى، لان تطور اوربا السياسي لن يجيز لها في المستقبل ان تبقى مستقلة . فامامها احدى الخطتين : اما ان تتلاشى او ان تنضم الى بعض الدول العظمى

☆ ☆ ☆

هذه هي المبادئ التي ما برح ينشرها مؤرخو الالمان وساستهم وفلاسفتهم فلا عجب اذا اغتروا باحلام زعمائهم وطمحوا الى ان يسيطروا على العالم كافة

وجملة القول ان بروسيا كانت في الاصل خليطاً من شعوب مختلفة وانها لم تحيَ وتنمُ الا بالحرب والفتح مضطرة الى ذلك بتأثير مقامها الجغرافي . فلما تم الاتحاد الالماني بعد انكسار فرنسا في حرب السبعين تطبعت الدولة الالمانيـة — وما هي الا صنيعة بروسيا — بتلك الطباع . وقد ساعد على احداث هذا التطور الجامعات والمؤرخون والكتاب والفلاسفة والجمعيات الوطنية ، وفي المقام الاول من ذلك التربية العسكرية

ولكي تسود المانيا على مناظريها ولاسيما انجلترا لم تر بداً من جيش واسطول عظيمين . ولأجل ان يرتضي النواب نفقاتهما الباهظة أخذت تلح المانيا تبين لشعبها ان السلم الاوربي في خطر

واذا كان من السهل توليد العواطف في نفس الشعوب فانها متى وجدت وتمكنت تصبح ذات قوة عظيمة يتعذر وقفها عند حدها

# الفصل الثاني

## نظرية الدولة ومعنى التاريخ عند فلاسفة الالمان

### ١ — منشأ النظرية الالمانية لسلطة الدولة

ان من أهم المباحث التي يعنى بها علم السياسة علاقة الافراد بالدولة ، ولا سيما في العصور الحديثة فان العقدة العظمى التي تشغل ساسة اليوم هي حفظ الموازنة بين حرية الافراد وسلطة الدولة . أما في العالم القديم فلم تعبأ الدول بحقوق الافراد بل وضعت السلطة المطلقة في يد صاحب السلطان

ونظرًا لتعدد الاجناس التي تكوّنت منها بروسيا ولطمعها المتزايد في جيرانها لم يوافقها من اشكال الحكومة الاّ الحكم المطلق . فما برح ملوكها يقولون بسمو سلطة الدولة ويتطلبون من رعاياهم الخضوع التام والتضحية بارواحهم واملاكهم في سبيل تقدم الدولة وبسط نفوذها . وكان من مبادئهم ألا يحترموا اتفاقاً الا اذا كان موافقاً لمصالحهم فكأنهم سبقوا في ذلك الفيلسوف نيتشي الذي قال « ان الحرب النافعة تبرر كل وسيلة »

وقد كانت هذه المبادئ في اول الامر مستقرة في نفوس ملوك بروسيا من غير ان يدوّنها أحد . ثم قام فلاسفة الالمان فاتخذت على يدهم شكلاً نظرياً ودعمت ببراهين شتى . وأول من عبر عنها بصيغة فلسفية هيجل وفيشت الفيلسوفان المعروفان ، ثم توسع فيها من جاء بعدهما من المؤرخين ولا سيما تريتشكي ، والادباء كنيتشي ، والكتاب المعمّمين مثل لاسون وبرناردي . وسنشرح نظريتهم معتمدين على أقوالهم نفسها

كان هيجل اول القائلين بمنح الدولة حق التصرف المطلق ، بل ذهب الى أبعد من ذلك فقال بوجوب عبادتها عبادة الاله . وادعى ان القوة وحدها هي التي تسير التاريخ

وقد كانت هذه المبادئ اول الامر محصورة في اهل الجامعات ولكنها لم تلبث ان عمت جميع الطبقات . وكان من الطبيعي ان تشجع الحكومة البروسية نشر تلك

الآراء التي تؤلهها وترفعها فوق كل سلطة عالمية ، والتي تتيح لها النمو والتقدم والاتساع

ولما كان الانسان بطبعه ينفر من مثل هذه التعاليم فقد اجتهد فلاسفة الالمان في نسبتها الى من تقدم من الامم العظيمة ولا سيما الرومان . فبينوا ان الدولة الرومانية — في دور الجمهورية وفي دور الامبراطورية على السواء — كان لها سلطة مطلقة سمت بها على الافراد . ثم سعوا أيضاً ليبرهنوا على ان الامبراطورية الالمانية ليست الا تتمة للامبراطورية الجرمانية المقدسة بعد تطهيرها من النمسا الكاثوليكية . والحقيقة ان أوجه الشبه طفيفة بين نظرية الرومان ونظرية الالمان من حيث سلطة الدولة . وانما تشبه نظرية الالمان نظريات الحكومات الاسيوية المطلقة

ان هذه النظرية البروسية الاصل مرجع تاريخ بروسيا ونظاماتها ولا سيما انهـا طبقت قبل ان تصبغ صبغة فلسفية ، ولذا كان تشرب الشعب لها سهلاً سريعاً

٢ — ابتلاء الدولة للفرد

تأول النظريات الالمانية حتماً الى ابتلاع الدولة للافراد ، وتاريخ بروسيا — بل تاريخ المانيا ايضاً بعد اتحادها — يدل دلالة قاطعة على صدق هذا القول ، فان الدولة هي التي تدبر كل شيء وتعتني بكل شيء . وقد خضع الالمان لهذا النظام الحديدي الذي لا يتحمله شعب من الشعوب الاوربية بفضل التربية العسكرية الصارمة وما تعودوه من تأليه الحكومة والخضوع لارادتها المطلقة ، وقد رأينا ان الدولة في نظرهم شبه اله يتلقون أوامره عن رغبة واطمئنان وما البلاط والمحاكم والكنيسة والحكومة والمجالس في نظرهم الا مظاهر تلك الذات الالهية واعضاؤها التي تعبر عن مقاصدها وتحقق رغائبها

ولا يتطلب هذا الاله موافقة الاهلين لخطته بالنظر والتفكير ، وانما يطلب منهم الطاعة العمياء لان الدولة ارفع من ان ينالها مدح أو ذم . والواقع ان الالمان قلما يفكرون في انتقاد حكومتهم بل قد بلغ الاعجاب بنظامهم هذا انهم يسعون في نشره بين جميع الامم

اما في فرنسا وانجلترا فان الفرد يعد الحكومة أو الدولة ذاتاً مستقلة عن ذاته وكثيراً ما لا تتفق آراؤه وآراءها فيناهضها ، بعكس الالماني فانه على الاجمال يعد للدولة ممثلة روح جنسه و يعد مناهضتها خيانة

والذي لا ريب فيه ان للدولة في المانيا مقاماً عظيماً جداً يقرب من العبادة . فبينا الانجليزي والفرنسي يطمحان الى الحرية والاستقلال ترى الالماني تلذ له الطاعة والخضوع . فهو يحب الاستبداد واذا ما اصاب ذرة من السلطة استبد بها ايضاً على غيره

اما الجندية فان نظامها يقضي بالعبودية التامة ، واي دليل ابلغ من الخطاب الذي القاه الامبراطور الحالي على بعض فرقه سنة ١٨٩١ اذ قال : « انكم جسداً ونفساً ملك لي فاذا امرتكم بقتل آبائكم وامهاتكم فعليكم ان تطيعوا من غير تريث ولا تمهل ». ففي اي شعب متمدن سوى المانيا يجرأ رئيس الحكومة ان يفوه بمثل هذا القول ؟

ان طاعة الالمان تجعل حكمهم سهلاً . فالقوانين عندهم تنفذ بصرامة شديدة في حين انها كثيراً ما تهمل وتخالف عند الفرنسيين . خذ مثلاً لذلك حادثة فندق استوريا فقد بنى هذا الفندق في باريس احد الرعايا الالمان سنة ١٩٠٧ ولكنه خالف في بنائه القانون الذي يقضي بألا يتجاوز البناء ارتفاعاً معيناً . فلو كان هذا البناء في المانيا لما قامت قائمة للطبقات الزائدة على العلو القانوني ، بل انها كانت تهدم في ظرف ٢٤ ساعة . هذا اذا فرضنا ان الحكومة لم تشعر بمخالفة القانون اثناء بناء المنزل . اما في فرنسا فقد ظلت المشاحنات قائمة بين الحكومة وصاحب الفندق ولا يزال البناء قائماً حتى اليوم !

ويجدر بنا ان نغض النظر عن هذيان بعض علماء الالمان في اثناء الحرب وألا نعير اقوالهم التفاتاً لانه يتعذر اتخذها انموذجاً يمثل الرأي العام الالماني اشدة تطرفها . ولكننا رأينا ان نورد مثالا منها تفكهة ولا سيما انه ينسب الى استاذ جليل هو الاستاذ سوالد قال :

قد بلغت المانيا بفضل نظامها طوراً من المدنية لم تبلغه الامم الاخرى . فاذا نظرنا الى اعدائنا وجدنا ان روسيا لا تزال في دور العشائر. اما فرنسا وانجلترا فانهما الآن في الدور الذي كنا فيه من خمسين سنة اي دور الفردية . ان فوق هذا الدور دور التنظيم وهو الدور الذي بلغته المانيا . واذا سألتموني : ماذا تبغي المانيا اليوم ؟ اجبتكم انها ترمي الى تنظيم اوربا التي لم تعرف النظام الحقيقي بعد وبعبارة أخرى انها تريد تحقيق فكرة العمل الاشتراكي

فلا شك ان هذا الرأي وان سر بعض الاشتراكيين فانه لا يسر العقلاء المستنيرين الذين يعلمون ان التقدم والاختراعات العظيمة انما هي من نتاج قرائح الافراد لا الجماعات. ولا تظهر فائدة الاشتراك في العمل وتنظيمه وتقسيمه الا بين متوسطي المدارك . وقد

ظفرت المانيا بهذا الربح لان مزاج الالمان وطبائعهم الاجتماعية المتشابهة تسهل عليهم العمل معاً وتصعب عليهم العمل الفردي . وسترى فيما بعد كيف ان جميع زائري معسكرات الاسرى الالمان لاحظوا فيهم وحدة الافكار والطرق كأنهم سكبوا جميعاً في قالب واحد

واليك ما كتبه الاستاذ ادوارد ماير الالماني مقابلاً بين رأي الالمان ورأي الانجليز في ماهية الدولة وحقوقها وواجباتها . قال :

لا يقتصر الاختلاف بين الفريقين على مكانة الدولة فقط بل يتناول ايضاً حدود الحرية الفردية ازاء سلطة الدولة . فللفرد في نظر الانجليزي حق السعي والارتزاق دون ان تتعرض الحكومة لحريته ، وعليه في المسائل العامة قبول حكم الاغلبية . اما في نظر الالماني فالحرية تعني الخضوع لمصلحة الجماعة والاماني الجنسية . وبعبارة اخرى ان الانجليزي يعد الحكومة ضغطاً لحريته ويطلب ان تنحصر سلطتها جهد المستطاع .وبعكسه الالماني فانه يعد الدولة ممثلة لاسمى اماني جنسه ويرى ان لها ان تبسط جناحيها على جميع مظاهر الحياة الوطنية ، لان اوامرها في نظره وصايا ادبية يقبلها غير كاره ولا متململ لانه عضو من المجموع الشامل كأنه يحولها بقبوله التام الى اعمال صادرة من ارادته الحرة

فنرى مما تقدم ما هو النظام الذي تريد المانيا بسطه على الدول الاوربية . فانه انما يقوم بالطاعة التامة من حيث انها « مظهر من مظاهر ارادته الحرة » . وعلى هذا القياس كان يمكن العبد الذي يدير الطاحون خوفاً من السوط ان يدعي حرية عمله

لا يستطيع شعب من الشعوب الحرة ان يعيش تحت هـذا النظام الصارم . فمستحيل على الاميركي أو الانجليزي ان يتقبل الحكم الالماني لانهما يريان ان الدولة وجدت لمنفعة الافراد لا الافراد لمنفعة الدولة ويعتقدان ان الحرية والاستقلال أرقى من الخضوع الاعمى

٣ — عبادة القوة

تبين لنا مما تقدم ان نظرية الالمان في شأن الدولة تجعل المقام الاول للقوة المادية . ولقد كان تأليه القوة أمراً طبيعياً في بروسيا التي اوجدتها القوة والتي لم تستطع ان تعيش وتنمو بغير القوة . فلا غرابة ان يبرر مؤرخو الالمان اعمال دولتهم بجعلهم القوة عامل التاريخ الاول . فعندهم ان القوي وحده يؤتى النصر الذي به تتجلي فضائل الشعوب

ولما كانت القوة مطلقة فانها تغضي عن الرأفة وتتصرف كما تشاء . وقد كرر مؤرخو الالمان وفلاسفتهم هذه الاقوال غير مرة . من ذلك قول اهرنج المشترع الشهير : « قوة

المنصور وحدها تحدد الحقوق » وقول نيتشي : « لا يعترف القوي بواجبات الا لمن كان مساوياً له ، وأما من كان أقل منه أو غريباً عنه فله ان يعامله بما يشاء . وان أشد الصفات خطراً على القوي الرحمة »

وتتجلى هذه الروح في مبادئ أركان الحرب الالماني كما سيجيء بعد

ان بين تلك المبادئ والمبادىء المسيحية الصحيحة لبوناً شاسعاً ، ولكن المانيا على الرغم من ذلك لا تزال مسيحية ، غير ان المسيح الداعي الى السلام والمحبة كما هو مصور في الكتاب المقدس قد تحول عند اهلها الى اله دموي يحب الحرب والفتح . فهذه النصرانية الجديدة الجديرة بان تنسب الى الوثنية قد نبذت الآداب المسيحية جانباً وعدتها على قول نيتشي « آداب العبودية » . فليست الرقة والرحمة والدعة في نظرها الا ضعفاً وعجزاً ولا حد للحق عندها غير القوة ، وانه لمن حق الدولة القوية ان تسيطر على الدول الضعيفة من غير ان تأخذها فيها رحمة ولا شفقة . وليس ادل على الروح الالمانية من هذا القول المنسوب الى غليوم الثاني : « ان الانسانية في نظري تنتهي عند الفوج » اي عند حدود المانيا

تلك هي المبادىء التي ادت الى فظائع الحرب الاوربية واهوالها

ولم ينتشر مذهب عبادة القوة عند الالمان الا بعد ان اختبروا قوتهم وتثبتوا من تفوقهم في هذا الميدان . اذ ذاك ظهر فيهم معلمون ادخلوا الى عقولهم انهم شعب ممتاز قد فرض عليه فتح العالم باسره . ومن ثم نشبت هذه الحرب وهي ترمي الى تذليل الشعوب المنحطة لانها حجر عثرة في سبيل المطامع الالمانية

متى عجز المرء عن حكم نفسه وقهر غرائزه الوحشية يلجأ الى تمجيدها حتى يبرر انقياده لها ، فلا غرو ان يمجد فلاسفة الالمان أحط مظاهر الروح الهمجية المستقرة في الشعب الالماني

٤ — علاقة الدين بالدولة

في معظم الدول الملكية الشكل — حتى المطلقة منها — تجد فاصلاً بين الحكومة والدين . وقد استحكم النزاع كثيراً بين هاتين القوتين ولكن قلما وفقت احداهما الى اخضاع الاخرى خضوعاً تاماً .

ولما كان وجود قوة مستقلة كقوة الدين ( أو بالحري الاكليروس ) في الدولة

من دواعي الضعف فقد سعى مؤسسو الدولة البروسية في اخضاعها . وتيسر لهم ذلك ولا سيما ان الديانة البروتستنتية سهلة الانقياد للسلطة المدنية

الآ انه لما تم الاتحاد الالماني بعد حرب سنة ١٨٧٠ تغيرت الحال : فان الامارات التي انضمت الى بروسيا كان فيها عدد كبير من الكاثوليك لم يسهل اخضاعهم . ففي المانيا اليوم بجانب الاربعين مليوناً من البروتستنت ما لا يقل عن خمسة وعشرين مليوناً من الكاثوليك . وقد نشأ من وجود هذا الشقاق الديني في المانيا مشا كل كثيرة صرف بسمارك جهده في ازالتها فلم ينجح الا نجاحاً جزئياً . وما برح الحزب الكاثوليكي من ذلك الحين قوة مستقلة . وسوف يظل هذا الشقاق من أسباب الضعف في المانيا ومن اشد العقبات في سبيل اتحادها التام — على رغم ان الكاثوليك قد انضموا الى الاحزاب الالمانية الاخرى منذ نشوب الحرب .

ان لأولئك الكاثوليك قوة لا يستخف بها مع انهم اقل عدداً من البروتستنت ، فلهم جرائد ومجلات تقاوم الحكومة فى كثير من الاحيان ، ومنهم يتألف حزب الوسط فى الريشستاغ الالماني و بانضمام هذا الحزب الى احد الاحزاب المعارضة يتمكن من الحصول على الاغلبية . وقد الجأ البرنس بولو الى الاستعفاء من منصب الاستشارة سنة ١٩٠٩

ولهذا السبب نرى بين ممثلي الحكومة كرهاً شديداً لذلك الحزب ورجاله — وقد قال عنه احد الوزراء مرة على منبر الريشستاغ « انه دمل خبيث في جسم الامبراطورية » وجملة القول ان للحزب الكاثوليكي قوة كافية لمكافحة الحكومة ومنعها الاستئثار بالسلطة . فبينما رجال الحكومة والاكليروس البروتستنتي خاضعون جميعاً للامبراطور دون غيره نرى الحزب الكاثوليكي خاضعاً لسلطتين معاً : الامبراطور وفوقه البابا

ومما يدفع البروتستنت الى مناهضة الكاثوليك اعتقادهم ان عظمة المانيا انما قامت بالروح البروتستنتية — على ما علمهم مؤرخوهم ولا سيما تريتشكي

٥ — كيف يشرح الفلاسفة الالمان آراءهم في الدولة والحق

قد يتبادر الى ذهن القارئ الذي لم يتعود قراءة الكتب الالمانية — التاريخية والفلسفية — انني غاليت في بيان آرائهم ونظرياتهم . والحقيقة انها هي هي لم تتغير منذ زمن هيجل الى هذا العصر . وقد رأينا ان نذكر هنا خلاصة تلك الآراء مستخلصة من

كتاب للاستاذ لاسون ( من جامعة برلين ) ظهر قبل الحرب بسنوات واليك خلاصته :

لا يعقل ان تقبل الدولة حكماً تخضع لاحكامه . فان الحرب حالة طبيعية بين الدول ؛ والتنازع الدائم هو القاعدة التي ترتكز عليها في علاقاتها بعضها ببعض . وليست الصداقة بينها الا مصادفة وشذوذاً . . . وان يوجد بين الدول قانون تخضع له جميعاً لان ذلك القانون لا ينهض الا اذا عد فوقها . فالدول التي ترضى ذلك تكون كأنها قد اعترفت بضعفها وعجزها . والقانون الوحيد بين الدول انما هو ما يقرره القوي

ما برح الضعيف غنيمة باردة في يد القوي على الرغم من كل العهود والاتفاقات . ويجوز ان نعتد هذه القاعدة ملائمة للقواعد الادبية الصحيحة لانها موافقة للعقل السليم

متى نشبت الحرب هدد كل شيء وجاز كل شيء . وانه لمن الضعف توقع الرأفة من العدو كما انه من الضعف ايضاً اظهارها له

الحرب التي ترمي الى الفتح جائزة كالحرب الدفعية . والمسألة الوحيدة التي ينبغي النظر اليها والعناية بها هي ثروة البلاد التي يطلب فتحها

لا يسود بين المدنيات المختلفة غير الحقد والضغينة

لكل دولة حق المداخلة في شؤون الدول الاخرى ولا يجوز ان ترجع عن تلك المداخلة الا متى ادركت ضعفها

يخدع الضعيف نفسه بحرمة العهود التي تضمن حياته . والحقيقة ان لا ضامن للحياة سوى القوة

فترى مما تقدم خطأ الذين كانوا يبشرون بالمذاهب السلمية مبينين جمال الحق وسلطانه الخ . فان من الخطأ العظيم الاعتقاد بان الحق يصون نفسه ولا سيما ازاء تلك المبادئ الوحشية . وقد علم الاختبار انه لا يصان الا بالقوة

ولا شك ان المبادئ الالمانية احرى باطوار من المدنية قد تجاوزتها معظم الدول الاوربية . فهي ترجع بنا الى الزمن الذي كان فيه صاحب السلطة لا يعتمد الا على سيفه محتقراً كل معاهدة لا ترضيه . ولذا كان الفرق عظيماً جداً بين التقدم الصناعي والتجاري الذي بلغته المانيا من جهة ومزاجها العقلي ونظاماتها العسكرية من جهة اخرى ، بل ان الجهتين اجدر ان تكونا منفصلتين لانهما تمثلان طورين مختلفين من المدنية

ولله درّ الفيلسوف مومسن الذي قال : « احذروا هذه الدولة المكونة من قوة العقل وقوة السيف لئلا تمحي قوة العقل فلا يبقى غير قوة السيف »

وقد كان من نتيجة التعاليم الالمانية انها اضطرت الدول الاوربية الى البقاء مسلحة متأهبة للحرب مدة نصف قرن تقريباً حتى ادت الحالة اخيراً الى هذا الانفجار الهائل

# الفصل الثالث

## نشوء المانيا الاقتصادي

١ — تقدم المانيا صناعياً وتجارياً

ينبئنا التاريخ عن شعوب فقيرة اتخذت الحرب وسيلة للارتزاق . وقد كان نشوء بروسيا مثالاً على ذلك كما تقدم . على اننا قلما نجد دولة بلغت درجة عالية من التقدم الصناعي والتجاري ترغب في حرب تضر بمصالحها سواء خرجت منها غالبة أو مغلوبة — الا المانيا الحديثة التي بلغت في ربع قرن شأواً عالياً من الرقي الاقتصادي غبطتها به الدول العريقة في المدنية . فقد شهرت الحرب في حين نالت من الارتقاء ما بذلت انكلترا لبلوغه اكثر من قرن . واليك بعض الارقام الدالة على تقدم المانيا السريع العجيب :

كان عدد سكانها في سنة ١٨٨٨ لا يتجاوز ٤٨ مليوناً فاصبح نحو ٧٠ مليوناً سنة ١٩١٤ . اما ثروتها فقد ارتفعت في المدة نفسها من ١٠٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ مليون جنيه . وقد كانت تجارتها قبل الحرب منتشرة في جميع الاقطار على الرغم من حقارة مستعمراتها بالقياس الى مستعمرات الدول الكبرى . الا انها كانت على وشك استعمار العالم باسره استعماراً اقتصادياً

وفي مقدمة الاسباب التي ساعدت المانيا على هذا التقدم الصناعي الغريب استكشاف مناجم للفحم في املاكها . فبينما كانت فرنسا مضطرة الى استجلاب بعض الفحم اللازم لها من الخارج أصبحت المانيا وهي في غنى عن جانب من فحمها حتى كانت تصدره الى الدول الاخرى

ولكي ندرك معنى الارقام السابقة يجب ان نتأمل في الثروة التي تمثلها : ان ثروة الدول في هذا العصر تقف خصوصاً على كمية القوة الميكانيكية التي تستطيع توليدها واستخدامها ، ولهذه القوة مصدران كبيران : عمل الانسان وايقاد الفحم . وقد تتج

عن التجارب والتقديرات التي عملت للوقوف على مقدار ما يعادل عمل الانسان من الفحم ان طن الفحم ( اي الالف كيلوغرام منه ) يعادل عمل خمسة رجال مدة سنة . ولما كانت المانيا تستخرج سنوياً ١٩٠ مليون طن من الفحم فكأن لديها ٩٥٠ مليون عامل

زد على ذلك ان الفحم رخيص بالنسبة الى عمل الانسان فان الطن يساوي عادة نحو ١٥ فرنكاً فقط في حين ان العامل المتوسط يقبض نحو ١٥٠٠ فرنك في السنة . ولما كان الطن من الفحم — على ما ذكرنا — يقوم بعمل خمسة رجال فكأنه — وثمنه ١٥ فرنكاً فقط — يعادل من عمل الانسان ما قدره ١٥٠٠ × ٥ = ٧٥٠٠ فرنك

فيتبين لنا من ذلك انه كلما زاد الفحم في المملكة كان ذلك في مقام تضاعف اهلها . وجملة القول ان لمناجم الفحم اليد الطولى في رقي المانيا الحديث

وأول تأثير كان لاستكشاف تلك المناجم انه حث الناس على هجر الزراعة الى الصناعة ( حتى لم يعد من اهل الزراعة سوى ١٥ مليوناً من السبعين مليوناً ) . ولتوافر الرجال والفحم لدى المانيا تمكنت من تقديم مصنوعاتها للاسواق باسعار لا تجارى . وظل هذا التقدم يتضاعف حتى اصبحت معاملها عظيمة واسعة . وفي مقدمتها معامل كروب التي تستخدم ١٠٠٠٠٠ عامل

فلما رأت المانيا نجاحها هذا اخذت تزيد كمية مصنوعاتها زيادة عظيمة حتى اضطرت الى مواصلة البحث عن اسواق جديدة لتصريف مصنوعاتها

ان ذلك الاحتقان الصناعي سبب من اسباب الحرب الخفية — ولا سيما ان المانيا كانت حيثما ذهبت تجد مناظرين اقدم منها عهداً ، واولهم انكلترا

وقد قدر المسيو هلفريخ المالي الالماني ان ثروة المانيا تبلغ حول ١٦٠٠ مليون جنيه ( وقد ذكرنا آنفاً ان التقدير الاصح ١٥٠٠ مليون جنيه ) وان دخلها السنوي الفا مليون جنيه . فلنفرض صحة تلك الارقام . فماذا تمثل هذه الثروة ؟ يمثل معظمها اموالاً انفقت في انشاء المعامل الضخمة ولما كان المصنوع في تلك المعامل عظيماً جداً يتعذر استنفاده في داخل البلاد فقد كان جل اعتمادها على الاسواق الخارجية

فنرى من ذلك ان اتساع الصناعة كان يحتم على المانيا ان تضمن لها اسواقاً في الخارج . ولذا كانت تزداد كرهاً لمناظريها في تلك الاسواق ، وانكلترا خاصة

٢ — اسباب تقدم المانيا ووسائلها الصناعية

قد علمنا مقام الفحم في تقدم المانيا السريع . ولكن هنالك اسباباً اخرى لهذا التقدم بعضها حقيقي وبعضها وهمي يجدر بنا ان نذكرها

فمن الاسباب الموهومة اعتقاد البعض ان نجاح المانيا الاقتصادي نشأ عن انتصاراتها الحربية سنة ١٨٧٠ وقد بين الكتّاب الاقتصاديون خطأ هذا الوهم وبرهنوا على ان لاتساع في الملك لا تأثير له في ثروة الامم او بالحري في ثروة افرادها وترفيهم

ولا يخطر للقارئ ان الخمسة مليارات فرنك التي قبضتها المانيا سنة ١٨٧٠ قد اثرتها. فان السلم المساح الذي اضطرت الى المحافظة عليه بعد ذلك كلفها اكثر من ستين مليارًا. زد على ذلك ان حالتهـا الاقتصادية في العشر سنين الاولى بعد محاربتها فرنسا لم تكن حسنة ، فقد اضطرت وقتئذٍ الى الاقتراض وسعت في عقد قرض من فرنسا التي قهرتها وابتزت مالها ! فالحقيقة هي ان تلك الحرب اخّرت تقدم المانيا الاقتصادي

اما الاسباب الحقيقية التي ساعدت على ارتقاء المانيا العجيب فمنها تفوقها في التربية الفنية وانتظام عاداتها وطرقها المستمدة من نظام جنديتها . فان بين عيشة العمل وعيشة الثكنة شبهاً كبيراً . والانتقال من احدهما الى الآخر يتم عند الالماني بسهولة عظيمة

قال احد الاقتصاديين الالمان : « ان الروح النظامية المنتشرة في الجيش الالماني هي نفس الروح التي سببت تقدمنا الاقتصادي وجرت علينا حقد انكلترا . فالنظام العسكري هو مدرسة لعمالنا »

لا ريب في ان النظام الصارم الذي يخضع له الالماني في اثناء خدمته العسكرية هو افضل مرب له يعده لدخول المصنع والعمل فيه بنظام . وينبغي لنا الآن ان ندرس كيف عرف الالمان ان يستفيدوا من نظام مصانعهم وما هي الطرق التي يستخدمونها في الصناعة والتجارة

ومع اني قد ذكرت تلك الطرق في كتبي السابقة فقد رأيت ان انقل شيئاً من مقالة لاحد الكتّاب المحايدين — واعني به المسيو ميليو السويسري : فقد بيّن هذا الكاتب في بدء مقاله ازدياد الالمان النازلين في بعض الدول الاجنبية واتساع نفوذهم فيها ، ولا سيما البلجيك التي دخلوها ممثلين لمتاجرهم الوطنية ثم اشتروا فيها المحلات التجارية والمعامل اما باسمائهم مباشرة او تحت اسماء مستعارة

ثم ان للالمان نظاماً اقتصادياً منتشراً في بلادهم يعرف بنظام « الكارتل » . والكارتل هو اجماع المشتغلين بصناعة واحدة على انشاء مكتب واحد لصناعتهم تحدد فيه الأثمان وتباع المصنوعات وتجمع الارباح ثم توزع منه على الاعضاء . فبفضل هذا النظام يتمكن الالمان من التغلب على مناظريهم وكسر شوكتهم حتى ولو اضطروا الى بيع سلعهم باقل مما تكلفهم . ولكنهم يفعلون ذلك ريثما يفلس مناظروهم فيعودوا الى رفع الاسعار . ومن نتائج هذا النظام الاحتكاري الغريب ان الالمان يبيعون مصنوعاتهم في الخارج (حيث مزاحموهم كثيرون) باقل مما يبيعونها في المانيا نفسها (حيث لا مزاحم لهم). خذ مثلاً لذلك الحديد فبينما كانت الجسور الحديدية يباع الطن منها بسعر ١٣٠ ماركاً في المانيا كانت تباع في سويسرا بسعر ١٢٠ وفي ايتاليا بسعر ٧٥ فقط (وفي هذا السعر الاخير خسارة لا تقل عن ٢٠ ماركاً في الطن)

فبمثل هذا التخفيض في الثمن وبفضل المساعدات التي يقدمونها لعملائهم من حيث الوفاء بالدين ( اذ يمهلونهم زمناً يتراوح بين ١٢ و ١٨ شهراً ) قد تمكن الالمان من ايجاد عملاء وزبائن في جميع الاسواق كما تمكنوا من التغلب على مناظريهم

ثم ان الحكومة الالمانية قد ساعدت الصناعة بكل ما في وسعها فرغبت فيها الاهلين وحرضتهم على تصدير السلع الالمانية الى جميع الاقطار فقدمت لهم مساعدات عظيمة في هذا السبيل

على ان هذه الطرق تستلزم رؤوس مال كبيرة ، فمن اين اتى بها الالمان ؟ لقد حصلوا عليها اولاً من المصارف الالمانية التي كانت تجمع ما يدخره الشعب الالماني ويستودعها اياه فتساعد به الاعمال الصناعية الكبيرة . ثم ان المال كان يأتيها ايضاً من البلاد الاجنبية — كفرنسا مثلاً — بواسطة بعض المصارف الفرنسية

ولما كان طلب النقود يتزايد في كل يوم اضطرت المصارف الالمانية الى الاستعاضة عن النقود الذهبية والفضية التي تحتفظ بها للاحتياط ( كما تفعل مصارف العالم كافة ) باوراق مالية مختلفة. والفرق بين الاوراق المالية والنقود هو أن الاولى لا تعتمد الا اذا كانت الثقة موطدة . على خلاف الثانية فان قيمتها فيها نفسها . هذا هو ضعف المصارف الالمانية فان النسبة فيها بين عملة الورق وعملة الذهب عالية جدا

وفضلاً عن ذلك فان الحصول على فوائد الاموال الباهظة التي بذلت في الاعمال

الصناعية كان يستدعي زيادة المصنوعات زيادة مستمرة حتى تجلب من الربح ما يكفي لدفع تلك الفوائد . ولكنهم لم يستطيعوا تصريف كل ما كانوا يصنعونه ولا سيما أنهم كانوا يجدون حيثما ذهبوا مناظريهم الانكليز !

واليك النتيجة التي توصل اليها الكاتب المتقدم ذكره بعد هذه المقدمات قال :

شعر الالمان — من غير ان يهددهم احد — انهم مهددون من جميع الجهات . ولا شك انهم مصيبون في قولهم انهم يحاربون لاجل بقائهم وحياتهم . فان ماليهم وتجارهم ورجال حكومتهم دفعوهم الى فتح العالم اقتصادياً بطرق ووسائل لم يستطيعوا معها العدول عما شرعوا فيه . وقد شعروا ان النصر خانهم — وان لم يكونوا قد غلبوا بعد . فكانوا بين أمرين اما الانكسار ووقوف المصانع وافلاس التاجر والجوع والفقر والخراب واما الحرب المنقذة من هذه الاخطار . قالوا وما زالت الحرب نشبة عاجلا أو آجلا فلنختر الوقت الذي بلغنا فيه اشد قوتنا بالنسبة الى الدول الاخرى

على اني — وان سلمت بخطورة هذه الاسباب الاقتصادية وانها ربما كانت وحدها دافعاً كافياً لنشوب الحرب في المستقبل — لا اعتقد انها كانت كافية وقت اعلان هذه الحرب ، لان الشعب الالماني لم يكن قد شعر بعد بالضغط الاقتصادي الشديد . وانما كان على ابوابه كما يستدل من انذار المستر بالن صديق امبراطور المانيا ورئيس شركة ملاحة « هامبورغ اميركا » للشعب الالماني قبل الحرب بشهر اذ قال : « ان اسواق العالم أخذت تتقلص وتضيق في وجه الصناعة الالمانية » . وقد كان في برلين وقت الحرب ١٠٠٠٠٠ عامل بلا عمل . ولم يعد في امكان اصحاب الاعمال اقتراض المال بفائدة تقل عن ٨ في المئة ( ولا يخفى ان ارتفاع الفائدة دليل على قلة الثقة )

فنرى مما تقدم أن الشعب الالماني كان مهدداً وان يكن تقدمه عظيماً

٣ — انتشار التجارة الالمانية في فرنسا وفي العالم

بالرغم من الاخطار المتقدمة التي كانت محدقة بالمانيا كانت تجارتها منتشرة انتشارا واسعاً في جميع انحاء العالم . وليست فوائد التجارة مقصورة على الربح المادي فان الدولة التي تستولي على أسواق دولة أخرى ومرافقها ومتاجرها تكون كأنها فتحتها فتحاً عسكرياً

تلك كانت حالة الالمان في بعض الدول ومنها البلجيك وروسيا وفرنسا . فان

مقاطعات فرنسية كاملة كانت ملكاً لهم ، كشاطىء فرنسا الجنوبي واسمه الشاطىء السماوي ( Côte d'Azur ) المشهور بمحلات الاصطياف والنزهة والقمار فقد كانت فنادقه وملاهيه في يد الالمان . هذا فضلاً عن الصناعات الفرنسية الاخرى كالمواد الكيمية والآلات الطبية والمواد الملونة الخ .

وقد دلت حوادث الحجز التي أجرتها الحكومة الفرنسية بعد الحرب على وجود ١٢٠٠٠ محل الماني . فلو ظل الالمان على تقدمهم هذا عشرين سنة أخرى لاصبحوا أصحاب البلاد الحقيقيين

وحدث مثل ذلك في ايتاليا وروسيا حيث كانت معظم المصارف والمصانع الكبرى في يد الالمان . أما في انكلترا فلم يكن للالمان الا أثر طفيف

والجملة ان الالمان كانوا على وشك فتح العالم فتحاً اقتصادياً . فقد كانت روسيا شبه مستعمرة المانية كما يستدل من الخطب التي ألقيت في مجلس الدوما أثر تقهقر الروس ومنها استخلصت احدى الجرائد ما يلي :

ان ما جرى لروسيا يفوق كل ما عرف عن تسلط الالمان على متاجر العالم فقد كانوا سائرين في سبيل استعمار روسيا لا يثنيهم عنه شيء ، وكثيراً ما كانوا يرشون الموظفين كباراً وصغاراً . حتى أصبحت المصارف والمحلات التجارية الكبيرة والمناجم وعدد من المصانع في يدهم . زد على ذلك ان الالمان المستوطنين روسيا واكثرهم من الذين آوتهم كاترينا الثانية ما برحوا محافظين على جنسيتهم ولغتهم واكثر سكناهم في ضواحي المدن الحصينة وعلى جوانب خطوط المواصلات . وقد كان بينهم وبين دعاة الجامعة الجرمانية روابط متينة . ولكن أشد الخطر كان ناجماً عن نفوذ الالمان في البلاط الامبراطوري وفي الوزارات والجيش . وقد اتهم الخطباء نفراً من اكابر الرجال بميلهم الى الرعايا الالمان والنمسويين

واذا كانت كل بلد يستثمرها قوم تعد مستعمرة لهم جاز لنا أن نعتد فرنسا وروسيا والبلجيك قبل الحرب شبه مستعمرات المانية

ولم يقتصر هذا الاستعمار على أوربا بل انتشر بسرعة في جميع انحاء العالم ناشراً معه اللغة الالمانية والمدنية الالمانية

قال الاستاذ بلسور الفرنسي الذي كان في اليابان قبيل الحرب ما يأتي :

زرت اليابان ثانية بعد زيارتي الاولى بخمس عشرة سنة . فاول مشهد شهدته كاد ينفطر له قلبي اذ وجدت النفوذ الالماني قد حل محل نفوذنا ، وعكسنا الانكليز فانهم لم يفقدوا شيئاً من مكانتهم السابقة .

رأيت في زيارتي الاولى مدارسنا الحربية واساتذتنا وكتبنا وطرقنا ولغتنا محترمة مبجلة لدى اليابانيين . أما اليوم فمدارس الالمان واساتذتهم وكتبهم وطرقهم ولغتهم هي صاحبة المقام الاول ففي جامعة طوكيو مثلا يتعلم الفرنسية مئة تلميذ فقط حالة كون الذين يتعلمون الالمانية يتجاوزون الالف . ومقابل كل تلميذ ياباني يرسل الى فرنسا يذهب خمسة الى المانيا . وقس على ذلك

وقد نسب الكاتب هذا الانقلاب الى مساعي الالمان ونشرهم الجرائد والكتب من جهة ومن الجهة الاخرى الى اضطهاد الحكومة الفرنسية للرهبنات التي كانت تنقل آداب فرنسا وعلومها الى جميع أقطار العالم ثم قال :

ما برحت في أثناء العشرين سنة الماضية — وانا انتقل بين أقطار الشرق والغرب — ازداد اقتناعاً بان حرب سنة ١٨٧٠ لا تزال ناشبة بين فرنسا والمانيا واننا معاشر الفرنسيين ما زلنا منذ ذلك الحين نتقهقر امام عدونا الجسور . ولم يقتصر الالمان في هذه المدة على الاستفادة من أغلاطنا واهمالنا — وهذا حق لهم — بل انهم ما برحوا يشوهون وجه التاريخ لمنفعتهم واضرارنا وينسبون الينا التقهقر والانحطاط وجميع الرذائل . .

غير ان المانيا على الرغم من هذه الانتصارات الصامتة ظنت انها لم تنل بعد « مقامها تحت الشمس » وظلت تقاوم مساعي الدول الاخرى في الخارج وتعرقل حركتها الاستعمارية

ولكن الاختبار قد دل المانيا على أنها لا تصلح الاستعمار . ومستعمراتها الافريقية التي اهرقت الدماء في سبيلها أنهاراً اكبر برهان على صحة ذلك . فقد يستقبل الالماني على الرحب بصفته تاجراً ولكنه متى أصبح صاحب الامر والنهي لا يعود في استطاعة أحد أن يعيش وينمو تحت ظله

# الفصل الرابع

## العقل الالماني الحديث

١ — منشأ المزاج للعقل الالماني

ترجع صورة العقل الالماني الحديث الى اتحاد المانيا تحت سيطرة بروسيا منذ نصف قرن تقريباً . ولا نعني بذلك اتفاق الالمان في الروح والجنس وانما نريد به بعض الصفات العامة التي انتشرت بين الالمان من جراء اتحادهم فصطبغت بها جميع الشعوب التي تكوّن الامبراطورية الالمانية — من سلاف وقلت ومغول وباديين وبروسيين وبافاريين وورتمبرغيين وسكسون — مع احتفاظ كل منها بصفاته وميزاته الخاصة . فهذه الروح المشتركة — وان لم تزل ما بين تلك الشعوب من الفروق الجنسية — قد كانت كافية لتوحيد امانيها ورغائبها ونزعاتها

وقد امتازت الشعوب الالمانية بسهولة اندماجها بالدول التي أخضعتها فيما مضى ، بفضل ما تأصل فيها من احترام القوة . والتاريخ يشهد بذلك ، فقد كانوا ينظرون بعين التبجيل والاجلال الى كل من استولى على بلادهم من الفاتحين ، وفي جملتهم نابليون فانه لما دخل برلين منصوراً تقدم اليه اكبر الامراء متوسلين أن يمنحهم بعض الرتب في جيشه حتى استفزت هذه العبودية احتقاره وغضبه فكتب الى صديق له أثر ذلك : « ان اولئك القوم ذليلون في تعاستهم بقدر ما هم متعجرفون ومتكبرون عند أقل بريق من السعادة »

ولا شك ان ماضي تلك الشعوب هو الذي محى شخصيتها ووطد فيها تبجيل القوة ، فقد كان الالمان تحت نير امراء وسادة مختلفين الا انهم اتفقوا جميعاً في القسوة والصرامة

ولما كان تاريخ المانيا كثير التشعب قليل الاتصال والتوحد فقد سعى مؤرخوها أن يؤلفوا لها تاريخاً أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة ، كما يسعى حديث النعمة في

اختلاق نسب مجيد . ومن أغرب مزاعمهم ان اكتساح الشعوب الجرمانية للاقطار الاوربية قد أحيا العالم ، والحقيقة انه أبد المدنية الرومانيـة ونشر في أوربا الخراب والدمار . بل ان تلك الشعوب الوحشية لم تستطع ان تدرك الرقي الذي خلفته الامم القديمة فظلت اكثر من أربعة قرون وهي كالوباء أصاب البلاد الاوربية « لا تحافظ على عهود ولا ترحم مغلوباً ولا تحترم أحداً سواء في ذلك النساء والاولاد والضعفاء » على ما قال أحد الـكتاب في ذلك الحين

ثم ان اولئك المؤرخين نسبوا الى بني جنسهم في القرون الوسطى ابتكارات فنية وأدبية واختراعات علمية شتى . والحقيقة انهم كانوا اذ ذاك أبعد الشعوب عن الابتكار ، والالماني ميال بطبعه الى التقليد والاقتداء لا الى الابتكار والاختراع

ولا يجوز أن يبرح من ذهننا ما فطر عليه الالماني من سهولة المراس والانقياد حتى نفهم كيف ان بروسيا استطاعت في مدة قصيرة ان تكيف روح الشعوب الالمانية وتخضعها لافكارها ومبادئها

٢ — ميزات المزاج العقلي الالماني

لا يسع مستطلعاً ميزات امة من الامم الا الاقتصار على بعض الصفات العامة المشتركة بين الجميع . ففي الامة الواحدة ميزات خاصة لكل مقاطعة من مقاطعاتها — كالشمالي والجنوبي والجبلي والمدني — ولكل مهنة من المهن ، فضلاً عن الميزات الفردية . على ان هذه الفروق لا تنفي وجود ميزات عامة تنطبق على مجمل الامة

فمن الميزات العامة عند الالمان : اولاً الخضوع والاحترام التام للسلطة الشرعية ، والتضامن ، والشعور المشترك بتفوقهم على الامم الاخرى ( والى هذه الميزة ينسب احتقارهم لآراء الغير وتعاميهم عنها ) ، وجهلهم التام لكل ما يتعلق بالاحوال النفسية للامم الاخرى . وهذا الاعتداد بالرأي يستوي فيه جاهلهم وعالمهم الا ان علماءهم يزيدون عليه ادعاء وميلاً الى التأكيد الاعمى . ولا شك ان المغالاة في التخصص العلمي قد ضيقت عقولهم . أما في المسائل العامة فانهم يقتبسون الاقوال الشائعة في الصحف والآراء المتداولة على الالسن

ويؤثر عن فريدريك الـكبير ملك بروسيا قوله « لقد سئمت الملك على عبيدٍ » مما يشهد بسهولة انقيادهم وخضوعهم . ولا شك ان هذه الصفات مما يرضي الحـكومة

ويسهل عليها حكم شعبها . فقد قالت لهم انها لم تخرب البلجيك الا لمعاقبتها على خروجها عن الحياد التام ، وقالت انها شهرت الحرب على فرنسا لان الطيارات الفرنسية القت القنابل على خط حديدي ألماني فسرعان ما صدقوا القولين !

ومن الميزات الالمانية ايضاً قلة التهذيب ، والخشونة ، وعدم الاخلاق الكريمة — تجدها بين العامة والخاصة

وقد دلت المذكرات والكتب التي وجدها الحلفاء مع الاسرى الالمان على حقيقة عواطفهم وروحهم الهمجية . قال كولونل فرنسي ترجم جزءا منها :

اني أود من صميم فؤادي ان تترجم تلك الاوراق يوماً ما وتنشر بين الامم المتمدينة ففيها تتجلى روح الالمان الحقيقية . وقد وجدت بينها وصفاً لاحراق المدن كانه أمر معتاد ، واطلعت على عبارات الفرح اثر التخريب القبيح ، والفسق الذي لا يرتكبه الا من فقد شعوره . والشره الحيواني الشبيه بتواقع الذئاب الجائعة على غنيمة باردة . وانتهاك حرمة النساء والاولاد والشيوخ الى آخر ما وجدته من الخسائس والرذائل

وقد نشرت جريدة الطان كتيباً عنوانه « خواطر ليوتنان الماني » فيه من الاقوال والآراء ما تشمئز منه النفوس الدنيئة . فقد حث المؤلف قومه على القتل والنهب والاحراق وانتهاك حرمة النساء حتى ينموا ويثروا ، وتمنى ان تدوم الحرب على « جبال من الاشلاء وبحار من الدموع » واليك فقرة من كتابه هذا :

هل يجدر بالمدنية ان تشيد هياكلها على اكمات الاشلاء وبحار الدموع ؟ نعم هذا هو الواجب عليها . كذلك يجب ان تعتد فتوحات الشعب المختار للسيطرة على العالم مقدسة عند المغلوب بل عليه ان يعتدها واجباً أدبياً سامياً . وويل للمغلوب !

وقد عرفت شخصية هذا الكاتب بعد اسره في ايبرس فقد كان استاذاً للتاريخ في بعض المدارس الالمانية وكان مشمولاً برعاية الفيلد مارشال هسلر الالماني وقد اقر بان مبادئه انما هي مبادئ حاميه . ولا شك انها ايضاً مبادىء نفر كبير من رجال الجندية ورجال العلم

وقد لاحظ معظم المحايدين الذين زاروا المانيا بعد الحرب خشونة الاخلاق الالمانية . قال احدهم وهو اسباني الاصل :

لقد وجدت أحد الآراء وأشدها تطرفاً بين رجال العلم والادب . فرجال المال والسياسة اكثر اعتدالاً من أساتذة الجامعات الذين لم يستطيعوا أن يدركوا حقيقة الحال

والخلاصة ان تلطف الاخلاق ورقتها امور مستهجنة عند الالمان ، وعكسهم الشعوب اللاتينية . فاللطف والرقة في نظر الالماني مرادفان للعجز والضعف . وأصل هذا الشعور اعتقاد الالمان بانهم الشعب المختار للسيادة على العالم وانه لا ينبغي لهم ان يمارسوا الشفقة والرحمة تجاه الشعوب الاخرى

ويرافق الخشونة الالمانية في الغالب نقص في التربية والادب يدركه الغريب لاول وهلة . وقد علم الجميع كيف اساء امبراطور المانيا معاملة سفير فرنسا عند اعلان الحرب اذ تركه ٢٦ ساعة في القطار الحديدي بلا اكل يحرسه بعض الجنود حتى اضطر الى دفع ٥٠٠٠ فرنك ذهباً ليكمل سفره — مما لم يسمع في معاملة السفراء. بل انه في الوقت نفسه كان سفير المانيا لدى فرنسا على قطار خاص يتجه به نحو الحدود الالمانية

وقد اعترف قوم من الالمان الذين اعتركهم الدهر وجابوا البلاد الاجنبية بتفوق الفرنسيين والانكليز في ميدان الآداب . لانهم على ما قاله احد اساتذتهم « ابناء مدنية أقدم من المدنية الالمانية »

ومن خواص الالماني انه سهل الاستهواء ، فللخطب والمقالات تأثير كبير على عقله تراه يصدق بسهولة أغرب القصص وأبعدها عن العقل . وبفضل هذا الاستهواء تماثل افكار الالمان تماثلاً غريباً . اما الانكليز فهم على عكس ذلك يميلون الى التفكير باسلوب جديد والسير على نهج مبتكر . وزد على ما تقدم ما اشتهر به الالماني منذ القدم بالمكر وعدم الاخلاص

لم أدرس فيما تقدم الا قسماً من المزايا العقلية الالمانية . اما الميزات التي بها حازوا نجاحهم فلم اذكرها لانها ستأتي في فصل قادم

٣ — تأثير النظام العسكري البروسي في المزاج العقلي الالماني

قال الفيلسوف لبنتز « ان في استطاعة التربية والتعليم ان تغيرا روح الامة في أقل من نصف قرن » فهذا القول نصف الحقيقة ، ولو أضاف الى تأثير التربية تأثير النظام العسكري لكان قد أصاب كل الحقيقة اذ لا ريب ان الروح الالمانية قد تكونت بفعل النظام العسكري ، والالمان انفسهم يعترفون بذلك . فان جميع الرجال الاصحاء يقضون سنتين على الاقل في الثكنة تحت نظام استبدادي يعاقبهم

بصرامة على ادنى هفوة ، فمن الطبيعي اذاً ان يكتسبوا المواظبة والدقة والانقياد

واساس النظام العسكري هو الخوف وقد بيَّن فريدريك الثاني خطورة هذا العامل بجلاء اذ قال :

أترى هؤلاء الرجال ؟ لو فحصتهم واحداً واحداً لوجدتهم يكرهونني. ولكنهم متى اجتمعوا في صفوفهم وعلموا أن الضابط وراءهم بعصاه فهم يضطربون خوفاً مني ولا يترددون في تخليصي من كل اعتداء أو خطر . وأغرب من ذلك انه يكفي أن آمرهم حتى يرموا بأنفسهم الى النار ويضحوا بحياتهم من أجلي دون أدنى تفكير . لانهم يجهلون كل شيء حتى الغرض الذي من أجله يحاربون. غير انهم يصدقوننا فوراً — أنا وقوادي — حين نقول لهم انه يجب عليهم أن يموتوا. واذا سألتني كيف حصلت على هذه النتيجة الغريبة أجبتك « بالعصا في المقام الاول »

ولا يخفى ان استخدام العصا والسوط في الجيش البروسي عادة قديمة جداً . وقد ذكر أحد مندوبي فرنسا لحضور مؤتمر راستاد ( سنة ١٧٩٧ ) في مفكراته انه كان يفيق كل صباح على صراخ الجنود يضربهم الضباط بالاسواط

وبالرغم من الحاح الجرائد الالمانية لم ينقص شيء من قسوة هذا النظام بل عمَّ جميع الشعوب الالمانية بعد انضمامها الى بروسيا . فللسوط يرجع الفضل في كون الشعب الالماني اليوم حسن النظام وسهل الانقياد وشديد الاحترام لرؤسائه ، فان صورة السوط لا تفارق مخيلة الالماني أبداً وهي التي تدفعه الى القيام بواجبه

ولا غرابة أن ينتج عن هذا النظام عقائد الالمان بشأن القوة والحق ، فان الرجل الذي يظل تحت رحمة رؤسائه وصورة السوط لا تزايل فكره لا يلبث أن ينسب هذا الحق الى القوة ، فلا يرى فرقاً بين الحق والقوة

ومع اننا نعترف بفائدة هذا النظام للشعوب التي تعودت الذل والعبودية فالذي لا ريب فيه هو انه ليس في استطاعة أمة على الارض أن تتحمله — اللهم الا قبائل الزنوج في أواسط أفريقيا

وبالنظر الى سلطة الضابط في الثكنة تجد له مقاماً رفيعاً بين قومه . ولما كان لا يعرف الا القانون العسكري فان روحه هذه تتجلى في جميع معاملاته . وأي برهان أقوى من حادثة زابرن ( في الالزاس ) التي حدثت قبل الحرب بقليل فضجت لها جرائد العالم . وخلاصتها ان كولونلاً أمر بسجن ثلاثين مدنياً بينهم قاض في أحد الاقبية مدة ٢٤ ساعة لانه اشتم من سلوكهم عدم الاحترام لشخصه . فلما طلب المحاكمة امام

مجلس عسكري برئت ساحته باجماع الآراء . والاغرب ان ولي العهد ( الـكونبرنز ) قدم له تهانئه الشخصية . ولو حدث مثل ذلك في انكلترا لعوقب الـكولونل بالموت أو النفي المؤبد على الاقل

ولما كان الضابط الالماني على الاجمال يجهل كل ما خرج عن وظيفته تراه لا يلتهي الا بالملاعب والسكر

٤ — اثر التربية في المزاج العقلي الالماني

بجانب أثر الثكنة العسكرية بل تحته بمراحل يجب ان نضع تأثير المدرسة ، وهي عندهم كثيرة الشبه بالثكنة . ومن ميزات نظام التعليم الالماني انه شديد الملاءمة لحاجات هذا العصر الصناعي ، فالتعليم الفني فيه مقام رفيع وهو ذو فروع شتى — حتى ان الطبخ له مدارس خاصة

والقاعدة الشاملة كل التعليم الفني والعالي انما هي تقسيم العمل تقسيماً متناهياً . ففي المباحث التاريخية واللغوية والعلمية وغيرها تجد العالم الالماني يتمسك ببحث ضيق يقضي حياته في استجلائه ، تاركاً المباحث العامة والقواعد الشاملة جانباً . وهـذا النظام شديد الملاءمة لشعب بعيد عن الابتكار كالشعب الالماني ، فبهِ تستخرج الفوائد الثمينة من العقول المتوسطة . ولا شك ان تخصيص البحث في المسائل الفنية جم النتائج . ومن أمثلة ذلك دواء ارليخ المعروف باسم ٦٠٦ فان مستكشفه ركب بمساعدة معاونيه مئات من التراكيب حتى وصل الى ضالته المنشودة

ان هذا التخصيص اذا كان منظماً على قواعد تشمل جميع الفنون والفروع يأتي بأعظم النتائج — الاّ ان الاستاذ اسوالد الالماني واهم في زعمه ان الالمان وحدهم يستطيعون السير على هذا الطريق ! فان اميركا وانكلترا قد وصلتا الى نتائج لا تقل قيمة عما استنبطه الالمان — ولـكن عن غير الطريق التي اتخذها هؤلاء . فبينا الالمان لا يعرفون منظماً غير الحـكومة نجد الانكليز والاميركان قلما يعتمدون عليها

فنرى مما تقدم ان الفرق الجوهري بين الالمان ومعظم الشعوب المتمدينة يرجع الى هذه المسئلة : هل للدولة حق المداخلة في ظواهر الحياة الاجتماعية كافة لتدبيرها وتنظيمها أم عليها ان تترك الحرية لرعاياها قاصرة قوانينها على ما لا غنى عنه لحفظ الامن والراحة ؟ وقد رأينا ان المزاج الالماني لا يوافقه غير التنظيم المتناهي على يد الحـكومة

٥ — أثر الدين في المزاج العقلي الالماني

ان أثر الدين في تكوين المزاج العقلي الالماني طفيف جداً بجانب أثر النظام العسكري وانما ذكرناه هنا دعماً لرأي بيناه في عدة كتب لنا وهو ان وحدة العقيدة الدينية وهمٌ ، أو بعبارة أخرى ان الدين الواحد يتخذ صوراً مختلفة وفقاً لامزجة الامم التي تدين به

وانه لمن المفيد ان ندرس كيف يختلف تأثير الدين الواحد والكتاب الديني الواحد باختلاف الاجناس . ففي انكلترا مثلا كان للمذهب البروتستنتي أثر عظيم في نشوئها ونموها في حين ان هذا المذهب لم يترك أثراً يذكر في البلاد الالمانية

ويرجع أثره في انكلترا الى مقام الكتاب المقدس وضرورة قراءته ، اذ ان المذهب البروتستنتي انما يعتمد على تعاليمه وحدها . وقد كانت هذه الطريقة المبنية على حرية الشرح شديدة الموافقة للطبع البريطاني الميال الى الحرية والاستقلال . فلا عجب ان ينشأ من ذلك دين انكليزي يعبر عن اميال الشعب الانكليزي ونزعاته . فكأن اله الكتاب المقدس قد اصطبغ بانتقاله الى بلادهم بصبغة وطنيـــة — ولو تنصر الصينيون لاصطبغ الاله بصبغة صينية

أما في المانيا فان اله المسيحيين الذي يمثل المحبة والرقة ويحب المتواضعين قد تحول الى صورة وحشية فتراه يحتقر الضعفاء ولا يحمي الآ الاقوياء ! ولا يستغرب هـــذا الانقلاب من علم ان الدين والآلهة لا تغير روح الامم بل بالعكس انها هي تتغير وتتكيف وفقاً لتلك الروح

ان هذا الرأي الذي شرحته بتوسع في غير هذا الكتاب يوافق تمام الموافقة نشوء الديانة المسيحية في المانيا الحديثة . فقد جمع الالمان بين تعاليم الانجيل المبنية على الاحسان والمحبة والرأفة ( التي سماها نيتشي دين الارقاء ) من جهة ونزعاتهم الوحشية التي لا تعرف حقاً غير القوة ولا سلطة الآ السيف من الجهة الاخرى ! . ولما كان المنطق الروحاني لا يعبأ بالمتناقضات العقلية فقد وفقت المانيا بين الدين المسيحي والروح الالمانية على رغم ما بينهما من التناقض الشديد

٦ — وحدة الروح الالمانية الحديثة

التأثيرات التي تقدم وصفها قد تأصلت في نفس جميع الشعوب الالمانية تحت

سيطرة بروسيا الحديدية . وقد فقد الالماني من جرائها روحه الفردية ليندمج في روح الجماعة الشاملة . ولا يعرف التاريخ امة بلغت من الوحدة النفسية ما بلغته المانيا . وليس ادل على ذلك من مشاهدة الاسرى الالمان . فقد دهش جميع الذين شاهدوهم من وحدة افكارهم على الرغم من انتسابهم الى طبقات مختلفة . واليك ملاحظات محرر سويسري بهذا الشأن ، وهي مثال لغيرها :

ما كنت اظن قط انه يمكن توحيد الجماعات الى هذه الدرجة . ولقد وقفت امام اولئك الاسرى وانا أسائل نفسي هل هذا التوحيد مستحسن أو مستهجن ؟ فانه خيل الي ان هناك عقلاً واحداً يفكر في الوف من الرؤوس . فهل هذا ناتج عن العدوى أم هو نتيجة التربية العسكرية الصارمة ؟ لا أدري . ولكن الذي تأكدته هو انه بالرغم مما بين الالمان من الاختلاف في الشعور والادراك والتعبير فقد فقدوا جميعاً ذاتيتهم حتى كأنه لم يعد في المانيا أفراد مستقلون وانما فيها شعب واحد أو جسم اجتماعي واحد ذو رأس وعقل واحد هو الحكومة . فلا يقوم لشيء قائمة عند الالمان بغير الاتحاد كأن الالماني قد أصبح عاجزاً عن العمل الا متحداً — حتى في المباحث العلمية الراقية فانك كثيراً ما تجد على كتيب صغير اسماء عشرة مؤلفين معاً

ولا يجب ان يبرح ذلك من ذهننا حتى ندرك قيمة بعض المنشورات التي نشرها الالمان ولا سيما البيان الشهير الذي امضاه ٩٣ عالماً من علمائهم ، فان فيه تتجلى الروح الالمانية الحقيقية بل ان هذا البيان أفضل برهان على بعد روح الجماعات عن احكام العقل الصحيح . وهو يثبت ان ارقى العقول تفقد ذاتيتها وقوة تمييزها عند الاختلاط . وقد كان الغرض من ذلك البيان تبرئة الالمان من تهمات القتل والنهب والاحراق والهتك التي كانت موجهة اليهم . واليك فقرات منه :

لا صحة لما نسب الينا من انتهاك حرمة البلجيك فقد ثبت ان فرنسا وانكلترا كانتا موطدتي العزم على انتهاكها وثبت أيضاً ان البلجيك كانت متفقة واياهما على هذا . ولولا اننا سبقناهم لكنا في حكم المنتحرين

لا صحة لما نسب الى جنودنا من التعدي على أملاك بلجيكي واحد الا متى حكمت عليهم الضرورة القاهرة بذلك

لا صحة لما قيل عن جنودنا من انها اضطهدت اهل لوفن فان التعدي كان في الاول من الاهلين الذين هجموا على الجنود الالمانية في معسكراتها

ولسنا اليوم في حاجة الى المجادلة بشأن هذه التهم فقد اثبتت المستندات الرسمية صحتها والارجح ان اولئك العلماء الذين أمضوا البيان السالف قد ندموا على ما فعلوا . واليك اعتراف صريح للكاتب الالماني المشهور مكسيمليان هاردن :

لنضع جانباً مساعينا لتبرئة المانيا مما أقدمت عليه ولنكف عن سب العدو باحتقار ، فاننا لم ندخل مرغمين في هذه الحرب ولم يضطرنا اليها أحد . وانما أردناها ولم يكن في وسعنا الا ان نريدها . لسنا اليوم امام محكمة أوربية فنحن لا نعترف بسلطة قضائية اجنبية نخضع لها . ولكن قوتنا سوف تخلق قانوناً جديداً لاوربا . . . . ان المانيا اختارت هذه الحرب لانها تطلب مقاما رفيعاً في العالم وتحتاج الى منافذ تصرف فيها مصنوعاتها

٧ — لماذا اتفق المزاج العقلي الالماني مع التقدم الصناعي الحديث

لم يكن تقدم شعب من الشعوب الغابرة متواصلا بلا انقطاع ، فلا بد للدولة بعد التقدم والارتقاء من التقهقر والاضمحلال . بل ان بعض المدنيات بادت كلها حتى ان علماء الآثار جهلوا عواصمها الى زمن قريب . فبالامس فقط استكشفوا آثار طروادة وبابل ونينوى

ان الاسباب التي ترفع الامم وتحطها عديدة نذكر في مقدمتها سنة « التكيف وفقاً للبيئة » التي تصح على المجتمع البشري كما تصح على العالم الحيواني والنباتي . وهذه السنة تقضي على كل مخلوق حي ان يتطور مع تطور وسطه . فالذي يلتحم بوسطه يحيا وينمو واما الذي لا يلتحم به فينقرض

وكما ان تغير الطقس والظواهر الجوية يتبعه تغير النباتات والحيوانات فكل تغير اقتصادي أو سياسي أو ديني يستلزم كذلك تغيرا في مزاج الامة العقلي يختلف باختلاف تلك التغيرات ووجهتها

فالتقدم الصناعي الحديث يتطلب صفات لم تكن ذات مقام كبير فيما مضى . ومن حسن حظ الالمان انهم حاصلون عليها . فالصناعة الحديثة تستدعي تقسيما متناهياً في الوظائف بحيث يتقن الواحد جزءا صغيرًا جدًّا من مجموع العمل . ولا بد لذلك من الصبر والاناة والمواظبة والانتظام مما يتعذر على الامم الحادة الطباع وصاحبة الخيالات البعيدة ان تتطبع به . أما الالمان فانهم بفضل طبعهم الفطري ونظامهم العسكري يمارسون هذه الصفات بسهولة

على ان تلك الصفات لم يكن لها منذ قرن هذه الخطورة لان الصناعة والعلم كانا لا يزالان في مهدهما ، وانما احتاج العالم فيما مضى رجالا يتطلعون الى الابتكار والاستكشاف أمثال غاليليو وديكارت ونيوتن لوضع أساس العلوم والفنون الحديثة . أما اليوم فقد حل محلهم ملايين المشتغلين قسموا العالم الى ملايين من الاقسام الصغيرة

وقد تخصص كل فريق منهم لقسم خاص لا يتعداه . وقد بلغ هذا التقسيم أقصى درجاته في المانيا

ولكن ينقص اولئك الاختصاصيين — وان أفادوا الصناعة — ادراك القواعد الشاملة واستخراج النتائج العامة فلا يستطيع أن يخرج من بينهم رجالٌ أمثال دارون وباستور وكلود برنار وتين وغيرهم ، ولا تنبت في معاملهم الاختراعات الحديثة كالتلفون والاوتوموبيل والطيران والتلغراف اللاسلكي وغيرها . الا ان العتوّ الالماني مع ذلك قد بلغ مبلغاً عظيماً جدًّا حتى ادعى بعض مؤرخي الالمان ان دانتي ورمبراندت و بسكال وراسين وشكسبير وغيرهم من اصل الماني

غير ان المعامل العلمية الالمانية وان لم تولد افكارًا جديدة فانها بارعة في اقتباس افكار الغير والعمل بها . فهنا سر قوتهم . وهذا الحكم يصح على الفلسفة كما يصح على المسائل العلمية فانك لا تجد فيلسوفاً المانياً كبيرًا ظهر بعد الاتحاد الالماني ولا تستطيع ان تذكر واحدًا كان له تأثير يذكر — الاّ نيتشي . ولكنه انما توسع في تأليه القوة وهو مذهب قديم في تلك البلاد

ولا غرابة في كون المانيا قد جعلت بالمقام الاول الصفات التي ادت بها الى العظمة بل هذا أمر طبيعي . ولكنني أشك في ان المستقبل سيقرر تلك الصفات في هذا المقام . ولا شك ان هنالك رغائب واماني اسمى من صنع الادوات والآلات والمأكولات والمشروبات بكثرة هائلة تحت حماية المدافع !

لا ندري ما تخبئه الاقدار للشعوب في المستقبل وانما نستطيع القول بانه اذا فازت الروح العسكرية البروسية فيكون ذلك في قوة قتل للروح الفردية وابادة للخاصة صحاب الابتكار والاختراع

# الباب الثالث

## اسباب الحرب البعيدة

---

# الفصل الاول

## الاسباب الاقتصادية والسياسية

---

### ١ — الاسباب الحقيقية والاسباب الوهمية

تنشأ الحوادث العظمى كالحروب مثلاً عن أسباب بعيدة واسباب مباشرة. وسندرس الاولى منها في هذا الباب من الكتاب وندرس الثانية في الباب التالي

الاسباب البعيدة نوعان فمنها ما هو حقيقي ومنها ما هو وهمي — وليست الاسباب الوهمية ( أي المبنية على الاوهام ) بأقل تأثيراً من الاسباب الحقيقية ، بل قد يكون للاوهام سلطة على النفوس تدفعها الى أعظم الاعمال وأخطرها . وقد ذكرت غير مرة في كتبي السابقة ان وظيفة الفيلسوف لا تقضي عليه بان يقيس العوامل التي تدفع الناس بالنسبة الى أحكام العقل على اعتقاد انهـا القياس الامثل ، وانما الواجب عليـه درس تلك العوامل ناظرا الى خطورتها فقط والى تأثيرها في مجرى التاريخ . ولا شك اننا لو محينا من التاريخ المعارك التي نشبت بسبب الاوهام لما بقي منها شيء يذكر

يجد المتبصر في منشأ هذه الحرب ان الاسباب التي هيأتها تبلغ من العمر نصف قرن تقريباً في حين ان الاسباب التي باشرتها حدثت في اسبوع واحد فقط . فعلينا ان ننظر في سؤالين : أولهما ما هي الاسباب البعيدة التي اعدت اوربا للحرب في الخمسين سنة الماضيـة ؟ والسؤال الثاني ما هو مصدر الحرب الحقيقي في أسبوع

المفاوضات السياسية التي تقدمت اعلان الحرب ؟

ليس الجواب عن هذين السؤالين بالسهل الميسور اليوم اذ ان لكل من الفريقين مزاعم تناقض مزاعم الآخر . فالالمان جميعاً مقتنعون بان الانكليز والفرنسيين تمنوا هذه الحرب منذ مدة بعيدة . ومن الجهة الأخرى ترى فرنسا مقتنعة بان المانيا تمسكت بعذر تافه لشهر حرب تشتهيها . وسنترك استجلاء هذه المسئلة الى ما بعد لندرس الآن اسباب الحرب البعيدة

٢ — زعم ازدياد سكان المانيا

ان الاعتقاد بازدياد سكان المانيا منتشر انتشاراً عظيماً سواء في فرنسا والمانيا — على الرغم من مخالفته للواقع . وهذا الاعتقاد ناتج عن ميل كتاب الالمان الى تطبيق السنن الطبيعية على المجتمع البشري ، وفي مقدمتهم برناردي الذي يكثر من ذكر مذهب داروين ومذهب ملتس — على ان الفرق بين عوالم الحيوان وعالم الانسان هو ان الاولى تخضع خضوعاً تاماً لسنن الطبيعة في حين ان الانسان قادر على مكافحة تلك السنن الى حد ما

واليك خلاصة مذهب ملتس : تنزع جميع المخلوقات الحية ومن ضمنها الانسان الى اكثار النسل . ولما كانت موارد الرزق محدودة فلا بد من حفظ التوازن بين الجهتين وذلك يتم بالحروب والاوبئة التي تبيد ما يزيد من الناس . نعم ان تقدم الصناعة والزراعة يجعل المساحة المعينة من الارض تعول عدداً متزايداً من الناس . ولكن هناك حداً لهذه الزيادة ولا بد ان يأتي وقت يختل فيه التوازن بين موارد العيش وطلابه . فيضطر الشعب اذاً بطبيعة الحال القاهرة الى احد امرين : أما ان يحارب جيرانه للاستيلاء على ما عندهم من أسباب الرزق او ان يهاجر الى بلاد سكانها قليلون . والتاريخ يدلنا ان هذه الحال تكررت غير مرة في تاريخ الشعوب الجرمانية قديماً وتاريخ اليابان حديثاً

غير اننا سنبين ان المانيا الحديثة لم تكن في مثل هذه الحال ، وان يكن كتابها الحربيون وغيرهم قد زعموا ان تكاثر الاهلين في المانيا يضطرها الى الحرب . واليك بعض ما قاله الجنرال برناردي ، وما قوله الا مثالا من أقوال غيره . قال :

اذا نظرنا الى حالة العالم في الوقت الحاضر تيقنا ان الحرب ضرورية لان عليها يقف نمو امتنا في المستقبل . فان المانيا تقوت اليوم ٦٧ مليوناً في حين ان فرنسا لا تقوت الا أربعين مليونا ومساحة الدولتين متساوية تقريباً . ويزداد الشعب الالماني مليوناً في كل سنة على وجه التقريب . وانه لمن المستحيل ان تتمكن الصناعة والزراعة في المستقبل من اعالة شعب يتناسل بهذه السرعة . فلا بد لنا اذاً من توسيع مستعمراتنا ولكن ذلك لا يتم الا بانتزاع بعض المستعمرات من الدول الاخرى أو بالاشتراك مع تلك الدول . ولهذه الغاية يجب أن نوطد موقفنا في أوربا المتوسطة . وقد أصبحنا اليوم عند كل حركة نبديها في السياسة الخارجية مهددين بحرب أوربية . على ان مثل هذا الضيق لا يحتمل طويلا

لو صح هذا الزعم لرأينا المهاجرة الالمانية تزد د تدريجاً والواقع انها نقصت نقصاً عظيماً في المدة الاخيرة حتى اصبحت أقل من المهاجرة الانكليزية . بل ان الحالة بعكس ذلك فقد أصبحت المانيا في حاجة الى العمال وهي تستجلب سنوياً لهذه الغاية مئات الالوف من العمال الاجانب لمعاونتها في اعمال الحصد واستثمار المناجم

نعم ان سكان المانيا يزدادون سنوياً نحو ٨٠٠٠٠٠ نفس وهم الآن يتجاوزون السبعين مليوناً ولكن البلاد لم تضق بهم بعد . بل ان كثافة الشعب الالماني (أي نسبة الاهلين الى المساحة ) أقل من كثافة كثير من الشعوب الاخرى . واليك جدولاً يبين عدد السكان في الكيلو متر المربع

| | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| فرنسا | ٧٤ | المانيا ( وايطاليا ) | ١٢٠ | اليابان | ١٣٩ |
| انكلترا | ١٤٤ | هولندا | ١٨٢ | البلجيك | ٢٥٤ |

ولكن لنفرض صحة زعم اولئك الكتاب الالمان : فمع هذا الفرض ليس لالمانيا مصلحة في الحرب الا اذا كانت الدول الأخرى تمنع دخول الالمان اليها . والواقع على ما يعلم الجميع خلاف ذلك فان الالمان انتشروا بين جميع الامم بل واستولوا على متاجرها ومرافقها الاقتصادية

على اني اخالف الرأي الشائع في فرنسا وهو الذي يجعل قوة الدولة موقوفة على عدد سكانها . ولو كان صحيحاً لرأينا الصين في مقدمة الدول قوة وبطشاً . والحقيقة ان عوامل القوة هي وسائل النقل والذخائر والذهب

زد على ذلك انه من الوهم ان نعتقد بفائدة الخطب والمقالات في ازدياد السكان . وانما الميسور ان نحسن نوع الموجودين منهم ونزيد جودتهم . وانه لافضل ان ينتسب الانسان الى نخبة قليلة راقية كاليونانيين القدماء الذين لا تزال آثار مدنيتهم حية الى

هذا اليوم ولا ينتسب الى قطيع هائل من البشر لا يشفع به الا عدده . ولا تعدم الامم الراقية — وان قل عددها — وسيلة في دفع هجمات المعتدين عليها من الشعوب الكثيرة العدد اما بالاختراع أو بالاتحاد على العدو المشترك أو بغير ذلك

٣٨ — الحاجة الى الاتساع والى المنافذ التجارية

ان طلب الاتساع شعور طبيعي للامم التي تزداد قوتها العسكرية . فان مجرد شعور قوم بقوة بطشهم يحبب اليهم الامارة والسلطان . ولما كان الانسان لا يعترف بما يوحيه اليه كبرياؤه وطمعه فتجده يخلق أسباباً محسوسة ليبرر اعماله

أما الاسباب المحسوسة التي تذرع بها الالمان فهي حاجتهم الى منافذ تجارية يصرفون فيها سلعهم . ولا شك ان هذا الزعم لم يكن الا وهماً . فقد كانت تلك المنافذ مفتوحة للالمان في جميع الاقطار حتى اوشكوا ان يسيطروا على اسواق العالم

غير ان هذا الوهم شائع بين الالمان والفرنسيين على السواء حتى لم يبرأ منه المسيو هانوتو المؤرخ الكبير فقد قال :

لا يجهل أحد سعي امبراطور المانيا لفتح منافذ تجارية في جميع اقطار العالم يتنفس منها شعبه خوفاً من الاختناق الاقتصادي . فقد كانت تلك الرغبة الباعث الاول على هذه الحرب . ولقد سميت هذه السياسة « سياسة المعدة » لان الشعب الالماني أشبه شيء بمعدة ذات جائعة

وقال أيضاً في هذا المعنى الاستاذ ليفي بروهل الفرنسي في كتاب عن اسباب الحرب الاقتصادية :

لو كان لالمانيا مستعمرات واسعة غنية لوجدت فيها منافذ ثابتة مأمونة لتجارتها كما تفعل انكلترا وفرنسا . والارجح عندي ان هذا النقص هو السبب الخفي الذي دفع المانيا الى التسليح المستمر اذ ما فائدة تفوقها الحربي ان لم يضمن لها تجارتها

ان الآراء المستخلصة من الفقرتين المتقدمتين — وكثيرون هم الكتاب الذين يرددونها — لمن أجسم الاغلاط المنتشرة بين الناس . ومن الغريب ان نجد من يقولها في هذا العصر فانه يكفي ان نلقي نظرة سطحية على احصاءات التجارة الدولية لنتأكد ان معظم تجارة انكلترا وفرنسا ليست في مستعمراتها بل في الدول الاخرى . وعلى فرض ان المانيا استولت على مستعمرات هاتين الدولتين فمن المستحيل ان تكون تجارتها فيها اعظم من تجارتها في فرنسا وانكلترا وروسيا نفسها قبيل الحرب

وقد بينت في فصل من كتابي « روح السياسة » عنوانه « طرق الاستعمار الجديدة » كيف اصبح الالمان أصحاب مصالح عظيمة في مستعمرات الدول الاخرى من غير ان يكلفوا أنفسهم مشقة المحافظة على الامن فيها وتدبير شؤونهـا الادارية والسياسية

ثم لو فرضنا ان المانيا استولت على فرنسا وانكلترا فهل تزيد تجارتها فيهما؟ لا ريب في ان الجواب بالسلب لان هاتين الدولتين تصبحا أثر الحرب في فقر مدقع

فنستخلص مما تقدم ان طلب المنافذ التجارية يجب ان يعد بين اسباب الحرب الوهمية — ولكن ذلك لا يقلل من خطورته في اثارة الحرب

٤ — المنافسة الاستعمارية

كانت رغبة المانيا في الاستيلاء على موانيء اجنبية تجعلها محطات لسفن اسطولها سبباً حقيقياً من أسباب الحرب تزيد خطورته على خطورة السبب المتقدم

ولقد علمت الدول — أثر حوادث مراكش — شيئاً من مطامع المانيا في هذا الباب . الا ان تلك الحوادث اعلمت المانيا من الجهة الاخرى ان الدول الاوربية لا تجعل الاستيلاء على شيء من مستعمراتها ومناطق نفوذها هيناً سائغاً . ولا يخفى ان معظم المواقف والمحطات البحرية والحربية في العالم هي في ايدي الدول الاوربية القديمة العهد في الاستعمار . وقد رأت المانيا انها لا تستطيع الحصول على شيء منها الا بالحرب ولا سيما بعد ما رأته من رباطة جأش فرنسا في مسئلة اغادير ومؤازرة انكلترا لها

وقد دلت الحوادث على خطأ ارتكبه بسمارك — وقلما اخطأ ذلك الداهية — في شأن السياسة الاستعمارية . فقد كانت سياسته ترمي الى حث فرنسا على الاستعمار أولاً لصرف نظرها عن الثأر من المانيا وثانياً لكي تتنافر مصالحها ومصالح انكلترا . ولم يخطر بباله خطورة الاستعمار لالمانيا

غير ان رغبة بسمارك لم تتحقق . فلم ينشأ بين انكلترا وفرنسا تنافر استعماري وانما حدث تنافر بين مصالح المانيا وفرنسا . ولم يفكر ذلك السياسي المحنك وقتئذ — اذ لم يكن لالمانيا الا اسطول صغير — ان توسع فرنسا يضر بمصالح المانيا مباشرة

على اني لم اعتقد يوماً بان المانيا تُقدم على الحرب لاجل المسألة المراكشية أو

نحوها فان مطامعها أرفع وأبعد . ومن رأيي ان الاستيلاء على ميناء انفرس في مقدمة الاغراض التي ترمي اليها المانيا . ولكي يقتنع القارىء بصحة هذا الرأي يكفي ان يقرأ الفقرة التالية من كتاب أرسله المسيو دارنبرج وزير المستعمرات الالمانية السابق الى مجلة المانية تنشر في اميركا قال :

ان اعظم منفذ للتجارة الالمانية في يد البلجيك . فهي المتسع الطبيعي للامبراطورية الالمانية . بل هي المنفذ البحري الوحيد للتجارة الالمانية . وقد اوجدتها انكلترا وحمتها منعاً لالمانيا من الاستفادة بمركزها الطبيعي . الا انه لن يسعنا الاستغناء عن تلك البلاد

والذي أراه ان الالمان يفضلون بلا ريب ان يتنزلوا عن مقاطعة الالزاس على التنزل عن ميناء انفرس

٥ — الاغلاط السياسية

ان سرد الحوادث السياسية التي كان لها أثر بعيد في منشأ هذه الحرب يستدعي وحده مجلداً ضخماً . لذلك نقتصر على نظرة اجمالية

ولا بد لنا من الرجوع الى استيلاء بروسيا على مقاطعتي شلسويج وهولستين الدانماركيتي الاصل ( سنة ١٨٦٤ ) فقد كانت الغلطة الاولى ان فرنسا لم تعترض اعتراضاً ما على هذا الاستيلاء . وكانت الغلطة الثانية انها لم تمنع بروسيا من كسر النمسا في معركة سادوفا ( سنة ١٨٦٦ )

وفي سنة ١٨٧٠ كانت الاغلاط في جانب انكلترا وروسيا اللتين لم تمنعا المانيا من كسر فرنسا . وقد بينت في كتاب نشر قبل الحرب بسنوات نتيجة خطأ انكلترا وقصر نظرها اذ ذاك قلت :

اذا كانت انكلترا تتخبط اليوم بين مشاكلها الداخلية والخارجية وتفرض الضرائب لتزيد اسطولها خوفاً من تفوق المانيا فما ذلك الا لان ساستها في سنة ١٨٧٠ لم ينظروا الى بعيد . فانهم اطاعوا ما اوحته اليهم ضغائنهم القديمة نحونا ورفضوا جمع مؤتمر يقف المانيا عند حدها وقد كان بسمارك شديد الخوف من هذا المؤتمر كما يستدل من مذكراته

اما ساسة روسيا وقتئذ فان خطأهم لا يقل عن خطأ ساسة انكلترا فانهم في سنة ١٨٧٠ مهدوا السبيل الى نصر المانيا بالتضييق على النمسا ومنعها من معاونة فرنسا

زد على ذلك اغلاط مؤتمر برلين الذي كان السبب في توليد مشاكل عديدة ولا سيما المشاكل البلقانية التي شغلت اوربا زمناً طويلا والتي آلت نهائياً الى هذه الحرب

# الفصل الثاني

## الضغائن الجنسية

### ١ — الضغائن الجنسية الناشئة عن اختلاف الامزجة العقلية

اذا أنعمت النظر في البواعث الخفية التي أدت الى هـذه الحرب وجدت بينها الضغائن الجنسية المتأصلة في الشعوب البلقانية . وليست هذه أول حرب سببتها تلك الضغائن . وقبل درس نتائجها يجدر بنا ان نبحث عن منشأها فنقول :

قد تزداد هذه الضغائن شدة بتنافر المصالح الاقتصادية ولـكن بواعثها الاولى أعمق وأبعد ، فهي ترجع الى اختلاف الامزجة العقليـة وما يتبع ذلك من اختلاف التأثر بالظواهر المتماثلة واختلاف النظر الى الامور الجارية . فمن هذا الاختلاف ينشأ تباين العواطف والاعمال وصعوبة التوافق والتفاهم

قد يسهل الاتفاق على المسائل العلمية والفنية التي ترجع الى أحكام العقل وحده . ولـكن الناس كما رأينا لا يخضعون الى أحكامه في المسائل السياسية والدينية والاجتماعية وانما يطيعون الدوافع العاطفية والروحانية والجماعيـة التي تدفعهم مهما تكن درجة رقيهم العقلي — فلا عجب اذا لم تتفق الشعوب في آرائها وعقائدها

ثم ان أهل الاجناس المتباينـة لا يختلفون في الرأي فقط بل يصعب عليهم جداً أن يتصوروا وجود آراء غير آرائهم . ولا ينبغي ان ندهش من ذلك فانه لا يتيسر للانسان أن يفهم عقل أحد غيره فهماً تاماً — اللهم الآ اذا تمثل اليه مزاجه العقلي

وليست وحدة اللغـة دليلاً كافياً على اتفاق المشارب والمدارك فقد يختلف معنى الكلمة الواحدة باختلاف الادمغة التي تفهمها ، ولا سيما المعاني المجردة كالنفس والحرية والطبيعة فان وقعها في النفس يختلف باختلاف الامزجة العقلية . أما الكلمات التي تدل على شيء محسوس فقلما يختلف الناس في ادراكها

على ان اختلاف الامزجة العقليـة لا يمنع الشعوب ظاهراً من أن يعامل بعضها

بعضاً بالادب والاحترام المتبادل ، وأن تعقد اتفاقات سياسية وتجارية تفيد الفريقين . ولكن لكي تدوم المودة بينها ينبغي ألا تكثر من الاختلاط حتى لا تتصادم مداركها ومشاعرها المتناقضة

٢ — الضغائن الجنسية الناشئة عن اختلاف الدين والمصالح

ان تباين العقائد الدينية والمصالح الاقتصادية لما يزيد قوة الضغائن الطبيعية . أما العقائد الدينية فان نظرة سطحية الى الحروب والاضطهادات التي ملأت تاريخ الدول الاوربية وغيرها تكفي للاقتناع بما لها من السلطان على نفوس البشر ، وساقصر كلامي فيما يلي على تنافر المصالح

أمامنا اليوم مثال حي لهذا التنافر الشديد — نعني بغض الالمان للانكليز — فان بين هذين الشعبين قرابة جنسية ، ولكن التنافس التجاري قد أقام بينهما عدواناً شديداً أدى بهما الى امتشاق الحسام . وكانت أول نتائج هذا التنافس ان ألمانيا أنشأت اسطولها العظيم بسرعة غريبة . وما برحت الصحف الالمانية تظهر انكلترا بمظهر العدو الذي ينبغي كسره مهما انفق في هذا السبيل . وقد كان هذا البغض منتشراً بين العامة والخاصة على السواء كما يتضح من الفقرة التالية المنقولة عن مقالة للاستاذ ماير ( من جامعة برلين ) بتاريخ اول مارس سنة ١٩١٥ قال :

ان ميزة القرن العشرين هي التنافر الشديد والبغض الذي لا يرجى ازالته بين انكلترا والمانيا . اننا نشعر ونعلم جميعاً من هو عدونا اللدود الذي يسعى في هدم مدنيتنا وحياتنا الوطنية . ولئن تم الصلح معه في الظاهر فان الهوة العظيمة التي انفتحت بيننا وبينه ستظل فاغرة فاها . وسوف تمر اجيال عديدة قبل ان نتفق اتفاقاً مستديماً

على ان هذا الاختلاف لا يرجع الى تنافر المصالح الاقتصادية فقط بل الى تباين العواطف والعقائد . فان الالماني الذي يعتقد بتفوق أمته على سائر الشعوب يضيق صدره عن أن تكون انكلترا صاحبة المقام الاول على الكرة الارضية ، ويرى في ذلك اجحافاً بحقوقه . فلا غرابة أن يحمل الفلاسفة الالمان على منافسي امتهم وبلادهم وأن يزعموا ان عظمة انكلترا ليست موطدة الاساس وانه يكفيها صدمة من ألمانيا حتى تسقط من ذروة مجدها . قال الدكتور لينارد احد اساتذة جامعة هيدلبرج :

ان المركز الاعلى لنا في العالم من خبث ومكر كائن على ضفاف التاميز وعلينا ان نمحوه . . لانه من

المستحيل ان يأمن قوم شر عصابة لصوص الا بتشتيتهم وقتلهم

فهذه الحرب ليست حرباً للمحافظة على حياة المانيا وشرفها فقط بل هي ايضا حرب نقصد منها توطيد دعائم الصدق والاخلاص على الارض

اذا كانت هذه عبارات العلماء فليتصور القارئ مايقوله عامة الكتاب! بل أي مقال أبلغ من هذه الجملة المأخوذة عن جريدة المانية تصدر بأميركا :

متى اذللنا اعداءنا واستولينا على املاكهم فانا لا نأذن للاهلين الاصليين من انكليز وفرنسيين وايتاليين وغيرهم ان ينبسوا ببنت شفة . فاذا رفع احدهم صوته الى اعلى من التنهد كسرناه شر كسر

وبعد ان نهدم المعابد المسوسة والابنية القبيحة نقيم مكانها هياكل اعظم وافخم لنمجد فيها امبراطورنا الرفيع وشعبه المجيد غالبي الامم المنحطة ومزيليها من وجه الارض

كم من المرات يجب علينا ان نشكر الله الذي وكل الى امبراطورنا الفريد وشعبه هذه المهمة العظيمة! ألم يقل داروين ( ولا شك انه اخذ فكرته عن بعض علماء الالمان ) انه لا يصح الا الصحيح ولا يبقى الا الانسب

هـذا مثال من آراء الالمان . أفليس من العجيب الغريب أن يوجد اليوم شعب متعلم مهذب كالشعب الالماني يفكر على هذا النحو!

٣ — الضغائن الجنسية الناشئة عن اختلاف المذاهب السياسية

ان شكل الحكومة موقوف على المزاج العقلي، فبعض الشعوب تكون معدة بطبيعتها لقبول نظام ما دون سواه . وقد رأينا كيف ان الشعوب الالمانيـة قبلت بسهولة مذهب استئثار الحكومة ( البروسي الاصل ) بل ان تلك الشعوب قد تشربته تشرباً تاماً حتى أصبحت تراه الصورة المثلى التي يجب أن تقتدي بها جميع امم الارض

ان روح الالماني الجماعية خاضعة لارادة الحكومة . أما الانكليزي والاميركي فان روحه الفردية تأبى ان تتنزل من حريتها الى الحكومة الاّ عما لابد منه للاحتفاظ بالامن العام والراحـة العامة . ولو نصرت ألمانيا لكان ذلك انتهاء عهد الحرية في اوربا . ولله در السر ادورد غراي اذ قال « اني أفضل الموت او هجر اوربا الى الابد على ان اعيش تحت ذلك النظام »

فنرى مما تقدم ان بين ألمانيا والدول الاخرى بوناً شاسعاً من حيث العقائد السياسية. وقد كان يكفي هذا وحده ليولد بين الفريقين ضغائن لا تخمد

٤ — اثر الضغائن الجنسية في الخلافات السياسية

يرى المتبصر في نشوء اوربا الحديث مبدأين سياسيين كان لهما القسط الاوفر في توجيه مجرى التاريخ الاوربي: اولهما مبدأ التوازن الدولي وهو قديم يرجع الى القرن الثالث عشر، وثانيهما مبدأ الاحتفاظ بجنسيات الشعوب وهو ابن القرن الماضي ظهر اولاً في ايتاليا. ويتبين من درس التاريخ الحديث بعد تكوين ايتاليا ان هذا المبدأ ما برح يزداد توطداً وهو يرمي الى تكوين الدول حسب جنسيات الشعوب اي ان يجمع اهل كل جنس جماعة واحدة. على ان هذا المذهب لا يخلو من الخطر على مستقبل اوربا لانه حين نمو الروح الوطنية في هذه الشعوب لا تلبث أن يستيقظ ما بينها من الضغائن الجنسية المتأصلة في النفوس ومن ثم تنشأ الحروب بينها

ولا يخفى ان امبراطورية النمسا والمجر (١) اكثر الدول جمعاً لشعوب مختلفة فاذا انكسرت لا بد ان تطالب تلك الشعوب باستقلالها. وفي معظم الدول البلقانية ايضاً تجد خليطاً من الشعوب المتباينة المشارب والامزجة على نحو ما في النمسا. فالخطر الذي يخشى منه هو ان تقوم تلك الشعوب المتباغضة اذ تشعر بشيء من الحرية فتتقاتل فيما بينها قتالاً لا يقفها عنه الا يد حديدية تخضع الجميع (كما هو الحال في النمسا اليوم). ويكفيك برهاناً على ذلك ما حدث في الحرب البلقانية الثانية. فان تلك الشعوب لم تكد تتخلص من الحكم التركي حتى انقلب بعضها على بعض. ولا تزال تلك الضغائن والاحقاد المتوارثة جيلاً عن جيل تزداد شدة ولا سيما ان لكل دولة من الدول البلقانية اماني وطنية لا بد في سبيل تحقيقها من محاربة جيرانها

ستظل مسئلة الاجناس حجر عثرة في سبيل السلم الاوربي ولا سيما إذا كان من نتائج هذه الحرب ان تحرر جميع الشعوب الصغيرة التي تعودت الاستعباد. ولا شك ان رجال السياسة القدماء كانوا حكماء في احتفاظهم بالتوازن الاوربي

وسوف تمزق احشاء اوربا طويلاً وتسيل الدماء فيها انهاراً قبل ان يخيم السلم المستديم على ربوعها لان الشعوب المتباغضة المتنافرة متى كانت متمتعة بالحرية والاستقلال لا بد ان تشتبك فيما بينها، كما انها تثور اذا اصابها ضغط شديد من الخارج

(١) فيها ١٢ مليوناً المانياً ١٠ ملايين مجر ٦ ونصف شيك ٥ بولونيين وشعوب اخرى مختلفة

# الفصل الثالث

## سياسة المانيا الوعيدية . فكرة ثأر فرنسا

---

### ١ — اتخاذ المانيا سياسة الوعيد

رأينا كيف تقدمت المانيا تقدمها الاقتصادي بسرعة غريبة . وقد كان لهذا الاثراء السريع المتزايد اثر كبير في اخلاق الالمان . فنهم لما رأوا تفوقهم التجاري في انحاء العالم ورأوا جيشهم واسطولهم يزدادان قوة في كل يوم هان عليهم الاعتقاد بانهم امة هي ارفع سائر الامم في الذكاء والقوة

ان كبرياء الجماعات مرض سريع الانتشار بين افرادها ، فلم يلبث الالمان مدة قصيرة حتى اصبح عجبهم لا يعرف حداً ولا سيما بعد ما كتبه اساتذتهم وصحافيوهم لدعم هذه المزاعم واثباتها بالبراهين العلمية والتاريخية . فسرعان ما اعتقد الشعب الالماني بانه شعب اختاره الله للسيطرة على العالم

وقد لخص الاستاذ لاسون ( من جامعة برلين ) آراء الكتاب الالمان بالجملة الآتية :

> كل غريب عنا عدو لنا ما زال لم يبرهن على عكس ذلك . اننا بلا ريب اوقى من جميع الامم بمراحل سواء من الجهة الادبية والعقلية ... وان الله معنا

وما برح اعتقاد الالمان بانفسهم يتزايد مع الايام واليك ما قاله احدهم اخيرًا :

> ان الواجب الاول المحتم علينا جميعاً هو ان نجبر العالم باسره على التكلم باللغة الالمانية . فعلى كل الماني — علا أو سفل، قرب أو بعد — ان يجبر من حوله على التكلم بلغته حتى تفوز هذه اللغة الشريفة وتعلو على سائر اللغات ولتوطد سيادة الشعب الالماني على سائر الشعوب . يجب ان يعلم كل انسان انه اذا لم يتعلم اللغة الالمانية يكون ممقوتاً مرذولاً . ولا بد ان تصبح اللغة الالمانية لغة العالم باسره

وقد تبعت الحكومة الالمانية تيار الكبرياء العام فاخذت لهجة مفاوضاتها السياسية تزداد شدة ووقاحة . حتى ان جميع العقلاء واحبهم للسلم من الفرنسيين شعروا بان تلك الحال لن تدوم طويلاً

نعم ان مكاتباتها السياسية لم تتعد في الظاهر حدود اللياقة الا ان مغامزها

ومعانيها الخفية لم تكن لتخفى على اللبيب . هذا فضلاً عن لهجة الخطب السياسية ولا سيما خطب امبراطور المانيا الذي ما برح يوصي شعبه بوجوب حفظ « البارود جافاً » و « السيف مشحوذاً »

وقد كانت فرنسا ازاء هذا التهديد المطلي والوعيد المستخفي تسلك بكل حذر ودقة احتفاظاً بالسلم العام — وان كان جرحها اثر حرب السبعين لم يلتئم بعد . هكذا فعلت في المسائل المراكشية والبلقانية مما شهد الجميع لها « حتى ان اصدقاء فرنسا — على ما قال محرر سويسري — خشوا عليها ان يقل نفوذها تدريجاً من جراء تساهلها وتسامحها . بل خشوا على العالم أجمع ولا سيما الدول الصغيرة من جراء وعيد المانيا وتهديدها الذي انما كان يعبر عن مطامعها الخفية »

لا مغالاة البتة فيما تقدم فقد كان كل عاقل يشعر بانه لا مناص لفرنسا من قبول الحرب التي تتوعدها بها المانيا بطرف خفي — عاجلاً أو آجلاً — الا اذا اختارت ان ترمي بنفسها الى اسفل دركات الامم

ان في الكتاب الاصفر الذي نشرته الحكومة الفرنسية فقرات عديدة تدل على مبلغ الوقاحة الالمانية . ومن هذا القبيل ايضاً قول احد اعضاء الريشستاغ اثر جعل مدة الخدمة العسكرية في فرنسا ثلاث سنوات ( وهي لم تلجأ الى ذلك الا لتأهب المانيا الهائل ) اذ قال « ان هذا القانون اهانة لنا . فلا يجب ان نبيحه » . وقس على ذلك امثلة كثيرة

٢ — فكرة استئثار فرنسا

قد كان خوف المانيا من استئثار فرنسا سبباً بعيداً من اسباب الحرب . والمظنون ان بسمارك خشي ايلام فرنسا فلم يشأ ان تضم الالزاس الى المانيا ولكنه اضطر الى ذلك اثر الحاح الحزب العسكري

ولا شك ان انضمام الالزاس الى المانيا قد كلفها من النفقات الحربية اكثر بكثير مما افادها . ولو ان المانيا استعملت الرفق في معاملة الالزاسيين لكانت بلا ريب استمالتهم وادغمتهم فيها وانتزعت من فرنسا حق المطالبة بالالزاس ، ولكنها لم تحسن السياسة بل استعملت القسوة والصرامة تجاه شعب ذاق الحرية وعرف طعمها . على انه لا ريب في ان فكرة الاستئثار كانت على وشك الزوال من ذهن الناشئة

الحديثة . ولم يبعثها من رقودها الا الجرائد الالمانية التي كانت تتذرع بها لكي يقتنع الشعب بوجوب اتخاذ هذه التدابير الحربية العظيمة . وما برح اولو الشأن في المانيا يكررون على مسامع الجمهور ان فرنسا تتحين الفرصة لتثأر حتى انك قلما تجد المانياً الاَّ وهو مقتنع باننا اغتنمنا هذه الفرصة لمحاربة بلاده

وعلى رغم ان رجال السياسة الفرنسيين لم يعيروا فكرة الاستئثار من المانيا عناية حقيقية فقد كانت هذه المسئلة سبب جفاء طبيعي بين الدولتين . الا ان سفير فرنسا في برلين قد اخبرني عن امبراطور المانيا انه اظهر له غير مرة رغبته في حفظ العلائق الودية بين المانيا وفرنسا . ولكن لهجة السياسة الالمان في المشاكل المراكشية وغيرها لم يكن فيها ادنى دليل على هذه الرغبة

فنرى مما تقدم ان مسئلة الالزاس واللورين تعد بلا ريب بين اسباب الحرب البعيدة بمعنى انها كانت العذر الذي طالما تذرعت به المانيا لزيادة قوتها العسكرية تلك الزيادة الهائلة التي جرتها حتماً الى الحرب

# الفصل الرابع

## اثر العوامل الروحانية في منشأ الحرب

١ — العوامل الروحانية في الحرب الاوربية

لكل شعب من الشعوب — سواء المتمدين والهمجي — مطمح نفساني ينزع اليه يسعى في تحقيقه بجميع قوته ويضحي في سبيله بكل ما لديه

انظر الى القرطاجيين الذين كانوا يحرقون أولادهم أحياء عملاً بشعائرهم الدينية ، والى هنود اميركا الذين كانوا يسلخون جلد أسراهم تمجيداً لاصنامهم تعلم شيئاً من قوة الدوافع الروحانية التي تسيّر الناس ، بل اي تاريخ أبلغ من تاريخ العرب لتبيان سلطة العقيدة في نفوس الامم . فبفضل ايمان العرب تمكنت تلك الجماعات القليلة في مدة وجيزة من فتح جميع العالم المتمدين تقريباً وشيدت مملكة امتدت من مشارق الارض الى مغاربها

ومن قبيل العقائد الروحانية اعتقاد الالمان اليوم بأنهم شعب مختار . فتراهم ينشرون الخراب في ربوع اوربا ويسفكون الدماء تحقيقاً لمطامعهم واثباتاً لتفوقهم على سائر اهل الارض

والذي يزيد قوة العوامل الروحانية هو خلوها من القياس العقلي . ولو كان للعقل نفوذ وسلطان عليها لما ضحى الناس في سبيلها بممتلكاتهم وبأرواحهم غير مبالين . فليس لاحكام العقل التي تفيد العالم في مباحثه العلمية ان تقيم الجموع وتقعدها

ويتكون المطمح الروحاني تدريجاً كما سنرى عند درس تكوّن مطمح ألمانيا في السيطرة على العالم

٢ — اثر الجنس في فكرة السيطرة العالمية

قليلة هي الامم — ومنها الصينيون والاتراك — التي لا تعتقد بتفوقها على سائر الامم . وقد يعد هذا الاعتقاد نافعاً في بعض الاحوال ولكنه كثيراً ما يدفع اصحابه الى استعمال القوة الجبرية لتوطيد هذا التفوق الموهوم

وقد نشر الالمان في الثلاثين سنة الماضية عدداً كبيراً من المؤلفات التي ترمي الى اثبات تفوقهم على سائر شعوب الارض . ومنها يستدل ان اعتقاد الالمان بتفوقهم فوق اعتقاد الامم السابقة من هذا القبيل — اللهم الا اعتقاد اليهود في عهد التوراة واعتقاد العرب في اول الاسلام

ومدار اعتقاد الالمان يدور حول توهمهم انهم شعب خاص وكّل الله اليه السيطرة على العالم بعد فتحه . والحقيقة ان الالمان خليط شعوب مختلفة متباينة الاصل

وفي مقدمة المؤرخين الذين بشروا بهذا المذهب تريتشكي ولمبرخت ، وقد تبعهما عدة كتاب آخرين . ولا شك ان طبيب الامراض العقلية يجد في كتبهم أمثلة كثيرة من الاختلال العقلي الناشيء عن الامراض النفسية الجماعية . وفي التاريخ امثلة كثيرة لهذه الامراض التي تشمل أمماً بأسرها ولكن ليس منها مثال بلغ مبلغ العجب الالماني

ان التاريخ في نظر تريتشكي سلسلة حوادث مترابطة انما يرمي بها الله الى نصرة المذهب البروتستنتي وتوطيد دعائمه على الارض . وفي رأيه ان الالمان الذين خصهم الله بالسيطرة على العالم مدينون بعظمتهم الى لوثيروس وان ظهور هذا الرجل العظيم هو في الحقيقة ابتداء عهد الاصلاح والارتقاء في العالم

وليس من غرضنا ان نبخس هذا المؤرخ حقه بل نحن نعترف له با راء أسمى من تلك الآراء الصبيانية منها قوله :

« على العمل لا على الفكر يقف مسير الامم . ولكن كما ان الامة بلا عمل لا تقوى على شيء فان العمل بلا فكرة تقوده لا يؤدي الى شيء . وقد كفى العالم ان تنمو فيه بعض الافكار الدينية والسياسية حتى انقلب وجه التاريخ غير مرة »

وقد كان الاقبال على هذا المؤرخ عظيماً جداً لأنه عبّر عن اماني الشعب الالماني التي بثها فيه رجاله العسكريون — لا المذهب البروتستنتي على ما قال تريتشكي

أما لمبرخت الذي تقدم ذكره فان آراءه كانت أقل تخيلا وتوهماً من آراء تريتشكي . فانه لم يلجأ الى اثبات مداخلة الله في التاريخ وتمييزه للمذهب البروتستنتي لأن الانسانية في نظره هي ولية أمر نفسها ، بل ان كلا المذهبين الكاثوليكي والبروتستنتي عنده قد قدم عهدهما وآن لهما الزوال ليحل محلهما مذهب جديد . وفي اعتقاده ان الحياة الاقتصادية هي العامل الاول في التاريخ . وقد بين تفوق المانيا من هذا القبيل

الى ان قال ان المنافسة السامية لا بدّ أن تأول الى الحرب حالما يشعر فريق من المتنافسين بالقوة الكافية للنصر . ولمبرخت من الذين يعتقدون بأن الحكومة يجب ان تتولى جميع الامور وتتعرض لكل شيء

وبالاختصار ان رأيه هو نفس رأي نيتشي الذي جاء بعده . وهما يجعلان الآداب المسيحية في مقام الآثار التاريخية التي ليس لها قيمة محسوسة

ومن الآراء التي نشرها لمبرخت المتقدم انه يجب ضم سويسرا والبلجيك وهولندا الى ألمانيا تمهيداً للسيطرة على العالم . اما الممالك البعيدة كشيلي وبرازيل ونحوها فيكفي فيها نشر المدارس والمعامل والمصارف الالمانية الخ .

يطول بنا الشرح لو سردنا آراء اولئك الكتاب الالمان وانما نقتصر على مقتطفات وجيزة : قال بلنتشيلي الكاتب الحقوقي الشهير :

حيثما تضع المانيا قدمها يصبح لها حق تام بالتملك دون النظر الى المعاهدات

ومن أشهر الذين عمموا تلك الافكار بين الشعب الالماني كاتب اسمه هوستن شمبرلن فقد ألف كتاباً سماه « منشأ القرن العشرين » حاز اقبالا عظيماً بين الجمهور لانه يطري العجب الالماني . ويؤكدون ان الامبراطور وهبه مبلغاً من المال لقاء خدمته هذه . اما آراؤه فليست الا تكراراً لآراء من سبقوه موضوعة في قالب جديد . فمن أقواله :

لو ان الشعوب الجرمانية عند فتحها اوربا ابادت الشعوب القديمة واستأصلت جرثومتها اذاً لما رأينا الشعوب اللاتينية اليوم تتنصل من النفوذ الالماني — وهو الوحيد القادر على احيائها

وعلى هذا القياس يمكننا ان نأسف على ان الرومانيين لم يبيدوا الشعوب الجرمانية التي كانت تتعدى على حدودهم دفعة واحدة بدلاً من اقتصارهم على قتل مئات الالوف في كل مرة . فما كانت المدنية على الاقل رأت عهد الاجيال المظلمة

يتضح لنا مما تقدم ما هي الاسباب الحقيقية التي أدت الى الحرب ومنه يتبين لنا ايضاً تفاهة الاعتقاد بأن هذا الامبراطور أو ذاك اراد الحرب

ان حرباً هذه بواعثها الخفية يمكن ارجاؤها فقط من يوم الى يوم وليس في الامكان اتقاء شرها

٣ — اثر العوامل الاقتصادية والحربية في فكرة السيطرة العالمية

ما كانت النظريات وحدها لتقنع بتفوق الالمان وامكان سيطرتهم على العالم سيطرة فعلية لو لم تتخذ شكلا محسوساً وتخرج من حيز الافكار الى حيز العمل

فهناك سببان حملا الشعب الالماني على الاعتقاد بأن أحلامهم الذهبية قد اصبحت قريبة التحقيق وهما : ازدياد القوة العسكرية وتقدم الصناعة تقدماً سريعاً

أما القوة العسكرية فقد كان الجيش الالماني في وقت السلم لا يزيد على ٤٠٠٠٠٠ مقاتل في سنة ١٨٧١ فأصبح قبيل الحرب اكثر من ضعفي هــذا العدد . فضلاً عن الاسطول الذي أوجد من العدم وأصبح يعد نفسه مناظراً للاسطول الانكليزي . فلاغرو ان تتوطد فكرة السيطرة العالمية على مثل هذه الاساسات وان تنمو المطامع الالمانية بسرعة غريبة

وقد طلبت احدى المجلات الالمانية من بعض كبار العلماء ان يوافوها بآرائهم فيما يجب ان تستفيده المانيا من الحرب فجاءت الاجوبة وفيها تتجلى الروح الالمانية . واليك ما طلبه الاستاذ ارنست هيكل العالم الشهير : اقتسام البلجيك والاستيلاء على المستعمرات البريطانية ومستعمرة الكونغو البلجيكية وعلى المقاطعات الفرنسوية الواقعة على الحدود وعلى ولايات البلطيق الخ .

اما الاستاذ استوالد فكان أقل طمعاً من الاستاذ هيكل فقد قصر طلباته على ملاشاة الاسطول الانكليزي وتشتيت جميع الجيوش الاوربية ما عدا الجيش الالماني !

وقد تباينت الاجوبة الاخرى الا انها اتفقت كلها في وجوب الاستيلاء على الدول الصغيرة التي ليس لها حق البقاء مستقلة

بل أغرب من كل ذلك ان استاذاً المانياً يسمى فيروردت اقترح اقتراحاً مبتكراً يرمي الى تنظيم اوربا بعد الفتح الالماني . فقد رأى هذا الاستاذ ان طرق الاستعمار المعروفة لا تفي بالغرض المطلوب فكتب مقالة في احدى الجرائد الشهيرة نصح فيها الحكومة الالمانية ان تقتل الشعوب المغلوبة بالملايين حتى لا يبقى لها أثر في اوربا فيقطنها الالمان وحدهم ويتناسلون فيها . فتأمل !

٤ — اكتمال تكون الروح الالمانية

رأينا فيما تقدم منشأ فكرة السيطرة العالمية والعوامل المادية التي اعتمدت عليها .

وقد حدا منظر تلك العوامل المادية بعض المفكرين الى انكار تسلط العقائد الروحانية على نفوس الالمان . على ان اعتقاد الالمان بتفوقهم قد اتخذ في مخيلتهم صورة شبه دينية واصبح دافعهم الرئيسي فهم يعدون أنفسهم آلة بيد الله ويعتقدون ان القانون الاول لهذه الحياة ليس طلب الفضيلة ولا طلب الحقيقة بل طلب الاتساع والنفوذ والسيطرة والتضحية بكل شيء في هذا السبيل

وبعبارة أخرى ان الدوافع الروحانية تحيي في الالمان الغرائز الوحشية التي ما برحت المدنية تخمدها وتضعفها . فما تاريخ المدنية الا تاريخ مساعي العقل البشري للتسلط على الغرائز الطبيعية الوحشية

٥ — اجمال العوامل النفسية

يتبين للمطلع على الفصول السابقة المتعلقة باسباب الحرب البعيدة اننا اقتصرنا على ذكر العوامل الحيوية والعاطفية والروحانية والجماعية من غير ان نذكر شيئاً عن أثر الاحكام العقلية فيها

ان السبب في ذلك يسير اذ اننا لا نرى لاحكام العقل مقاماً يذكر في هذه الحرب كما انه لم يكن لها مقام في الحروب السابقة . نعم ان لها دخلا في تنظيم المعارك ولكنها حتى في المعارك ليست العامل الاولي كما سنرى . ان العقل خادم للدوافع الروحانية والعاطفية ليس الا

واذا كان القارئ لم يقتنع بما قدمت فارجو منه ان يراجع المجمل الآتي . وفيه بينت أسباب الحرب النفسية التي دفعت كل امة الى الدخول في الحرب :

( ١ — النمسا ) أهم الاسباب التي دفعت النمسويين الى الحرب بغضهم الشديد للسرب وهو من قبيل الاحقاد الجنسية المتأصلة في النفوس ولا سيما ان الائتمار بقتل ولي عهد النمسا دبر في البلاد السربية واتهمت الحكومة السربية باشتراكها فيه . فهاج الشعب من جراء ذلك وكان له تأثير جماعي عظيم

( ٢ — روسيا ) العوامل العاطفية التي دفعتها الى الحرب هي : حقدها على النمسا منذ ضمت البوسنه والهرسك وخوفها من فقد مكانتها بين الشعوب السلافية اذا تركت السرب بلا معونة

( ٣ — فرنسا ) الدافع الاولي هو دافع شريف حملها على مؤازرة حليفتها روسيا وان لم يكن لها مصلحة من ذلك . زد على ذلك ضيق صدور الفرنسيين عن احتمال وعيد المانيا وتهديدها المتكرر

( ٤ — انكلترا ) الشعور بواجب الدفاع عن حرمة البلجيك التي تعهدت انكلترا بحفظها . زد على ذلك خوفها من استيلاء المانيا على ميناء انفرس وشل التجارة البريطانية

( ٥ — المانيا ) رغبتها في بيان تفوقها وقوتها بتذليل روسيا . فقد كانت المانيا تتوقع خضوعها لمطالب النمسا من غير حرب — وقد قوت فيها الحرب فكرة السيطرة العالمية

مما تقدم نرى ضعف القياس العقلي ازاء العوامل النفسية الاخرى . ولو كان له اقل سلطة على النفوس لما نشبت الحرب ولا سيما من جهة المانيا التي كانت على وشك استعمار العالم استعماراً سلمياً ، الا ان العوامل الروحانية كانت اقوى من ان تقتنع بهذه البراهين

* * *

فرغنا من درس اسباب الحرب البعيدة وقد كان يجوز لنا الاكتفاء بما تقدم لولا انه من اللذيذ معرفة الاحوال التي جعلت الحرب تنشب في سنة ١٩١٤ لا في سنة أخرى . ولا سيما أن في درس المفاوضات السياسية فائدة عظيمة وعبرة لمن يعتبر . بل ان سلوك رجال السياسة في اسبوع المفاوضات لاكبر برهان على ان الانسان مهما يكن راقياً ينقاد بقوى غير منظورة

# الباب الرابع

## اسباب الحرب المباشرة

---

# الفصل الاول

## انذار النمسا واسبوع المفاوضات السياسية

---

### ١ — التعاليم البسيكولوجية المستخلصة من المكاتبات السياسية

ليس لدينا من المستندات الرسمية المتعلقة بمنشأ الحرب الا التقارير والمراسلات التي دارت بين السفراء ودولهم . وقد نشرت هذه المراسلات في كتب مختلفة الالوان أصدرتها الدول المتحاربة كالكتاب الازرق ( انكلترا ) والكتاب الاصفر ( فرنسا ) والكتاب الابيض ( ألمانيا ) والكتاب الاشهب ( البلجيك ) والكتاب البرتقالي ( روسيا ). وأخطر هذه الكتب الكتابان الازرق والاصفر وسنرجع اليهما في معظم استشهاداتنا الآتية

ان لهذه الكتب قيمة عظيمة لمن يريد ادراك خفايا الحرب الاوربية وهي تدل دلالة قاطعة على عجز العقل البشري ازاء الدوافع العاطفية والروحانية وتبين كيف تنقاد الحكومات الى حيث لا تريد

وقد ارتكبت المانيا والنمسا بعض غلطات نفسانية كان لها القسط الاوفر في حملها على خوض غمار الحرب . من ذلك توهمهما بادئ الامر ان فرنسا وانكلترا وروسيا لا تزج بنفسها في المشكلة التي قامت بين النمسا والسرب وانها لن تجسر على التعرض للحرب . فلما رأت المانيا ان روسيا تحشد جنودها خلافاً لما ظنته خشيت أن تسبقها في مضمار الاستعداد الحربي ( ولا يخفى ما للحركات الحربية الاولى من الخطورة ) فطلبت

اليها تسريح جيشها تحقيقاً لرغبة الحزب العسكري — وهي اذ ذاك متأكدة من حياد انكلترا — فلما رفضت روسيا أعلنتها بشهر الحرب

الآ ان الحوادث لم تتسلسل على هذه الصورة فان القرارات التي يقرها البشر لا تصدر دفعة واحدة بل تتكون شيئاً فشيئاً الى ان تستقر في شكلها النهائي . وسنرى في يلي ما تقدم دخول انكلترا في الحرب من التردد الطويل وكيف ان امبراطور المانيا اندفع مع التيار العام الى فشهر حرباً مناقضة لمصالحه

يستخلص هذه النتائج وغيرها كل من اطلع على الكتب الرسمية التي تقدم ذكرها . الآ انه لما فيها من التفاصيل الطويلة قد رأينا ان ننتقي منها الفقرات الخطيرة ونرتبها وفقاً لمقصدنا — وهو درس العوامل النفسية التي تخللت المفاوضات السياسية

وبديهي ألا تذكر المكاتبات الرسمية شيئاً من أسباب الحرب البعيدة . فليست تلك المكاتبات الآ مساعي ممثلي الدول ليمنعوا سقوط نقطة الماء التي تكفي لأن تطف الكأس الممتلئة

ولا شك ان السؤال الجوهري ليس « من هو الذي اسقط تلك النقطة ؟ » بل « ما الذي جعل الكأس تمتلىء شيئاً فشيئاً حتى أصبحت عرضة للطفوف »

ولم تزد مدة المفاوضات على اسبوع ، الآ انه مع هذا كان كافياً لقلب وجه التاريخ

واذا اقتصر مستطلع خفايا الحرب على قراءة المكاتبات الرسمية ثم سئل « من ذا الذي اراد الحرب ؟ » اضطر الى ان يجيب « لم يردها أحد »

نعم لم يردها أحد . فقد كان الجميع يخافونها ، الآ انها مع ذلك شبت وشمل لهيبها معظم الدول المتمدينة . فهل من دليل أقوى من هذا على عجز الحكومات ازاء مجاري العواطف والاهواء البشرية ؟

ان أربعة من روساء الحكومات قد أمضوا اعلان الحرب وهم مطلقو السلطة وفي يدهم قيادة القوى البرية والبحرية . ولكن سلطتهم لم تنفعهم شيئاً ولم تستطع الوقوف في سبيل تيار القدر الجارف

غير ان العالم العصري لا يجوز له ان يكتفي بنسبة الحوادث الى القدر ، بل عليه أن يحللها الى عناصرها التي تتالف منها . فان تلك العناصر باجتماعها تكوّن قوة هائلة لا تردها ارادة البشر

٢ — اسبوع المفاوضات

ولا بد لنا قبل تحليل المكاتبات السياسية من ذكر ملخص الحوادث التي توالت في ذلك الاسبوع المشهود الذي ابتدأ في ٢٣ يوليو وانتهى في أول أغسطس سنة ١٩١٤ لبيان تسلسلها وارتباطها يوماً فيوماً :

( الخميس ٢٣ يوليو ) علمت الدول ان النمسا قدمت انذاراً نهائياً الى السرب أثر مقتل ولي العهد في سرايافو تطلب فيه ان تقبل السرب « مداخلة بعض المندوبين النمسويين في البلاد السربية لقمع الحركة العدائية التي ترمي الى هدم كيان المملكة النمسوية »

( الجمعة ٢٤ يوليو ) طلبت روسيا الى النمسا ان تمد أجل الانذار النهائي . — اعلن سفير المانيا في باريس وجوب حصر الخلاف بين النمسا والسرب

( السبت ٢٥ يوليو ) رفضت النمسا مد اجل انذارها للسرب — اقترحت انكلترا ان تتوسط مع المانيا وايتاليا لازالة الخلاف الواقع بين النمسا وروسيا — لا تزال المانيا متيقنة من حياد انكلترا

( الاحد ٢٦ يوليو ) تولت روسيا الدفاع عن السرب في فينا وطلبت الى المانيا مساعدتها — بدأت النمسا حشد جيوشها حشداً جزئياً

( الاثنين ٢٧ يوليو ) وفقاً لما جاء في الكتاب الازرق قبلت المانيا مبدئياً وساطة الدول الاربع ( اي انكلترا والمانيا وفرنسا وايتاليا ) بين النمسا وروسيا — ولكن الكتاب البرتقالي يخالف ذلك اذ يقول « اكد سفير المانيا في باريس استحالة التوسط أو عقد مؤتمر »

( الثلثاء ٢٨ يوليو ) وافقت المانيا على خطة النمسا الصارمة وقد أعلنت هذه الحشد العام وشهرت الحرب على السرب — طلبت روسيا من انكلترا توسطها

( الاربعاء ٢٩ يوليو ) بدا من المانيا شيء من التساهل ونصحت باستئناف المفاوضات بين روسيا والنمسا — الا ان روسيا اضطرت الى حشد جيوشها على الحدود النمسوية لان النمسا قد حشدت جيوشها رغم سير المفاوضات في سبيلها — هددت المانيا روسيا بانها تبدأ بحشد جيوشها اذا لم تقف تأهبها الحربي فجابت روسيا بانها لا تستطيع وقفه ما زالت النمسا مصرة على خطتها

( الخميس ٣٠ يوليو ) اعلنت روسيا انها تقف استعدادها الحربي اذا اعترفت النمسا بان للدول الاوربية شأناً في خلافها مع السرب — اظهر سفير المانيا في سان بطرسبرج خوفه الشديد من نشوب حرب اوربية وطلب الى وزير الخارجية الروسية ان يقترح اي اقتراح من شأنه رفع الضغط السياسي

( الجمعه ٣١ يوليو ) رجعت المفاوضات بين روسيا والنمسا الى سيرها وقد قبلت النمسا اقتراحاً عرضته انكلترا - ولكن المانيا أعلنت ان التأهبات الروسية تضطرها الى حشد جنودها

( السبت اول اغسطس ) ارسلت المانيا انذاراً الى روسيا دعتها فيه الى تسريح جيوشها في ظرف ١٢ ساعة — اما النمسا فانها اظهرت تساهلاً كبيراً باعترافها لروسيا بان لاوربا حق

المداخلة في مشكلتها مع السرب — وتجنباً للحرب اعلنت روسيا انها تكتفي بضمان استقلال السرب وحفظ حدودها

ولكن الامر كان مقضياً ! ففي الساعة ٧ مساء اعلنت ألمانيا الحرب على روسيا وفي ٣ اغسطس اعلنتها على فرنسا

وسنحلل فيما يلي تلك الحوادث من حيث مغزاها والتعاليم البسيكولوجية التي تستخلص منها

٣ — شكوى النمسا من السرب . عزمها الاكيد على محاربتها . صرامتها في المفاوضات

كان الانذار الذي ارسلته النمسا الى السرب اثر مقتل ولي العهد مسبوكا في قالب يتعذر قبوله ، مما دلّ على ان في صدر النمسا عداوة وحقداً للسرب . فقد طلبت اليها ان تقبل « معاونة عمال من الحكومة الامبراطورية والملكية أي ( النمسوية ) لقمع الحركة العدائيــة التي ترمي الى هدم كيان المملكة النمسوية » . ولما أن بلغ الدول العظمى هذا الانذار ادركت انه ليس الاَّ حجة تذرعت بها النمسا لدخول السرب

وبناء على المعلومات التي وردت الى وزارة الخارجيــة الفرنسية في ٢٣ يوليو سنة ١٩١٤

كانت مقاصد الحكومة النمسوية المجرية في البدء — بناء على ما علمه سفير فرنسا في فينا — ان تعمل باشد الصرامة ضد السرب وان تعد ثماني اورديات Corps d'armée للحرب

وفي ٢٤ يوليو كتب سفير فرنسا في روسيا يقول :

ان قصر اجل الانذار لما يقف في سبيل مساعي الدول وتوسطها لدى حكومة فينا

وقد كانت مقاصد النمسا جلية لم تخف على احد من رجال السياسة . وهذا ما كتبه سفير انكلترا في فينا بتاريخ ٢٤ يوليو :

زار معتمد روسيا في هذا الصباح وزير الخارجية ( النمسوية ) وقال له مبدياً رأيه الشخصي ان المذكرة النمسوية مسبوكة في قالب يستحيل معه قبولها وان عباراتها شديدة الصرامة غير مألوفة اللهجة . فاجاب وزير الخارجية ان الاوامر قد صدرت الى معتمد النمسا في بلغراد أن يغادرها اذا لم تقبل جميع الطلبات النمسوية قبل الساعة الرابعة من بعد ظهر غد

ولما أحست السرب حرج موقفها داخلها الخوف وقبلت طلبات النمسا كلها تقريباً

ولكن هذا التساهل لم يفد شيئاً . فقد أرسل معتمد انكلترا في برلين الى حكومته خلاصة محادثة دارت بينه وبين الوزير الالماني قال :

كان الوزير يجهل مقدار القوة التي اعدتها النمسا ولكنه اعترف بأن الحكومة النمسوية المجرية ارادت ان تعطي السربيين درساً وانه في نيتها اتخاذ التدابير الجبرية

وكذلك كتب سفير فرنسا في برلين الى حكومته بتاريخ ٢٤ يوليو :

قد عزمت الحكومة النمسوية عزماً ثابتاً على اذلال السرب فهي لا تقبل مداخلة اي دولة من الدول الى ان تبلغ مرماها وتصفع السرب في وجهها

ان جميع السفراء أحسوا نفس الشعور تجاه مقاصد النمسا . وكتب سفير انكلترا بتاريخ ٢٧ يوليو يقول :

قد تحدثت مع جميع زملائي الذين يمثلون الدول العظمى فاجمعت الآراء على ان الانذار الذي بعثته النمسا قد وضع في صيغة تؤدي حتماً الى الحرب

ولكن النمسا نشرت بعد ذلك مذكرة لتبرئة نفسها قالت فيها :

ان مساعي السرب لانتزاع الشعوب السلافية الجنوبية من المملكة النمسوية قديمة العهد . وقد اختلفت تلك المساعي شدة وقوة ولكن مقصدها لم يتغير . وقد بلغت اقصى مظاهرها حين حدثت ازمة انضمام البوسنه والهرسك . . .

ولما رأت السرب الخطب يتفاقم خشيت على نفسها وقبلت بكل مطالب النمسا كما يستدل مما كتبه سفير انكلترا في روما بتاريخ ٢٨ يوليو :

في هذا الصباح دار حديث طويل بيني وبين معتمد السرب اخبرني في اثنائه انه اذا اوضحت النمسا صورة مداخلة عمالها ( لقمع الحركة العدائية ضد النمسا ) فيحتمل ان تقبل السرب كل مطالب النمسا التي وردت في مذكرتها

ولكن الحكومة النمسوية بقيت على صلابتها واصرارها . وقد كتب سفير انكلترا في فينا بتاريخ ٢٨ يوليو الى حكومته يقول :

اخبرني سفير روسيا ان الحكومة النمسوية قد رفضت اقتراح الحكومة الروسية الذي من شأنه حل المشكلة السربية فيما بين وزارة الخارجية الروسية وسفير النمسا في سان بطرسبرج

الآ ان النمسا لم تنثن عن عزمها كما تبين من قول وزير الخارجية الانكليزية في ٢٩ يوليو :

ان كل ما بلغني من برلين وفينا يجعلني اعتقد ان النمسا لا تقبل مداخلة دولة ما بينها وبين السرب

ولكي لا يبقى ريب في مقاصد النمسا شهرت الحرب على السرب في ٢٨ يوليو . ويظهر مما كتبه معتمد انكلترا في الاستانة ان مطامعها الخفية كانت كثيرة ، فقد قال بتاريخ ٢٩ يوليو :

لدي من القرائن والادلة ما يحملني على الاعتقاد بان مقاصد النمسا لا تقتصر على معاقبة السرب . وأخص من ذلك ملاحظة ابداها لي سفير النمسا بشأن الحالة الاقتصادية السيئة التي وقعت فيها سالونيك تحت الحكم اليوناني وما يتوقعه من مساعدة الاهلين المسلمين للجيش النمسوي لتضجرهم من الحكم السربي

وقد كان يكفي النمسا أن تقصر تأهبها الحربي على جيشها العامل لأنه يستطيع وحده اخضاع السرب . ولكن يظهر انها كانت تتوقع مشاكل أخرى فانها حشدت كل ما يمكنها حشده من الرجال — كما جاء في رسالة سفير فرنسا في فينا بتاريخ ٣١ يوليو اذ قال :

قد شملت التأهبات العسكرية جميع الرجال بين سن ١٩ و٤٢ بمقتضى أمر صادر هذا الصباح من الحكومة النمسوية الحربية

٤ — اعتقاد النمسا وألمانيا بأن ضعف روسيا وفرنسا عسكرياً

يمنعهما من دخول الحرب

لا بدّ ان يتساءل القارىء عن السبب الذي من أجله أظهرت النمسا تسندها ألمانيا تلك الصرامة والصلابة في مفاوضاتهــا ولماذا ظلت متمسكة بعذرها التافه حتى عرضت نفسها الى حرب اوربية قد تجر عليها الويلات

سبب بسيكولوجي بسيط دفعها الى اتخاذ ذلك الموقف فان النمسا وألمانيا كانتا تعتقدان بأنه ما زالت روسيا وحدها بين الدول الاجنبية صاحبة المصلحة في المشكلة السربية فانها لن تجسر على التعرض لها . وقد كان عندهما بواعث خطيرة تحملهما على هذا الاعتقاد فان النمسا استولت على البوسنه والهرسك بأسرهما سنة ١٩٠٨ من غير ان تقاومها روسيا مقاومة جدية — الآ باعتراضها الكتابي

ولا شك ان هذه النقطة جوهرية في نظر الذي يستجلي منشأ الحرب فلو كانت النمسا على يقين من مداخلة بعض الدول الاوربية مداخلة فعلية في مشكلتها مع السرب لما لجأت الى تلك الشدة على الارجح

واليك مقتطفات من المكاتبات الرسمية تؤيد ما تقدم

كتب سفير فرنسا في فينا بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٩١٤ :

بحثت بعض صحف فينا في قوات فرنسا وروسيا ونظامهما العسكري وبينتا ان هاتين الدولتين عاجزتان عن ان تقولا قولا فاصلا في الشؤون الاوربيــة . وهذا مما يسهل على النمسا بمؤازرة المانيا اخضاع السرب

وكتب سفير فرنسا في برلين في ذات المعنى بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩١٤ ما يأتي :

يبدي سفير البلجيك اهتماماً عظيماً بسير الحوادث وهو يعتقد ان النمسا والمانيا قد اغتنمتا فرصة انهماك روسيا وفرنسا بمشاكلهما الداخلية

وكتب سفير انكلترا في فينا بتاريخ ٢٦ يوليو :

سألت سفير المانيا عن احتمال ضغط الرأي العام الروسي حتى يحمل الحكومة على نصرة شعب تشفع به القرابة الجنسية فاجاب ان المسألة تقف على شخصية وزير الخارجية الروسية . . . . ثم قال انه يظن ان لدى ذلك الوزير من الحكمة ما يمنعه من اتخاذ خطة يكون من شأنهــا ايقاظ مسائل عديدة تتعلق بحدود روسيا واحياء المشاكل الاسوجية والبولونية والروثينية والفارسية وزاد قوله ان فرنسا بلا شك غير مستعدة للحرب

وقد ابرق السر ادوارد غراي بتاريخ ٢٧ يوليو الى سفير انكلترا في سانت بطرسبرج :

بلغنا من المصادر الالمانية والنمسوية ان الاعتقاد عام فيها بان روسيا لا تتعرض للمسئلة السربية ما زالت النمسا تتعهد بألا تستولي على شيء من الاملاك السربية

وفي ٢٨ يوليو كتب سفير انكلترا في روسيا :

قال لي اليوم زميلي سفير النمسا بانه من المستبعد جداً نشوب حرب عمومية لان روسيا ليست ميالة ولا مستعدة للحرب

وفي ٢٩ يوليو كتب سفير انكلترا في روما يقول :

قد كان من الصعب اقناع المانيا بان روسيا تنظر الى مجرى الامور نظراً جدياً الا انه بناء على رغبة المانيا في المحافظة على علائقها الودية بانكلترا فان سفيرها يرى احتمال تغييرها خطتها اذا تيقنت ان انكلترا تعين روسيا وفرنسا

وكتب ايضاً سفير فرنسا في روما بتاريخ ٢٩ يوليو :

قال لي المركيز ديسان جليانو ان الذي يؤسف عليه في هذه المشكلة انما هو كون المانيا والنمسا تعتقدان ان روسيا لا تحرك ساكنا

وقال ما يشبه ذلك سفير انكلترا في فينا عند قوله :

قد عبر لي سفير المانيا في ٢٤ يوليو عن اعتقاده بان روسيا لا تتعرض للخلاف

٥ اعتقد النمسا وألمانيا حياد انكلترا اذا شبت الحرب

كما انه لم يخطر ببال النمسا وألمانيا ان روسيا وفرنسا تتعرضان بالفعل في المشكلة السربية كذلك كانتا مقتنعتين ايضاً بمحافظة انكلترا على الحياد التام

وقد كان اعتقاد ألمانيا هذا المعتقد قوياً جداً كما يستدل مما كتبه سفير انكلترا في سان بطرسبرج في ٢٥ يوليو :

.. اخبرني دولة الوزير ( الروسي ) انه يأسف على ان المانيا تعتمد تمام الاعتماد على حيادنا

وابرق وزير الخارجية الانكليزية بالمعنى نفسه في تاريخ ٢٧ يوليو :

اخبرني سفير روسيا ان الاعتقاد سائد في الدوائر السياسية الالمانية والنمسوية باننا نظل على الحياد مهما تكن الحال

ويؤخذ ذلك ايضاً من قول معتمد فرنسا في لندن بالتاريخ نفسه :

قد اظهر سفيرا النمسا والمانيا ثقتهما بحياد انكلترا في حال نشوب الحرب

ولم يحمل انكلترا على خوض غمار الحرب الا انتهاك حرمة البلجيك . ولولا ذلك اصح حساب ألمانيا في حيادها

# الفصل الثاني

## نفور انكلترا من الحرب

١ — نفور انكلترا الشديد من فكرة الدخول في الحرب .
رفضها في البدء ان تمد فرنسا بمساعدتها اذا نشبت الحرب بينها وبين ألمانيا

يندر ان يقر الرجال المفكرون على آرائهم دفعة واحـدة ولا سيما اذا كانت تلك الآراء مخالفة لما هو شائع بين الجمهور . لذلك كان درس تحول وزير الخارجية الانكليزية في الرأي من كره الحرب الشديد الى وجوب اعلانها وما تخلل ذلك من التردد الطويل مفيداً غاية الفائدة لمن يستجلي العوامل النفسية التي سيرت الحرب الاوربية . ولم يكن هذا التحول مقصوراً على وزير الخارجية بل ان الملك والبرلمان والجمهور تحولوا معه تدريجاً . ولا شك ان الالمان أظهروا سوء تصرف سياسي وجهلاً للقوانين النفسية بمس عواطف انكلترا كما فعلوا

ولنرجع الى المكاتبات الرسمية لنستفيد من عباراتها

يستدل على أفكار السر ادوار غراي وزير الخارجية الانكليزية من رسالة كتبها بتاريخ ٢٠ يوليو قال فيها :

ان نشوب حرب بين الدول الاوربية تستفز سخطي وانه لمن الفظيع ان تجر احداها الى الحرب من اجل السرب

ولا يجوز ان يبرح من ذهننا ان انكلترا لم تكن مرتبطة بفرنسا حتى ولا باتفاق شفهي خلافاً لما ظنه الجمهور . وذلك على الرغم من المساعي العديدة التي قام بها سفير فرنسا سنة ١٩١٢ فانه لم يحصل الا على كتاب من الوزير الانكليزي برفض أي تعهد رفضاً واضحاً

فيرى القارئ نفور الوزير الانكليزي من الحرب في أول الامر وقد كتب بتاريخ ٢٣ يوليو يقول :

على فرض ان أربعة من الدول الكبرى — كالنمسا وألمانيا وروسيا وفرنسا مثلا اشتبكت في حرب فالذي يتراءى لي ان نفقاتها الباهظة وعرقلتها للتجارة تؤدي باوربا الى التقهقر الصناعي والافلاس المؤكد

ويظهر ان الحكومة الانكليزية أرسلت تعليماتها الى جميع سفرائها بالتزام خطة الحياد في مفاوضاتهم — يستدل على ذلك من المحادثة التي دارت بين سفير انكلترا في بطرسبرج وسفير فرنسا فيها ، على ما جاء في رسالة الاول الى وزير الخارجية الانكليزية بتاريخ ٢٤ يوليو قال :

أما أنا فبينت أنه لا ينبغي لفرنسا ان تنتظر من حكومة جلالة الملك تعهداً بالمؤازرة الفعلية لها ولروسيا في حال نشوب الحرب . فليس لبريطانيا العظمى مصلحة ما في الصرب ولا شك ان حرباً كهذه لا تلقى موافقة الرأي العام

وقد أجاب وزير الخارجية الانكليزية على هذه الرسالة في تاريخ ٢٥ يوليو بقوله :

لا أظن الرأي العام يوافق ولا ينبغي له أن يوافق على حرب تدور حول خلاف صربي

ورداً على الحاح السفير الفرنسي في لندن ومساعيه لنيل معونة انكلترا في حال نشوب الحرب قال الوزير الانكليزي بتاريخ ٢٩ يوليو :

لا نرى في الوقت الحاضر ما يسوغ تعرضنا فعلياً بين النمسا والصرب — حتى ولو تفاقت الحال بين النمسا وروسيا . لان المسألة ليست الا مسابقة على النفوذ البلقاني بين التوتون والسلاف . وما برحت سياستنا منذ زمن بعيد تتجنب الدخول في اي حرب تنشأ من مشكلة بلقانية

وبالرغم من مساعي رئيس الجمهورية الفرنسية بنفسه أصرت الحكومة الانكليزية على رفضها . واليك ما كتبه سفير انكلترا في باريس بتاريخ ٣٠ يوليو في هذا الشأن:

يرى رئيس الجمهورية ان النمسا لن تتنزل عن شروطها وهو يعتقد ان الاحتفاظ بالسلم الاوربي موقوف على خطة انكلترا وأنها اذا أعلنت معاونتها لفرنسا في حال نشوب حرب بينها وبين المانيا من جراء المشكلة الصربية فان المانيا تغير خطتها بلا ريب . وقد أبنت له الصعوبات التي تحول دون اتخاذ حكومة جلالته مثل هذه الخطة ولكنه أصر على قوله بانها الوسيلة لحفظ السلم

وقد جاءت المكاتبات المتبادلة بين رئيس الجمهورية وملك انكلترا تؤيد ما قلناه عن نفور انكلترا من الحرب . واليك فقرة من رد الملك وفيه يتخلص بطريقة لطيفة من اجابة طلب الرئيس . قال بتاريخ اول اغسطس :

اني باذل جهدي لوقف التأهبات الحربية التي اتخذتها الدول حتى تتمكن من البحث فيما بينها بهدوء وسكون . . . أما من حيث موقف دولتي فان الحوادث تتقلب بسرعة عظيمة بحيث لم يعد

في الاستطاعة التنبؤ عن الغد . ولكن تأكدوا ان حكومتي ستستمر على مفاوضة المسيو كامبون ( سفير فرنسا في لندن ) بصراحة واخلاص في كل ما له مساس بمصالح الامتين

انه لمن الصعب بعد ما تقدم ان نفهم كيف اقتنعت ألمانيا بأن انكلترا هي التي أرادت الحرب !

٢ — مساعي انكلترا في أوربا لمنع الحرب

وقد سعى السر ادوارد غراي وزير الخارجية الانكليزية سعياً متواصلاً بنفسه و بواسطة سفرائه لمنع الحرب بين الدول . وكانت أول خطوة في هذا السبيل نصح السرب بقبول مطالب النمسا . فقد كتب بتاريخ ٢٤ يوليو :

لا ندري هل تحجم النمسا عن اتخاذ خطة حربية في حال رفض السرب بعض طلباتها . والذي يتراءى لي ان المنفذ الوحيد هو ان تتجنب السرب الرفض البات وان تقبل كل ما يسعها قبوله قبل الاجل المحدود . ولقد بذلت جهدي لدى سفير ألمانيا أن يقنع النمسا بالتمهل قبل تنفيذ خطتها الحربية

وقد سعى جميع السفراء للغرض نفسه . واليك ما كتبه سفير انكلترا في روسيا بتاريخ ٢٩ يوليو :

طلب الي سفير ألمانيا أن أبذل نصائحي لدى وزير الخارجية الروسية حتى أحمله على التساهل فأجبته انني ما زلت أفعل ذلك منذ البدء وأنه قد آن الوقت لسفير ألمانيا في فينا أن يتخذ الموقف نفسه تجاه الحكومة النمسوية . وقد بينت له بوضوح ان روسيا معنية بالامر عناية شديدة وأنه من الصعب تجنب حرب اوربية اذا دخلت النمسا اراضي السرب

ولما رفضت الدول صاحبة الشأن اقتراح الحكومة الانكليزية بعقد مؤتمر لحل المشكلة أعلن الوزير الانكليزي في ٢٩ يوليو استعداده لقبول اي اقتراح لحفظ السلم قال :

رجوت الحكومة الالمانية عندئذ أن تقترح أي اقتراح من شأنه حمل الدول الاربع الكبرى على منع الحرب بين النمسا وروسيا . وكانت فرنسا موافقة على هذا الرأي وايطاليا ايضاً

ولم يقطع الوزير الانكليزي امله بعد اعلان النمسا الحرب على السرب . فقد كتب بتاريخ أول أغسطس يقول :

لا أزال اعتقد انه يستطاع حفظ السلم اذا تمكنا من اتخاذ التدابير اللازمة قبل دخول دولة من الدول الاخرى في الخلاف . وقد أخبرتني الحكومة الروسية ان النمسا أظهرت ميلها الى ارجاع المفاوضات بينها وبين روسيا لقبول أي اقتراح يكون خالياً من الموانع التي احتواها الاقتراح الاول

ولكن سبق السيف العذل !

### ٣ اتهام ألمانيا لانكلترا بخصوص منشأ الحرب

يظهر للقارئ من المقتبسات السالفة درجة النفور الذي كان مستولياً على انكلترا من فكرة الحرب ولكن ألمانيا لم تقتنع بصدق ذلك

ولا شك ان خطب المستشار الالماني في الريشستاغ ولا سيما خطاب آخر اغسطس الذي برهن فيه على ان انكلترا ارادت الحرب هو أفضل مثال على تأثير الاهواء والعوامل الروحانية في حجب الحقيقة . ولسنا نعتقد ان المستشار عمد الى الكذب لانه يعلم جيداً ان كلامه يسجل في التاريخ ولكن هي العوامل النفسية التي دفعته الى ان يقول تلك الاقوال وهو مقتنع بصحتها تمام الاقتناع . وليس من الغريب أن يقتنع بها الشعب الالماني فقد علمنا انه رهين اشارة حكومته . ويكفي ان نرجع الى ذلك الخطاب لنرى كيف ان المستشار اكتفى بايراد اعتقاده وتأكيده بلا برهان منطقي معقول فقد اكد ان « مساعي العدو ليبرهن على مبادرتنا بالعداوة قد سقطت امام الشهادات التي نشرت » وانه « من المؤكد ان المأساة البشرية ما كانت لتحدث لو توفقنا الى الاتفاق مع انكلترا » وان « مداخلة انكلترا بجانب فرنسا في مسئلة مراكش قد برهنت للعالم كيف ان انكلترا ما برحت تهدد السلم العام باجبار الجميع على قبول سياستها » الخ . .

وما كان اصدق المستشار لو عكس الآية وقال ان المانيا هي التي هددت السلم العام لانها ارادت ان تجبر الدول على التسليم بآرائها ومآربها السياسية

# الفصل الثالث

## تحوّل عواطف انكلترا

١ — تحول عواطف الحكومة الانكليزية

رأينا كيف سعت الحكومة الانكليزية لتتجنب الدخول في المشكلة السربية وما بذلته في سبيل حفظ السلم الاوربي . وسندرس الآن الاسباب التي حملت انكلترا المسالمة على الانقلاب في ظرف اسبوع حتى رغبت في الحرب وأعلنتها

ان مرجع هذا الانقلاب كان قصر نظر المانيا ، فان ساستها كانوا قد اقنعوها بان مشاكل انكلترا الداخلية ولا سيما المشكلة الارلندية لن تأذن لها ان تخوض غمار حرب ليس لها فيها مصلحة ولا ترتجي منها نفعاً . فهان على المانيا اذ ذاك ان تخترق البلجيك للوصول الى باريس بسرعـة . هذه هي بلا ريب الخطوة التي جلبت على المانيا عداء انكلترا

في ٣١ يوليو كتب وزير الخارجية الانكليزية رسالة لا يزال في لهجتها أثر للتردد قال :

لا يمكننا أن نتعهد بالدخول في اي حرب يتوقع نشوبها وقد قلت ذلك لسفير فرنسا ولكنه طلب الى حكومة جلالة الملك ان تعيد النظر في المسألة فاجبته انه لا يمكننا ولا يجوز لنا أن نتعهد بشيء في الوقت الحاضر ولكننا سوف ندرس الحالة ثانية حالما يحدث حادث جديد

وبعد ان بين سفير فرنسا للوزير الانكليزي تأثير قرار الحكومة الانكليزية رجع الوزير عن تردده قليلاً ولكنه لم يشأ ان يتعهد بشيء حاسم . فقد كتب بتاريخ ٣١ يوليو أيضاً :

أخبرني المسيو كمبون (سفير فرنسا) اليوم بملخص اشارة تلغرافية وردت من سفير فرنسا في برلين جاء فيها ان تردد الحكومة الانكليزية انما هو كتشجيع للحكومة الالمانية وأنه يكفي ان نعلن انحيازنا الى جهة روسيا وفرنسا حتى تقر المانيا على خطة من شأنها حفظ السلم . . . وقد أخبرت المسيو كمبون ان الوزراء أقروا في جلسة هذا الصباح على رفض التعهد بصورة نهائية في الوقت الحاضر اذ ان من الواجب علينا ان نعرض سياستنا على البرلمان ولا نستطيع ان نضمن

سلفاً ما يقره . وان الاعتقاد سائد بين رجال الحكومة والجمهور باننا غير مرتبطين بتعهد أو اتفاق يجبرنا على التعرض الفعلي . وقد يغير سير الحوادث رأي الحكومة والبرلمان ويحملنا على اتخاذ خطة أخرى . وأخص بالذكر حرمة البلجيك لو مست فقد يكون لها تأثير عظيم — ولا أقول حسم — في تعيين الخطة التي نجري عليها في سياستنا

وقد كرر المسيو كمبون سؤاله عن مؤازرتنا فرنسا في حال هجوم المانيا عليها فاجبته انه لا يسعني ان أزيد شيئاً على ما قلته آنفاً

الا انه بعد رفض سفير المانيا التعهد باحترام حياد البلجيك كتب السر ادوارد غراي بتاريخ اول اغسطس :

قد أخبرت اليوم سفير المانيا ان جواب الحكومة الالمانية بشأن احترام حياد البلجيك يستدعي الاسف الشديد لان الرأي العام في انكلترا يهمه أمر ذلك الحياد . ولو اكدت لنا المانيا احترامه مثل ما فعلت فرنسا لهان انفراج الازمة هنا وزال الارتباك . ولا شك انه لو اخترق أحد المتحاربين الاراضي البلجيكية في حين ان الآخر ظل محافظاً على حرمتها لاصبح من الصعب العسير وقف تيار الشعور العام ضد المعتدي

فنرى من ذلك ان الوزير الانكليزي اخذ يلين وان عزمه الاول على الاحتفاظ بالسلم مهما يكن الحال بدأ يتزعزع . وفي ٢ اغسطس ارسل سفير فرنسا في لندن تلغرافاً الى حكومته قال فيه :

ابلغني السر ادوارد غراي أثر انعقاد مجلس الوزراء في هذا الصباح ما يأتي : « اني مفوض لاعلامكم بانه اذا دخل الاسطول الالماني مياه المانش او قطع بحر الشمال لاتيان عمل حربي على السواحل الفرنسية أو السفن التجارية الفرنسية فان الاسطول البريطاني يقوم بكل ما في استطاعته من الحماية ، غير ان هذا التأكيد موقوف على شرط موافقة البرلمان البريطاني على سياسة الحكومة ولا يجب ان يعتد تعهداً يضطر الحكومة الانكليزية الى ان تأتي عملا ما قبل حدوث الحادث المذكور أي اقدام الاسطول الالماني على عمل حربي »

فنرى ان هذا التأكيد لم يكن الا وعداً بحماية السفن التجارية الفرنسية لا اعلاناً للحرب على المانيا . ولو ظلت الامور على ذلك لتجنبت المانيا اتيان الاعمال الحربية على السواحل أو السفن الفرنسية حتى لا تثير عداوة انكلترا

الا ان عواطف الوزير الانكليزي ما برحت تتطور مع تغير الاحوال السياسية . ففي ٤ اغسطس كتب السفير الانكليزي في بروكسل رسالة الى حكومة البلجيك بناء على التعليمات التي جاءته قال فيها :

قد كلفت ان اخبر الحكومة البلجيكية انه اذا شددت المانيا الضغط حتى تضطر البلجيك الى الخروج

عن حيادها فان حكومة جلالته البريطانية تنتظر من البلجيك ان تقاوم هذا الضغط بكل ما لديها من الوسائل

وحكومة جلالته البريطانية مستعدة في هذه الحال ان تنضم الى روسيا وفرنسا لتقدم الى حكومة البلجيك — اذا رغبت في ذلك — معونتها المشتركة بلا ابطاء لمقاومة التدابير الحربية التي تتخذها المانيا . ولتقدم ضماناتها في الوقت ذاته بخصوص استقلال البلجيك وسلامتها في المستقبل

اذ ذاك اصبح الامر مقضياً ففي التاريخ نفسه ( ٤ اغسطس ) ارسل سفير فرنسا في لندن اشارة تلغرافية طالما انتظرتها الحكومة الفرنسية قال فيها :

دعاني السر ادوارد غراي في هذه الساعة ليخبرني بان رئيس الوزارة الانكليزية سيعلن اليوم في مجلس العموم ان الحكومة الانكليزية قد طلبت الى المانيا ان تسحب الانذار الذي أرسلته الى البلجيك وان تبعث بجوابها في هذا المساء قبل نصف الليل

وقد استولى الذهول على المانيا امام هذا القرار لانها تأكدت حياد انكلترا — ولا سيما ان جيوشها كانت قد اكتسحت البلجيك فلم تستطع الرجوع بعد ذلك . وقد وصف سفير انكلترا في برلين ارتباك المستشار الالماني واضطرابه في رسالته المشهورة التي جاء فيها :

وجدت المستشار في اضطراب شديد

ثم بدأ جنابه في الحال خطبة طويلة دامت عشرين دقيقة تقريباً فقال « ان الخطة التي اتخذتها الحكومة الانكليزية في غاية الغرابة . ألاجل كلمة بسيطة — كلمة « الحياد » التي طالما اهملت في وقت الحرب — لاجل خرقة من الورق ، تقدم انكلترا على محاربة أمة تربطها بها رابطة الجنسية ولا أمنية لها الا صداقتها . ان جميع مساعينا في هذا السبيل قد ذهبت ادراج الرياح ازاء تلك الخطة الغريبة » . فكأن المستشار احس اذ ذاك ان السياسة التي اتبعها منذ تولية منصبه — على ما خبرت بنفسي — قد سقطت دفعة واحدة كأنها بناء من ورق ! ثم قال جنابه بحدة ان العمل الذي اتيناه يفوق التصور بل هو اشبه شيء بمن يهجم من خلف على رجل يخلص حياته ممن يعتدي عليه وانه يلقي على عاتق بريطانيا العظمى تبعة كل الحوادث العظيمة التي يحتمل حدوثها . وقد احتججت على هذه الاقوال بشدة وأجبت قائلاً كما ان جنابه وجناب الهرفون ياكوف ( وزير الخارجية الالمانية ) ارادا ان يقنعاني بان الخطط الحربية تقضي باختراق البلجيك وان حياة المانيا او موتها موقوفان على هذه الخطة فانني ارجو ان يدرك جنابه ان انكلترا تعتبر وفاء وعدها بالدفاع عن حياد البلجيك مسئلة « موت وحياة » كذلك

وقد كررت قولي بانه من الضروري احترام تلك المعاهدة — والا فاي ثقة يستطيع العالم ان يبنيها على عهود انكلترا في المستقبل ؟ ولما هممت بالخروج قال لي ان الصدمة التي وجهتها انكلترا الى المانيا بانضمامها الى العدو يزيدها شدة ان رجال حكومته ما برحوا يعملون بالاشتراك معنا في سبيل التوفيق بين النمسا وروسيا . فاجبت جنابه ان من المحزن ان تشتبك الامتان في الوقت

التي كانت علاقتهما فيه اشد وداً وصداقة مما كانت عليه منذ سنوات

ان تلك الرسالة التاريخية لأفضل دليل على الفرق الشاسع بين مدارك الالماني ومدارك الانكليزي فان « لخرقة الورق » التي ليس لها قيمة في نظر الاول مقاماً رفيعاً في نظر الثاني

٣ — تحول الرأي العام الانكليزي عند نشوب الحرب

رأينا كيف تطورت آراء الوزارة الانكليزية ، وقد صادق على خطتها الملك والبرلمان . بقي أن يتطور الرأي العام النازع الى السكون والذي كان يجهل ما دار بين رجال السياسة ولا يخفى ما للرأي العام من السلطة العظيمة في السياسة الانكليزية ، ولذا كان من المحتم اقناعه واستمالته . وقد تمّ ذلك بفضل الخطب التي ألقاها الوزراء على الجمهور والمقالات التي نشرتها الصحف

ولا شك ان ذلك المسعى لم يكن تحقيقه بالامر الهين فقد كان ينبغي اقناع الرأي العام للدخول في حرب تدور حول دولة صغيرة لا صلة له بها وربما جهل اسمها !

وقد كان يستدعي نجاح هذا المشروع معرفة المزاج العقلي الانكليزي معرفة تامة وطرق التأثير فيه . فان وزراء انكلترا انما نجحوا بضربهم على وتر شرف الامة ومقامها ووجوب احترام معاهداتها لا ببيان المصالح المادية الموقوفة على الحرب . ومعلوم ان السياسة الانكليزية ما برحت منذ القرن الرابع عشر تحافظ على علاقاتها الودية مع الدول الصغيرة صديقات انكلترا اللواتي يقمن حاجزاً بين الدول المتوسطة والجزر البريطانية . وقد ضمنت انكلترا وفقاً لهذه السياسة حياد البلجيك . قال المستر لويد جورج « لو تركناها تنتهك لبقي صدى عارنا يرن مدى الدهور »

ولا يسعنا هنا الا أن ننقل فقرات من خطب وزراء انكلترا في الاجتماعات العمومية واليك ما قاله المستر اسكويث بتاريخ ٤ سبتمبر سنة ١٩١٤ :

اسألكم واسأل العالم أجمع عن موقفنا كأمة لو منعنا الجبن او وحي المصالح المادية أو شال عاطفة الشرف والواجب عن القيام بعهدنا وحملنا على خدع أصدقائنا ؟

بأي وسيلة كنا نبرر مركزنا نحن رجال الحكومة وسائر أهل البلاد أمام محكمة الوجدان الوطني والشرف لو نكثنا عهودنا ولم نبذل ما في وسعنا لمنع تلك الاعمال الشنيعة ، لا بل للانتقام منها

أما فيما يخصني فانني أفضل ان تمحى هذه البلاد التي نسكنها من وجه الارض على ان نقف صامتين، وكأننا بسكوتنا نشجع ارتكاب الجريمة وننصر القوة على الحق والهمجية على الحرية

واليك فقرة من خطاب للمستر لويد جورج بتاريخ ١٩ سبتمبر ١٩١٤ :

لا أظن أحداً ممن في هذه الغرفة نظر الى نشوب حرب كبرى باشمئزاز وكراهية مثلي في اثناء حياتي السياسية كلها . أما الان فلا أظن أحداً في هذه الغرفة أو بعيداً منها أشد اقتناعاً مني بضرورة دخول الحرب صوناً لشرف الوطن

ثم بين الوزير انه على « خرق الورق » تقف حيــاة الامم اليوم ليس من الوجهة السياسية فقط بل من الوجهة التجارية والاقتصادية أيضاً ولا يخفى ان التجارة انما تقوم بالثقة المتبادلة . ثم قال مبيناً الفرق بين ادراك الانكليزي والالماني للشرف :

يدرك الالمان ان الحرب قد تنشب للانتقام أو لامتلاك الاراضي ولكن يتعذر عليهم ان يدركوا كيف ان سلطنة عظيمة تعرض مرافقها الحيوية وقوتها وتخاطر بحياة ابنائها بل بكيانها ووجودها لحماية أمة صغيرة تتخبط في الدفاع عن نفسها

٣ — اثر انتهاك حرمة البلجيك واكتساحها في الرأي العام الانكليزي

قلما تتأثر الجماعات بالبراهين المنطقية وانما تتأثر بالبراهين العاطفية والروحانيــة . فالذي أتمَّ تطور الرأي العام في انكلترا بعد انتهاك حرمة البلجيك كان اتلاف المدن وتخريبها واحراق آثارها وقتل سكانها

والذي جرح الانكليز على الخصوص طرق الخداع والمكر التي اتخذتهــا ألمانيا لاختراق البلجيك : فانه في صباح اليوم الذى دخلت فيه ألمانيا الاراضي البلجيكية كان سفيرها في بروكسل يؤكد احترام دولتــه لحرمة البلجيك . ففي ٢ اغسطس قابل وزير خارجية البلجيك سفير ألمانيا ، قال الوزير نقلاً عن لسان السفير « انه لم يكلف الى الان ان يبلغنا شيئاً بصفة رسمية وانا مع ذلك نعلم رأيه الشخصي بخصوص الامانة التي لنا ان ننتظرها من جيراننا في الشرق » ثم قال :

فأجبتــه فوراً ان كل ما علمناه من مقاصد هؤلاء على ما ظهر في المحادثات السابقــة لا يترك لنا مجالاً للشك في سلوكهم القانوني ازاء البلجيك . وزدت اننا نود بالرغم من ذلك ان نحصل على قرار رسمي من الحكومة الالمانية في هذا المعنى ولا شك ان الامة تستقبله بالفرح والشكر

وفي الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم قدم السفير المتقدم نفسه انذاراً نهائياً

يطلب فيه الاذن بمرور القوى الالمانية على الاراضي البلجيكية

فنرى ان مثل هذا الخداع والخبث مما يقلل ثقة الساسة بعضهم ببعض . ولا يسعنا الا الاعتراف بان آداب الافراد في معاملاتهم الخاصة اسمى من تلك الآداب الدولية . وسنرى ان عدم الثقة بين الدول كان في مقدمة الاسباب المباشرة للحرب

ويعلم الجميع توحش الالمان عند اكتساحهم الاراضي البلجيكية وقتلهم للاهلين ، وهم انما فعلوا ذلك تطبيقاً لمبادئ اركان الحرب الالماني التي ترمي الى الارهاب منعاً للمقاومة

وهنا ايضاً ارتكب الالمان خطأ يدل على قصر نظرهم في الامور النفسية . فان نتيجة اعمالهم بدلاً من ان تمنع مقاومة الاهالي قد جلبت سخط الانكليز وعداءهم حتى تطوع منهم مليونان بمحض اختيارهم

ويذكر الجميع الطريقة الشائنة التي برر بها المستشار اختراق الجيوش الالمانية لارض البلجيك ، فانه اعتمد على نظرية المؤرخين الالمان ( المشروحة فيما تقدم ) التي تجعل الدولة لا تحفل بأي معاهدة تحول دون نيل مرامها وهذا قوله المشهور : « ان الضرورة لا تعرف قانوناً »

# الفصل الرابع

## موقف المانيا والنمسا وروسيا وفرنسا في اثناء المفاوضات

### ١ — مساعي روسيا وفرنسا لمنع الحرب

لم تكن فرنسا وروسيا مستعدتين للحرب . وكانت روسيا قد شرعت تمد خطوطها الحديدية ولكنها لم تنفذ الا اليسير من مشروعها . فلا يعقل اذاً ان احدى هاتين الدولتين ارادت الحرب ، بل ان اعتقاد النمسا قعودهما عن التعرض لها كان كما رأينا باعثاً على استعمالها الشدة والصرامة في بدء المفاوضات

وقد وقعت روسيا ازاء خطة النمسا في حيرة عظيمة . فانها قبل هذه الحوادث بسنوات قليلة تركت النمسا تستولي على البوسنه تجنباً للحرب . ولكنها لو تركتها هذه المرة ايضاً تطأ السرب تحت اقدامها أفلا تفقد مكانتها في البلقان ؟ انها على الرغم من ذلك اظهرت تساهلاً عظيماً الى ان فاجأتها المانيا بطلب يتعذر الاذعان له

وقد ابدت روسيا ميلها الى المسالمة منذ بدء المفاوضات . كتب سفير انكلترا في بطرسبرج بتاريخ ٢٥ يوليو يقول :

لو طلبت السرب تحكيم الدول الاوربية فروسيا مستعدة لان تنسحب وتترك المسألة في أيدي انكلترا وفرنسا وألمانيا وايتاليا

وكتب السفير نفسه ايضاً وكأنه تنبأ بما كان على وشك الحدوث :

ان عمل النمسا موجه في الحقيقة الى روسيا ، فهي تريد السيطرة بنفوذها على دول البلقان . ولا يعتقد المسيو سازونوف ان المانيا تحب الحرب وانما يظن ان موقفها ينجلي اذا رأتنا ( أي الانكليز ) نشد ازر روسيا وفرنسا فلا يبقى خوف من الحرب ويرى اننا اذا لم نفعل كذلك فان الدماء تسيل انهاراً وسوف نرغم على دخول الحرب عاجلاً أو آجلاً

ان صحة هذا النظر تستحق العناية فان رفض انكلترا ايضاح خطتها جعل المانيا تعتمد على حيادها وربما صح ان يعد هذا الاعتقاد من بواعث الحرب . وقد شرح السفير المتقدم بتاريخ ٢٥ يوليو مقاصد روسيا اذ قال :

اجابني جنابه ( أي الوزير ) انه لا يسع روسيا ان تأذن للنمسا بكسر السرب ونيل السيطرة في البلقان . واذا تثبتت روسيا من معونة فرنسا فنها لا تحجم عن المجازفة بالحرب . وقد أكد لي المسيو سازونوف مرة اخرى انه لا يريد التورط في الخلاف ، ولكنني مع ذلك ارى الحالة تستدعي اليأس الا اذا كانت المانيا تقف النمسا عند حدها

ولكن هذه اللهجة الحازمة لم تلبث ان خفت وبدأت روسيا تتساهل حفظاً للسلم . ففي ٢٥ يوليو كتب سفير فرنسا في روسيا يقول :

سيعقد غداً مجلس الوزراء تحت رئاسة القيصر وقد أبدى المسيو سازونوف تساهلاً كبيراً اذ قال لي « يجب ان نتجنب كل ما من شأنه تعجيل الحرب وأرى انه لا ينبغي لنا ان نقف سير المفاوضات حتى في حال تعدي النمسا على السرب »

وبعث بمثل ذلك سفير فرنسا في روما بتاريخ ٢٦ يوليو :

قال المسيو سازونوف أمس لسفير ايتاليا في بطرسبرج ان روسيا ستستخدم كل الوسائل السياسية لمنع الحرب وانها لم تقطع الامل في رجوع النمسا عن صرامتها اذا توسطت لديها احدى الدول . ولكنه لا يستطيع ان يبيح للنمسا سحق السرب

فقد كانت الحكومة الروسية تظهر استعدادها لقبول أي اتفاق تجنباً للحرب . وكتب وزير الخارجية الروسية بتاريخ ٢٧ يوليو :

اذا لم يتيسر لنا الاتفاق مباشرة مع حكومة فينا فانني مستعد لقبول اقتراح انكلترا او أي اقتراح آخر يكون من شأنه حل المشكلة

ولكن لسوء الحظ ان النمسا — التي ما برحت تعتقد ان روسيا لن ترمي بنفسها في الحرب ولا سيما بعد التساهل الذي بدا منها في المفاوضات — أعلنت الحرب على السرب ، فكان ردّ الحكومة الروسية على ذلك انها حشدت جزءاً من جيشها وأعلمت سفيرها في برلين في ٢٨ يوليو بالتدبير الذي اتخذته قالت :

نظراً لاعلان النمسا الحرب على السرب ستذيع الحكومة الامبراطورية غداً ( ٢٩ يوليو ) خبر حشد الجيوش في دوائر اودسا وكياف وموسكو وقازان فالمرجو ابلاغ ذلك الى الحكومة الالمانية مع التأكيد بخلو ذهن روسيا من كل عداوة نحو المانيا

على ان روسيا لم تقطع الامل بالسلم فان وزير خارجيتها كتب في التاريخ نفسه :

من الواضح الجلي ان اعلان النمسا الحرب على السرب قد قطع الامل بتسوية الخلاف مباشرة بين النمسا وروسيا . فمن الضروري جداً الان ان تسعى الوزارة الانكليزية بكل ما في وسعها

وتتوسط لوقف حركات النمسا الحربية في اقرب وقت . وان لم ينتج عن هذا التوسط وقف تلك الحركات فانما يكون قد اجل الشر واباح للنمسا ان تسحق السرب

وعلى أثر التعليمات التي وردت الى سفير روسيا في فينا سعى هذا السفير سعياً جديداً ولكن من غير أن ينجح كما يؤخذ من رسالته بتاريخ ٢٨ يوليو :

. . ان الحكومة النمسوية التي لجأت الى تدابيرها الشديدة ضد السرب بالرغم من ارادتها لم تستطع ان ترجع عنها ولا ان تناقش في شيء من المذكرة التي أرسلتها . وقد زاد الكونت برختولد قوله ان الازمة بلغت درجة من الحدة ليس يتيسور للحكومة معها — حتى ولو شاءت ذلك — ان ترجع عن خطتها ولا سيما ان جواب السرب يدل على عدم اخلاصها الوعد في المستقبل

ولكن الحكومة الروسية لم تشأ قطع الرجاء ففي ٢٩ يوليو كتب سفير فرنسا في بطرسبرج الى باريس :

استطيع الآن ان اؤكد لجنابكم موافقة الحكومة الروسية على كل الاجراءات التي تقترحها فرنسا وانجلترا لصون السلم . وقد ارسل زميلي سفير انجلترا الى دولته تلغرافاً بهذا المعنى نفسه

لكن الحكومة النمسوية ازدادت تصلباً. ولما شعر وزير الخارجية الروسية بتفاقم الخطر علق أمله الاخير على دخول انكلترا في المشكلة . واليك ما بعث به الى سفيره في لندن بتاريخ ٢٩ يوليو :

لم يبق لنا الا ان نوكل الامر الى الحكومة البريطانية لتتخذ الخطة التي تراها مؤدية الى الغرض المطلوب

ومن هذا التاريخ أظهرت المانيا ميلاً قاطعاً للحرب بعد ترددها الطويل . كتب سفير فرنسا في برلين الى حكومته بتاريخ ٣٠ يوليو :

الظاهر ان المسيو سازونوف قد اقتنع على اثر حديث دار بينه وبين كونت بورتالس ( سفير المانيا ) ان المانيا لا تريد ان تنوه في فينا بالكلمة الحاسمة التي يقف عليها السلم في اوربا . وقد احس القيصر ذلك الشعور نفسه من تلغرافات خصوصية تبادلها هو وامبراطور المانيا . ومن جهة اخرى فان اركان الحرب والبحرية الروسية قد تلقوا أخباراً مقلقة عن تدابير جيش المانيا واسطولها وعند ما اخبرني بذلك المسيو سازونوف ذكر لي ان الحكومة الروسية لا تزال تبذل مساعيها في سبيل الاتفاق . وقد كرر قوله « نجدني الى آخر دقيقة مستعداً للمداولة »

وقد أبدى القيصر نفس العناية ففي ٣٠ يوليو أرسل سفير فرنسا في روسيا مجمل محادثة دارت بينه وبين وزير الخارجية الروسية جاء فيه :

ان رغبة القيصر تقولا الشديدة في ملافاة شر الحرب تجعلني اقدم لك اقتراحا جديداً باسمه وهو « اذا اعترفت النمسا بان مشكلتها مع السرب تعني اوربا اجمع وكانت مستعدة ان تحذف من مذكرتها النهائية العبارات التي تصيب استقلال السرب فان روسيا تقف كل تدابيرها العسكرية »

ولكن السيف كان قد سبق العذل فان النمسا لم تتنازل عن شيء وفي ٣١ يوليو كتب سفير انكلترا الى حكومته يقول :

صدرت الاوامر بالحشد العام وقد اتخذ هذا القرار اثر تقرير ورد من سفير روسيا في فينا جاء فيه ان النمسا قررت الا تقبل مداخلة الدول الاوربية وانها بدأت تحشد جيوشها ضد روسيا وضد السرب في آن واحد . وعند روسيا اسباب تحملها على الاعتقاد بان المانيا تستعد استعداداً عسكريا جدياً فلا يمكنها والحالة هذه ان تبيح لسواها ان يسبقها في هذا المضمار

ان العبارة الاخيرة من هذا التلغراف عظيمة الشأن : فان الخوف المتبادل أدى الى التسابق حتى لا تتقدم دولة على أخرى وتكون أشد منهـا تأهباً الى أن أصبح نشوب الحرب أمراً لا مفر منه

على ان المسيو سازونوف وزير الخارجية الروسية اضطر أخيراً أن يقطع كل رجاء وقد أظهر يأسه في محادثة دارت بينه و بين سفير فرنسا أرسل هذا الاخير محملها تلغرافياً لى باريس بتاريخ أول أغسطس :

بين لي المسيو سازونوف قنوطه من نجاح مساعيه دون الحرب وقال انه لم يرفض اقتراحاً ما عرض عليه . فقد قبل اقتراح مؤتمر اربع دول تتوسط في الخلاف واقتراح توسط انجلترا وايتاليا واقتراح تسوية الخلاف مباشرة بين النمسا وروسيا . ولكن في كل هذه الاحوال كان الرفض من جهة المانيا والنمسا اما صريحاً او غير صريح وبذا ذهبت كل المساعي في سبيل السلم ادراج الرياح

قد يقول البعض انه كان في استطاعة روسيا ألا تتعرض للنمسا في خطتها تجاه السرب ولا سيما لانها لم تقاوم ضمّ البوسنه سنة ١٩٠٨ فالجواب ان هذه المسألة مسألة كرامة وشمم وانفة لا يستطيع الحكم فيها من كان غريباً عن ذلك الشعور . ولا شك ان روسيا عدت استيلاء النمسا على السرب أمراً جوهرياً لحياتها ومكانتها حتى خاطرت بنفسها وجرت معها اوربا في الحرب . وقد لخص سفير انكلترا في بطرسبرج نظر روسيا الى هذه المسألة بقوله :

لا تستطيع روسيا السكوت عن استيلاء النمسا على السرب كما ان انجلترا لا تسكت لو استولت المانيا على هولندا

٢ — رغبة ألمانيا في حصر الخلاف وترددها في أمر الحرب

من الصعب أحياناً أن نتمثل بجلاء بواعث الاعمال البشرية حتى ان أصحاب الاعمال أنفسهم كثيراً ما يجهلون تلك البواعث . فلا يسع الباحث والحال هذه الا الاكتفاء بالحدث والتخمين

يؤخذ من المستندات المنشورة الى هذا اليوم ان المانيا لم تشأ الحرب أولاً ولكنها قررتها في الساعة الاخيرة لاسباب سنبينها في فصل آخر . واذا لم تعن بتهدئة غضب النمسا في البدء ولم تسع في ارجاعها عن شدتها فما ذلك الا لاقتناعها بان دول الوفاق الثلاثي لن تتعرض لها بالفعل فاستغنمت المانيا هذه الفرصة لاذلال روسيا بلا حرب كما ذلت عند ضم البوسنه والهرسك

ومتى فهمنا ذلك ادركنا تنبيه ألمانيا على سفرائها بان يلحوا في طلب حصر الخلاف بين النمسا والسرب

واليك ما كتبه المعتمد الانكليزي في برلين بهذا الشأن بتاريخ ٢٢ يوليو :

بالامس لقيت وزير الخارجية فكرر قوله بان حل المشكلة انما يرجع الى النمسا والسرب وحدهما وانه لا ينبغي لدولة اخرى ان تتعرض لهما

وكتب وزير الخارجية الفرنسية في المعنى نفسه بتاريخ ٢٤ يوليو :

قد نبهني سفير المانيا الى الفقرتين الاخيرتين الواردتين في مذكرته قائلاً قبل قراءتهما انهما محور المذكرة واخطر فقراتها . وقد حفظت صورتهما بالحرف وهي :

« ترى الحكومة الالمانية ان المشكلة الحاضرة يجب ان تسوى فيما بين النمسا والسرب وان من مصلحة الدول ان تسعى في حصر الخلاف بين هذين الفريقين

« ان الحكومة الالمانية ترغب رغبة شديدة في حصر الخلاف اذ ان تعرض اي دولة من الدول الاخرى لا بد ان ينشأ منه بفعل المحالفات الدولية نتائج خطيرة جداً »

والذي يتراءى للمنصف ان ألمانيا كانت في ذلك الحين تريد فعلاً حصر الخلاف وقد ذكر معتمد انكلترا في برلين مجمل محادثة له مع الوزير الالماني جاء فيها :

قال لي الوزير انه أخبر روسيا عن رغبة المانيا في تجنب الحرب العامة بكل قوتها وانه سيبذل جهده لمنع تلك المصيبة العظيمة • واذا تفاقم الخطر بين النمسا وروسيا فهو مستعد ان يقبل اقتراحكم بتوسط الدول الاربع في فينا وبطرسبرج حتى يتساهل الفريقان

ويظهر ان ألمانيا كانت تريد ألا تتعرض روسيا للمشكلة كما يؤخذ من رسالة أرسلها وزير الخارجية الفرنسية الى سفرائه بتاريخ ٢٦ يوليو :

جاءني اليوم سفير المانيا يبلغني مذكرة ترمي الى توسط فرنسا لدى روسيا في سبيل السلم وقال ان النمسا قد أعلمت روسيا بانها لا ترمي الى توسيع املاكها أو الى مس سلامة السرب وانما تقصد ان تضمن راحتها وتوطد الامن . فبناء عليه تقف المسئلة على ما تقره روسيا ، فان المانيا تشارك فرنسا في رغبتها السلمية ولها أمل كبير بان فرنسا تبذل نفوذها لتهدئة روسيا

وقد حدث مثل ذلك في لندن ، واليك ما كتبه السر ادوارد غراي بتاريخ ٢٧ يوليو :

أخبرني سفير المانيا ان حكومته قبلت مبدئياً توسط الدول الاربع لدى النمسا وروسيا ولكنها تحفظ لنفسها الحق وهي حليفة النمسا ان تساعدها اذا تعدى عليها أحد . وقد جاءته أيضاً تعليمات ترمي الى حملي على استعمال ما لي من النفوذ في بطرسبرج لحصر الخلاف وتوطيد السلم في أوربا

الا ان المانيا رغم طلبها التوسط لدى روسيا كانت ترى ان المشكلة التي بين النمسا والسرب لا يمكن ان تعرض في حال من الاحوال على محكمة اجنبية تبت في امرها . فقد كتب سفير انكلترا في برلين بتاريخ ٢٧ يوليو :

قال الوزير ان المؤتمر المقترح عقده هو في الحقيقة مجلس تحكيم وان مثل هذا المجلس يتعذر اجتماعه الا على طلب روسيا والنمسا . ولذا فهو يأسف لانه لا يستطيع الموافقة على اقتراحكم رغم رغبته في حفظ السلم

اما النمسا فقد رفضت كل مداخلة اجنبية واليك ما كتبه سفير انكلترا في فينا بتاريخ ٢٨ يوليو :

قال وزير الخارجية ( النمسوية ) بهدوء — ولكن بحزم — انه لا يستطيع قبول أي مجادلة بشأن المذكرة السربية فان الحرب ستعلن اليوم وانه ليكفي برهاناً على عدالة هذه الحرب وضرورتها ما يتصف به الامبراطور من حبه للسلم فضلاً عن ميله ( أي ميل الوزير ) الشخصي . وان هذه المسئلة ينبغي حلها فيما بين الفريقين صاحبي الشأن لا غير

ولكن الحكومة الالمانية ما برحت على الرغم من ذلك تظهر رغبتها في حفظ السلم . وقد كتب سفير انكلترا في برلين بتاريخ ٢٨ يوليو :

ذهبت لزيارة المستشار هذا المساء بناء على دعوته فطلب الي ان ابلغكم رغبته في الاشتراك مع انجلترا لحفظ السلم العام كما حصل في آخر ازمة اوربية . ولكنه لم يستطع قبول اقتراحكم بشأن مؤتمر يجمع ممثلي الدول العظمى ( الاربع ) لانه يعد مثل هذا المؤتمر شبه محكمة عليا تضم دولتين من كل جهة لمحاكمة الدولتين الاخريين . ولكن عدم تمكنه من قبول هذا الاقتراح لا يجوز ان يعد منافياً لرغبته العظيمة في الاشتراك معنا اشتراكاً جدياً . ويمكنكم ان تؤكدوا انه يسعى بكل قواه في فينا وفي بطرسبرج ليحمل هاتين الحكومتين على تسوية المسئلة مباشرة وبصورة ودية

على ان تلك المقاصد الحسنة لم تدم طويلاً فقد كانت المانيا على وشك اتخاذ خطتها الباتة كما يستدل من تلغراف ارسله سفير فرنسا بتاريخ ٢٩ يوليو جاء فيه :

اتى سفير المانيا ليعلم المسيو سازونوف انه اذا لم تقف روسيا تأهباتها الحربية فان الامر يصدر حالاً بحشد الجيش الالماني فاجاب المسيو سازونوف ان الباعث على استعدادات روسيا هو صرامة النمسا وحشدها ثماني اورديات

على ان اللهجة التي استعملها الكونت بورتالس (سفير المانيا) في تبليغ هذا البلاغ قد حملت الحكومة الروسية في هذه الليلة على اصدار الامر بحشد ثلاثة عشر اوردياً للعمل ضد النمسا

الا ان المانيا ظلت مترددة الى تلك الساعة، فقد كتب سفير انكلترا في فينا بتاريخ ٣٠ يوليو :

علم السفير الفرنسي من برلين ان السفير الالماني في فينا قد استلم تعليمات لحث النمسا على ان تتجنب في اعمالها ما من شأنه اضرام الحرب الاوربية . ولكن ما يؤسف عليه ان سفير المانيا نفسه موافق على عواطف العداء للسرب والروس فالامل ضعيف بانه يخلص السعي لتوطيد اركان السلم

قليلة هي المعلومات الواردة في المكاتبات الرسمية بشأن مساعي المانيا لدى النمسا ولم يذكر شيء من هذا القبيل الا في خطاب المستشار الالماني في الريشستاغ في اغسطس سنة ١٩١٥ أي بعد مرور سنة على الحرب اذ قال :

أرسلت اشارة الى المسيو تاشيراشكي بفينا قلت فيها : « ليس في استطاعتنا ان نتطلب من النمسا مداولة السرب وهما في حالة حرب ولكن رفض التداول مع بتروغراد يعد خطأً عظيماً . نعم اننا مستعدون للقيام بما تفرضه علينا محالفتنا ولكن يجب ان نرفض ما يجرنا الى حرب اوربية عامة من جراء اهمال النمسا لنصائحنا » . . . . ان حشد الجيوش الروسية وحده كان الباعث الحقيقي على الحرب

لقد جاء ذلك التعليل متأخراً جداً ولا ريب انه ليس فيه من الحقيقة الا شذرات قليلة — ولله در من قال « لو قالت الحكومات الحق والحق وحده لما كان رجال السياسة بل لما كانت الحروب ايضاً »

فهل يؤخذ مما تقدم ان مداولات المانيا انما كانت ترمي الى كسب الوقت ؟ ان التلغراف التالي الذي ارسله سفير انكلترا في بطرسبرج بتاريخ ٣٠ يوليو يدل على ان هذه الفكرة لم تخطر ببال سفير المانيا . واليك نص التلغراف :

في الساعة الثانية صباحاً قابل سفير المانيا وزير الخارجية للمرة الثانية وعلامات الاضطراب بادية على وجهه لعلمه ان الحرب أصبحت أمراً لا مفر منه فطلب الى المسيو سازونوف ان يقترح أي اقتراح يبلغه الى حكومته ويكون الرجاء الاخير . فكتب المسيو سازونوف العبارة الآتية وسلمها الى السفير « اذا اعترفت النمسا بان مشكلتها مع السرب هي مسألة دولية تعني اوربا اجمع وكانت مستعدة ان تحذف من مذكرتها النهائية العبارات التي تصيب استقلال السرب فان روسيا تقف للحال كل تدابيرها العسكرية »

ولكن الحوادث كانت اسرع من مداولات السياسة وكان حشد الجيوش الالمانية سيعلن قريباً في الجرائد . الا ان التلغراف الذي ارسله سفير فرنسا في برلين بتاريخ ٣٠ يوليو يحمل على الاعتقاد بان المانيا كانت لا تزال تتردد . واليك تلك الرسالة :

يلوح لي انه من المؤكد ان المجلس غير الاعتيادي الذي عقد أمس في بوتسدام بحضور رجال العسكرية وتحت رئاسة الامبراطور قد قرر حشد الجيوش وهذا يعلل الطبعة الخاصة التي اصدرتها اللوكال انزيكر . ولكن بعض التأثيرات (كاعلان انكلترا انها تحفظ لنفسها حق التصرف التام وتبادل التلغرافات بين القيصر وغليوم الثاني) قد وقفت تلك التدابير العظيمة التي اقرها المجلس

ولكن ذلك الوقف لم يدم طويلاً فان الساعة الرهيبة كانت قد دنت . وفي ٢ اغسطس ارسل سفير فرنسا في بطرسبرج تلغرافاً قال فيه :

قد سلم سفير المانيا الى المسيو سازونوف الساعة ٧ والدقيقة ١٠ من مساء امس اعلان الحرب وسيبرح بطرسبرج اليوم

وفي ٣ اغسطس قدم سفير المانيا في باريس البلاغ التالي الى وزارة الخارجية :

لحظت السلطات الالمانية الادارية والعسكرية اعمالاً عدائية قام بها بعض الطيارين الحربيين الفرنسيين على الاراضي الالمانية . ولذا كلفت ولي الشرف ان اخبر جنابكم بان الدولة الالمانية ازاء هذه التعديات تعد نفسها في حالة حرب مع فرنسا من جراء اعمالها هذه

ولا يخفى ان تلك التهم ليست الا حججاً مختلقة ولكن المانيا رأت من المحتم عليها ان تكسر فرنسا قبل ان تستعد روسيا فلم تر بداً من شهر الحرب عليها في الحال

# الفصل الخامس

## أثر عواطف الجماهير في منشأ الحرب

١ — خطورة الرأي العام

قد أصبح للرأي العام شأن عظيم في العصور الحديثة فقلما يجرأ الملوك انفسهم على مقاومته . وقد كان له تأثير محسوس في منشأ الحرب الاوربية وان لم يكن ذلك التأثير ظاهرًا . وما برح سياسيو الدول يحسبون له حساباً كبيرًا ، ولا سيا في انكلترا حيث للرأي العام المقام الاول . وما كان في استطاعة الحكومة الانكليزية ان تدخل الحرب لو لم تقنع الجمهور بضرورتها

وقد ذكرت قبلا ان مهارة رجال السياسة موقوفة على ايجاد بعض العواطف في الجمهور من حب أو بغض أو منافسة ثم نشرها بين جميع الطبقات حتى تصبح قوة عظيمة . وذلك سهل جداً على حكومة المانيا لانقياد الشعب الالماني وتبجيله لها . ومن أثر ذلك ان الالمان جميعاً يعتقدون اليوم ان انكلترا وروسيا قد تآمرتا على المانيا وسوف يبقى هذا الاعتقاد راسخاً في اذهانهم زمناً لا يقل عن خمسين سنة أي بعد انقضاء الجيل الحاضر

تكوّن بغض الالمان الاجماعي لانكلترا وفرنسا باشتراك العوامل التي تؤثر في الجماعات ، ولا سيا نفوذ بعض قادة الجماهير ذوي الارادة الشديدة . وقد كان للصحافة والجمعيات الوطنية والكتب والجامعات قسط وافر في ادراك هذه الغاية

ومع ان الحكومة الالمانية تنزع الى السلم فانها ما برحت تدعم هذه العوامل لانها كانت خير معين يسهل عليها اقناع مجلس الامة بضرورة تقرير الاموال اللازمة للجيش والاسطول . وقد كانت تظن انه متى أصبح لجيشها قوة هائلة لا تعود الدول الاخرى تجسر على منازلته فيكون لالمانيا بذلك القول الفصل من غير ان تلجأ الى الحرب

ولكن الاختبار قد بيّن قصر هذا النظر وبرهن على ان آراء الجماهير متى ثبتت وتوطدت تصبح ذات قوة هائلة يتعذر وقفها حتى على الذين أوجدوها

وقد كان للصحافة الالمانية تأثير كبير في اسمئنة الرأي العام . وطرق اقناع الجماهير متوافرة لدى الصحف نعني التأكيد والتكرار والاستهواء والحظوة . ولا يخفى ان معظم الصحف الالمانية في يد الحكومة ومعامل الذخائر . فكلما احتاجت الحكومة الى المال للانفاق على الجيش أو الاسطول دفعت تلك الصحف الى نشر المقالات الحماسية تبين للجمهور حرج الموقف السياسي ورغبة الفرنسيين في الثأر ونحو ذلك

وكأن الالمان في بدء الحرب لم يحفلوا كثيراً بالرأي العام في البلاد المحايدة . الا انهم لما وجدوا النفور والاشمئزاز قد عمّا تلك البلاد أثر فظائعهم في البلجيك اخذوا يسترضون اهلها ويستميلونهم بعزم وثبات فاسسوا الصحف في الدول المحايدة وبذلوا الاموال الطائلة في هذا السبيل

ولكن عجزهم عن ادراك مزاج الغير جعلهم يتطرفون فيما اذاعوا حتى فقدوا ثقة الجميع

٢ — احزاب الحرب في المانيا

لم يشعر قط الالمان في زمن من الازمنة بميل الى الفرنسيين بل ما برحوا يحسدونهم . وقد زاد نفورهم وكرههم في السنين الاخيرة أثر بعض المشاكل السياسية وعلى الاخص المسألة المراكشية . وقد استغنمت الصحف الالمانية تلك الحوادث لتهييج الرأي العام على فرنسا

واليك فقرة من تقرير ورد في الكتاب الاصفر الفرنسي بهذا الصدد :

كل يوم يزيدنا تأكداً من مبلغ الصدمة التي اصابت عتو الالمان والحقد الذي تأصل في نفوسهم أثر حوادث السنة الماضية فان معاهدة ٤ نوفمبر سنة ١٩١١ ( بين فرنسا والمانيا بشأن مراكش ) قد جلبت الخيبة والاسف على البلاد بأسرها فاصبح الجميع حتى الاشتراكيون ناقمين علينا لانتزاعنا مراكش من ايديهم . . . فالرأي العام الالماني يستكثر علينا ونحن لا نتجاوز الاربعين مليوناً مقامنا تحت الشمس

ولكنه كان لمحبي السلم بينهم حزب كما كان لمحبي الحرب واليك بعض ما جاء في الكتاب الاصفر في هذا الموضوع :

في المانيا مجريان للآراء بخصوص نشوب الحرب : فريق يميل الى السلم ولكنه ضعيف وليس له زعماء محبوبون من الجمهور وهو يعتقد ان الحرب تجر الخراب على المانيا في حين انها تفيد انكلترا . واما الفريق الذي ينزع الى الحرب فيدخل فيه طبقات مختلفة لكل منها اسباب خاصة تحبب اليها الحرب . . .

فمن اولئك من يعتقدون ان الحرب ستنشب حتماً يوماً ما فلا فلامناص لالمانيا ان تسرع في العمل ومنهم من يعتبرونها ضرورية لاسباب اقتصادية اخطرها تكاثر الاهلين والافتقار الى منافذ تجارية . او لاسباب اجتماعية كالاعتقاد بان تحويل الافكار الى المشاكل الخارجية مما يضعف نفوذ العامة والاشتراكيين ويبقي السلطة في ايدي الخاصة .

ومنهم من داخلهم خوف بشأن مستقبل الامبراطورية لاعتقادهم ان الزمان يعمل لفائدة فرنسا

ومنهم من اعماهم كبرياؤهم فظنوا انه من الخطة ان يباحثوا شعبا ضعيفاً كالفرنسيين في حقوقهم وواجباتهم في حين ان لديهم من القوة ما يغنيهم عن هذا البحث ويجعل الحق في جانبهم

ومنهم اصحاب معامل الذخائر الذين لا تروج صناعتهم الا بالحرب الخ . . .

وبالجملة كانت الحرب المقبلة تتراءى للالمان كأنها مبارزة بين فرنسا والمانيا

ان المعلومات المستخلصة من التقرير المتقدم مطابقة للواقع الا انني لا اوافق على الفقرة الاخيرة — أي ان الالمان كانوا ينظرون الى الحرب كأنها براز بين فرنسا والمانيا — والذي اراه ان بغض المانيا لانكلترا وهي مزاحمتها الحقيقية كان أشد وأبلغ من بغضها لفرنسا ، بل ان هذه الاخيرة كانت في مقدمة زبائنها . فمن الطبيعي اذاً ان يُكره المنافس ويسترضى العميل . وقد كانت روسيا في حكم فرنسا من هذا القبيل كما بيّنا سابقاً

ولو كانت محاربة فرنسا موافقة للمصالح الالمانية لاستغنمت فرصاً ملائمةقد سنحت لها وعلى الخصوص اثر الحرب الروسية اليابانيـة اذ كانت روسيا شديدة الارتباك في بلادها . فلا شك ان المنافس الوحيد لالمانيا انما كان انكلترا التي اعترضت سبيل المطامع الالمانية في كل مكان

ولما نشبت الحرب لم يكن قد تمّ انشاء الاسطول الالماني الذي ما برحت المانيـا توجه اليه عنايتها ليضارع الاسطول الانكليزي فلا ريب ان الوقت لم يكن ملائماً لمصلحة المانيا ولذلك لا نرى ما يبعث على القول بانها هي التي أرادتها فهناك في الحقيقة اسباب مختلفة أضرمتها

٣ — عواطف الدول المتحاربة اثناء المفاوضات وعند نشوب الحرب

استقبلت كل من فرنسا وانكلترا التهديد والوعيـد قبل الحرب ثم اعلان الحرب

نفسها كأنها مصائب لا مفر منها . ولم تكن الحال كذلك في الدول الاخرى فانه يؤخذ من الصحف الالمانيـة انها توقعت الحرب بشيء من السرور واليك ما كتبه معتمد فرنسا في بافاريا بتاريخ ١٠ يوليو :

لا ريب في ان الرأي العام يدعم الحكومة في كل مشروع تشرع فيه — حتى ولو ادى الى الحرب . بل ان الرأي العام قد الف فكرة الحرب اثر الحوادث التي حدثت في الشرق في السنتين الاخيرتين "واصبح يحبذها ويعتمدها حلاً مرغوباً فيه للمشاكل السياسية والاقتصادية التي أخذت تتفاقم تدريجاً

وقد أرسل وزير الخارجية الفرنسية الى معتمديه رسالة بتاريخ ٢٦ يوليو بناء على ما بلغه من التعليمات قال فيها :

ان برلين اليوم في شبه ثورة تعصب وطني . وسيرجع الامبراطور تواً الى كيال . ويرى المسيو جول كامبون ( سفير فرنسا في برلين ) ان المانيا تدخل الحرب حالما ترى شيئاً من الاستعداد العسكري في روسيا والارجح انها لا تنتظر حجة للهجوم علينا

وقد تمّ ذلك فعلاً . ولكن يظهر ان اعلان الحرب لم يسبب انفجار سرور بل سبب انفجار غضب . وقد أخبرني المسيو كامبون نفسه ان الالمان من جميع الطبقات اهانوه واهانوا افراد سفارته بأسفل الطرق

اما في النمسا فقد كان السرور عظيماً اثناء المفاوضات وبعدها ولا سيما بين الجنس الالماني . وقد كتب سفير انكلترا بفينا في هذا الصدد :

كان الشعب النمسوي مقتنعاً اقتناعا شديداً بان الحق في جانبه لدرجة انه لم يستطع ان يتصور وجود شعب آخر يعترضه أو يتذرع بحجج النفوذ والسياسة للوقوف في سبيل الثأر لجناية سراياڤو

وكتب وزير الخارجية الفرنسية لسفرائه يقول :

ان أفضل تعليل للحالة هو ان الوزارة النمسوية لما رأت ضغط الصحافة والحزب العسكري سعت ان تنال معظم ما يمكنها نيله من السرب بطريق الوعيد مباشرة وغير مباشرة وهي تعتمد على المانيا لهذا الغرض

وقد بين سفير انكلترا في فينا في عدة تلغرافات فرح الشعب النمسوي وميله الشديد الى محاربة السرب واليك بعض فقراتها :

أصبحت هذه البلاد تتوقع الحرب بسرور عظيم ولا شك ان الشعب يخيب رجاؤه اذا تعرقلت أو تأجلت . وحالما علم الجمهور ان الحكومة لم تقتنع برد السرب وانها قطعت العلاقات بينها وبين

بلغراد أصابه فرح يقرب من الجنون . وظلت الجماهير في الشوارع الى ساعة متأخرة من الليل تغني الاناشيد الحماسية

. . . ولا شك ان الرأي العام كان يعتقد نفسه بين أمرين : أما اخضاع السرب أو توقع استيلائهم على جزء من الامبراطورية النمسوية

فيؤخذ مما تقدم ان تيار الرأي العام كان قوياً جداً ، ولا ريب ان له القسط الاوفر في حمل الحكومة النمسوية على استعمال الحدة والصرامة مع السرب

اما الرأى العام في روسيا فمن الصعب ان نعلم عنه شيئاً لغموضه .وقد جاء ذكره في بعض المكاتبات الرسمية . منها رسالة ارسلها السر ادوارد غراي بتاريخ ٢٣ يوليو أشار فيها الى ان تحديد أجل للمذكرة السربية « مما يهيج الرأي العام في روسيا » — ومنها رسالة ارسلها وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ ٢٦ يوليو جاء فيها « ان الرأي العام الروسي يرى انه يستحيل على روسيا سياسياً وأدبياً ان تترك السرب يسحقون » — ومنها رسالة لسفير فرنسا في برلين بتاريخ ٢٧ يوليو قال فيها انه « لا ينبغي ان ينشأ في روسيا تيار قوي يجر معه كل شيء »

ولكن هذه الاقوال ليست الا فروضاً تتعلق بتكون الرأي العام الروسي . واننا أخبر بما تم من هذا القبيل بعد نشوب الحرب فقد كانت الحماسة عظيمة بين فلاحي الروس واليك ما وصفهم به احد الذين شاهدوهم :

يذهب الفلاحون الى ميدان القتال ممتلئين حماسة وأهل الطبقات العليا على اختلاف نزعاتهم يهتفون لهم عند مرورهم . . .

وقد أيقظت الحرب في أعماق الروح الروسية صفات وميزات ثمينة ربما بقيت في رقدتها لولا سنوح هذه الفرصة — فقد كان الفلاحون لا يشعرون بميل الى شيء سوى المشروبات الروحية أما الآن فقد تغيرت الحال كأن الحرب بينت لهم معنى الحياة أو كأنهم وجدوا في الاستشهاد المقصد الحقيقي من وجودهم . فليس الذهاب الى الحرب عند الروسي الا تقديم نفسه على مذبح التضحية الوطنية

# الفصل السادس

## أثر ارادة الامبراطرة الثلاثة

---

### ١ — ارادة امبراطور النمسا والعوامل النفسية الرئيسية في السياسة النمسوية

قد اتضح لنا من التلغرافات الجافة التي نشرناها في الفصول السابقة شيء عن منشأ الحرب . ولكنها لم تمكنا من فهم أسبابها المباشرة بجلاء فعلينا الآن ان نسعى في ادراكها واستطلاع ما دار في خلد الذين اضرموها

يعتقد الجمهور عادة ان للملوك تأثيراً كبيراً في ايجاد الحوادث العظيمة — كالحرب مثلاً — فينسبها اليهم والحقيقة انه ليس لهم الا تأثير خفيف جداً . نعم ان ارادتهم الوجدانية تقر القرارات في الظاهر ولكنهم ينقادون في الغالب لارادتهم ودوافعهم غير الوجدانية ( او اللاوجدانية ) — أي التي لا يحسون وجودها

ومهما يكن من سلطة الملوك على الارض فانهم يخضعون بلا ريب للعوامل الجماعية التي تؤثر في ذهنهم وتدفعهم الى العمل . ولئن كان في السماء سلطة مطلقة فليس على على الارض سلطة من هذا النوع . فكل انسان — والملك انسان — يخضع لعوامل نفسية اسمى من ارادته . وقد اكد ذلك نابوليون غير مرة

بل ان التاريخ ممتلئ بالاعمال التي أتاها الملوك بالرغم من ارادتهم الشخصية . ففي سنة ١٨٧٠ مثلاً لم يشأ الحرب امبراطور فرنسا ولا ملك بروسيا ولكنها نشبت بالرغم من ارادتهما وما بذلاه لمنعها

قد كان لامبراطور النمسا بين رؤساء الدول الاوربية المقام الاول في منشأ الحرب . والذي يطلع على تاريخ ملكه يرى انه ما برح منذ تولى العرش مكسوراً مغلوباً على امره، وانه سلمي الميل . ولم يتح له طعنه في السن ان يتعرض كثيراً للمفاوضات السياسية التي تقدمت الحرب ولا شك ان معظمها تمّ على يد وزرائه وولي عهده وهم من متوسطي المواهب . والارجح ان البغض الشديد الذي بدا من الشعب النمسوي للصرب حمل

ذلك الامبراطور على قبول حرب [illegible] انها تحدث بين السرب والنمسا

ويرجح البعض [illegible] مركزه هو الذي [illegible] يجعله حامياً فليست الحمية في شيء من طبعه الفطري بل قد أبدى في أول حكمه صرامة واستبداداً عظيمين في حوادث مختلفة . من ذلك انه — اثر بعض القلاقل في بلاد المجر — امر بشنق وقتل نخبة أهلها وأوسعهم شهرة واستولى على املاكهم . وكان من بينهم رئيس مجلس الشيوخ والمحكمة العليا وهو في الثمانين من عمره . زد على ذلك ان صاحبات المقام الرفيع من النساء اللواتي نجون من القتل ضربن بالاسواط في الميادين العمومية

فما هي العوامل النفسية الرئيسية التي أوحت الى رجال السياسة النمسوية ارسال الانذار النهائي الى السرب واتخاذ ذلك الموقف الشديد ؟

اني أرى عاملين جليين : أولهما الرغبة في الظهور بمظهر القوة والعظمة في بدء المشكلة وثانيهما الاحتراز من مقاصد روسيا في الساعة الاخيرة . اما الاول فقد كان الباعث على الانذار النهائي . واما الثاني فقد حدا النمسا الى حشد جميع جيوشها خوفاً من روسيا . وقد أدى ذلك الى حشد جيوش الدول الاخرى

وقد ذكر السفراء في رسائلهم رغبة النمسا في الظهور بمظهر القوة ازاء السرب . كتب سفير انكلترا بتاريخ ٢٣ يوليو يقول :

ان خطورة الموقف ناشئة عن تصميم الحكومة النمسوية المجرية على نيل فوز حاسم يوطد نفوذها في البلقان بعد أن خابت أمانيها مراراً من جراء الحوادث البلقانية الاخيرة

وقد كتب مثل ذلك سفير انكلترا في فينا بتاريخ ٢٨ يوليو اذ قال :

قابلت وزير الخارجية هذا الصباح فاخبرني بأنه لا يسع النمسا تأجيل الاجراءات الحربية ضد السرب وانه مضطر الى رفض كل اقتراح مبني على جواب السرب . وفي نظره ان هذه المسألة تؤثر في مكانة النمسا . . .

ولم يكن احتراز رجال السياسة النمسوية موجهاً الى روسيا وحدها حامية السرب بل انهم احترزوا ايضاً من الدول الاخرى . ولذا اسرعوا — بمعونة المانيا — في اعلان الحرب على أمل ان يمنعوا عقد مؤتمر اوربي يكون كمحكمة عليا يخضعون لقراراتها

على ان النمسا وان ارادت معاقبة السرب فانها بلا ريب لم تشأ حرباً اوربية

عامة — يدلك على ذلك انها حالما رأت الخطب يتفاقم وشعرت ان الحرب العامة على الابواب أظهرت ميلاً عظيماً الى المسالمة والتساهل ، وكانت قد وطأت الاراضي السربية اذ ذاك . واليك ما يؤخذ من المراسلات السياسية في هذا الموضوع

كتب وزير الخارجية الفرنسية الى معتمديه بتاريخ أول اغسطس :

قابل سفير النمسا في بطرسبرج المسيو سازونوف وأخبره ان حكومته تقبل المداولة في موضوع الانذار النهائي المرسل الى السرب فسر الوزير من هذا الخبر واقترح ان تدور المفاوضات في لندن وأن تشترك فيها الدول الاخرى»

واليك ما قاله وزير الخارجية الانكليزية بالتاريخ نفسه :

بلغني من مصدر وثيق ان الحكومة النمسوية — بالرغم من التأهبات الروسية — قد اخبرت المانيا بقبولها لاقتراحي التوسط بينها وبين السرب رغبة منها في اظهار تقديرها لمساعي انجلترا في سبيل الصلح

ونتيجة هذا القبول هي بالطبع ان تكمل النمسا موقتاً اجراءاتها الحربية ضد السرب وان تطلب حكومة جلالته البريطانية الى الحكومة الروسية وقف تأهباتها ضد النمسا

ولكن المانيا لسوء الحظ غيرت خطتها في الساعة الاخيرة لاسباب سنسعى في بيانها بعد . وقد كتب سفير انكلترا في فينا بهذ الشأن :

ان انتقال موضوع الخلاف مما بين النمسا وروسيا الى ما بين المانيا وروسيا زاد المسألة خطورة وقطع المفاوضات الدائرة في بطرسبرج وفينا للتوفيق بين النمسا وروسيا

وقد أرسلت المانيا انذارين متتابعين بتاريخ ٣١ يوليو الى بطرسبرج وباريس وهما موضوعان في قالب لا يحتمل الا جواباً واحداً . ثم انها شهرت الحرب على روسيا في أول أغسطس وعلى فرنسا في ٣ منه . والارجح انه لو تأخرت المفاوضات بضعة أيام لما نشبت هذه المأساة التي تعد من اكبر مصائب التاريخ

٢ — ارادة امبراطور روسيا والعوامل النفسية الرئيسية في السياسة الروسية

لا شك ان قيصر روسيا هو أوسع ملوك اوربا نفوذاً وسلطة . ولكن سلوكه مع ذلك يؤيد ما قلناه سابقاً من ان الملوك يضطرون الى اتيان اعمال لا يريدونها . فان هذا الامبراطور ما برح منذ تولى العرش يعمل اعمالاً مخالفة لرغائبه

فالقيصر ميال بطبعه الى السلم وقد حلم في أول عهده بتوطيد السلم العام بين الدول الاوربية وسعى لذلك بعقد مؤتمر لاهاي الاول ولكن التاريخ لا يعرف عهداً اصاب روسيا فيه من الحروب العظيمة مثل ما أصابها في عهد نقولا الثاني

ان غاية ما في وسع صاحب السلطان اليوم ان يوجه مجاري الحوادث الى الجهة التي يراها أشد ملاءمة من سواها وليس في استطاعته ان يخلق الحوادث

تدل التلغرافات الرسمية دلالة قاطعة على رغبة القيصر في حجب الدماء ومساعيه في هذا السبيل . فما الذي حمله اذاً على دخول الحرب ؟

انما حمله على ذلك عوامل نفسية مشابهة كل الشبه للعوامل التي دفعت النمسا الى الحرب نعني : الرغبة في الظهور بمظهر القوة والعظمة حفظاً لكرامة دولته ، والاحتراز من مقاصد جار قوي

ما برحت روسيا حامية الشعوب البلقانية السلافية وقد نشب غير خلاف في التاريخ الاوربي من جراء هذه الحماية . ورب معترض يقول قد كان في استطاعة روسيا ألا تتعرض للخلاف قام بين النمسا والسرب . فالجواب ان هذه المسألة ترجع الى الانفة القومية والشعور الوطني ( كما تقدم ) وليس من شأن غريب عن هذه العواطف ان يدرك قدرها

زد على ذلك ان تأهبات النمسا العظيمة لم تكن موجهة الى السرب ( اذ ان الجيش العامل كان كافياً لهذا الغرض ) وانما اتخذت احترازاً من روسيا

فتلك التأهبات هي التي حملت روسيا على مقابلتها بمثلها ومن ثم نشأت الحرب . واليك ما ورد في المكاتبات الرسمية بهذا الشأن

كتب سفير انكلترا في روسيا بتاريخ ٢٩ يوليو :

لو لم تبين روسيا قصدها جلياً وتحشد جيشها لاستغنمت النمسا اميالها السلمية واستفادت من الحوادث بقدر ما تشاء

وكتب ايضاً سفير فرنسا في روسيا بالتاريخ ذاته :

قد اتضح لاركان حرب الجيش الروسي ان النمسا أخذت تعجل تدابيرها الحربية على حدود غاليسيا . ولذلك سيصدر في هذه الليلة أمر بحشد ١٣ اوردياً من الجيوش الروسية في الجهات المتاخمة للنمسا

ولكن بالرغم من هذا التأهب لم يظهر من روسيا ميل الى التعدي ، بل انها اكتفت في الساعة الاخيرة بان تتعهد لها النمسا بحفظ استقلال السرب

وقد كتب سفير انكلترا بفينا في اول اغسطس :

تكتفي روسيا في الوقت الحاضر ـ على ما قاله سفيرها ـ بتعهد يضمن سلامة السرب واستقلالها وقد أكد لي انه ليس لروسيا مقاصد عدائية ضد النمسا وقال انه سيبين اليوم ـ مرة أخرى ـ لوزارة الخارجية ( النمسوية ) النتائج الرهيبة التي تتبع حتماً رفض هذا الطلب الطفيف

٣ — ارادة امبراطور المانيا والعوامل التي حملته على اقرار الحرب

قد جرب غير واحد من العلماء ان يدرس اخلاق امبراطور المانيا وأطواره . اما نحن فسنقتصر من هذا البحث على العوامل التي دفعته في الساعة الاخيرة الى اعلان الحرب

لا شك ان امبراطور المانيا كان محباً للسلم رغم سعيه المتواصل لاعداد جيشه . فانما كان المقصد من ذلك في نظره دفع تعدي أي دولة من الدول الاخرى . ويكفي للاقتناع بحبه للسلم ان نرجع الى الخمس والعشرين سنة التي مضت منذ توليه العرش فنرى كيف سوّى بالطرق السلمية عدة مشاكل . ولم ينكر ذلك سفير فرنسا في برلين فقد جاء في احد تقاريره :

قد أخذ الامبراطور يألف بعض الافكار التي طالما أظهر نفوره منها ولذا وجب علينا ان نحفظ « بارودنا جافاً » ـ على ما تعود ان يقول الامبراطور

ويمتاز امبراطور المانيا بشدة الاندفاع وحرارة التدين والاعتداد بالرأي . وقد كان يعتقد حقيقة ان الله اصطفاه من بين الناس وميزه عن سواه وكثيراً ما كرر اعتقاده هذا في خطبه ومكاتباته . وعند نشوب الحرب نشر اعلاناً على جنوده جاء فيه :

اذكروا ان الشعب الالماني هو الشعب المختار من الله . وأن روح الله قد هبطت الي وانا امبراطور الالمان . فانا آلته وسيفه وحاميه . ويل للعاصين ! ويل للجبناء ! ويل للجاحدين !

وقد علق المستر لويد جورج الوزير الانكليزي على هذه الكلمات بقوله :

لم يسمع الناس شيئاً في هذا المعنى من زمن بعيد . ولا شك ان الاختلال العقلي يستدعي الاسف والحزن في جميع الاحوال ولكنه يجر عواقب وخيمة اذا اصيب به رئيس احدى الدول

اما نحن فلا نسمي ما أصيب به الامبراطور جنوناً بل نسميه احتداد الشعور الروحاني

ولكي ندرك منشأ الحرب في ذهن الامبراطور نلاحظ انه كان كثير التهديد والوعيد بالرغم من ميله السلمي ، وطالما ردد في خطبه عبارات « السيف المشحوذ » والبارود الجاف » الخ ، وانه ذهب بنفسه الى مراكش والاستانة وفلسطين باسطاً

حمايته على الجميع ، وكان حيثما ذهب يخطب ويهدد ويتوعد . والجملة انه أراد ان يخشاه الجميع واعتقد ان جيشه العظيم يتيح له ان يسيطر بالفعل على اوربا من غير ان يضطر الى سفك الدماء

ولا يسع المتأمل الا الاعتراف بان خطته هذه نجحت زمناً طويلاً اذ نالته معظم ما طلب . مثال ذلك تأخر فرنسا في مراكش ، وعلى الاخص سكوت روسيا عند استيلاء النمسا على البوسنه والهرسك بالرغم من الاتفاقات

فلما اضطربت الحالة السياسية قبيل الحرب لم يخطر بباله ان تلك الطريقة التي ما برحت تنيله مرغوبه منذ تولى العرش تفشل في هذه المرة ولا سيما مع اعتقاده بضعف فرنسا وروسيا وقعودهما عن الحرب ، فضلا عما يشغل انكلترا اذ ذاك من المشكلة الارلندية

فلا غرابة اذاً ان يرفض انعقاد مؤتمر لا ينتظر منه الا القرارات الفاسدة التي لا ترضي احداً ، فضلاً عن انه يمنع النمسا من الثأر لولي عهدها

فما هي اذاً تلك البواعث التي دفعته الى الحرب وهو كما قلنا يرغب في السلم ويعلم ان الحرب ليست من مصلحته ؟

يظهر لي انه وافق على الحرب في الساعة الاخيرة لاسباب عسكرية سأبينها فيما يلي . ولكي نفهم تلك الاسباب ينبغي ان نعلم ما لميعاد حشد الجيوش والسبق في هذا المضمار من الخطورة العظيمة . فان هذه المسابقة . في نظري كانت الدافع المشؤوم الى طريق الخراب

وقد ورد ذكر هذا العامل العظيم في التلغرافات الرسمية الآتية . وهي تدل على ان الدول باتت في آخر ساعة كأنها في سباق يفوز فيه من يتقدم مناظره ويغنم وقته

وقد كانت النمسا البادئة في هـذا السباق وتبعتها روسيا في الحال { كتب سفير فرنسا في روسيا بتاريخ ٣١ يوليو :

نظراً للحشد العام في النمسا وللتدابير الحربية السرية التي اتخذتها المانيا منذ ستة أيام قد صدر الامر بحشد الجيوش الروسية . فانه لا يسع روسيا ان تدع تلك الدول تسبقها

وكتب سفير انكلترا في برلين بتاريخ ٣١ يوليو أثر محادثة مع المستشار ما يأتي :

أخبرني المستشار ان حشد الجيوش الروسية ضد النمسا قد احبط مساعيه لدى حكومة فينا

في سبيل التساهل والسلام . وزاد على ذلك انه لا يستطيع ان يترك بلاده من غير استعداد في حين ان الدول الاخرى تستخدم ذلك الوقت لتأهباتها . وقال انه اذا كانت روسيا تتخذ التدابير ضد المانيا ـ بناء على ما جاءه من الاستعلامات ـ فانه لا يسعه السكوت ...

اما روسيا فقد تنصلت من تبعة الاسراع في حشد جيوشها . كتب سفير انكلترا في باريس بهذا الشأن في اول اغسطس :

وقد بينا لجنابه ( اي لسفير المانيا ) ان الامر بحشد الجنود الروسية لم يصدر الا بعد صدور امر النمسا بالحشد العام وان روسيا مستعدة لتسريح جيوشها حالما تفعل الدول الاخرى

وقد بلغ خوف المانيا من حشد روسيا جنودها مبلغاً عظيماً حتى انها ارسلت اليها انذاراً نهائياً ( في ٣١ يوليو ) لم يكن يحتمل الا الرفض اذ طلبت اليها ان تسرح جيوشها في اثنتي عشر ساعة

ولـكن قبل اشتداد الحال الى هذه الدرجة كان امبراطور المانيـا قد بذل مساعيه شخصياً لدى قيصر روسيا لحمله على وقف الحشد مما دل على تخوفه من نتائج ذلك الحشد ورغبته في حفظ السلم . واليك فقرات من تلك المكاتبة بتاريخ ٢٨ يوليه :

علمت بمزيد القلق ما كان لتقدم النمسا نحو بلاد السرب من التأثير في بلادك . ان الحركة العدائية التي ما برحت تنتشر في السرب منذ سنوات قد ادت الى الجناية الفظيعة التي ذهب ولي العهد فرنسوا فرديننـد ضحية لها . ولم يغرب عن بالي الصعوبة التي تعترضك انت وحكومتك دون مقاومة الرأي العام . وسأبذل جهدي ونفوذي لدى النمسا لحملها على الاتفاق مع روسيا باخلاص وانصاف اكراماً لذكرى الصداقة القلبية التي تربطنا وثيقاً منذ زمن بعيد . واني معتمد على مساعدتك للتغلب على جميع الصعوبات التي يحتمل ان تنشأ

فأجاب القيصر شاكراً . وفي ٢٩ يوليو ارسل امبراطور المانيا تلغرافاً آخر قال فيه :

ان اتخاذ روسيا التدابير العسكرية يعد في عين النمسا تهديداً قد يؤدي الى تعجيل المصيبة التي نسعى معاً في تجنبها فضلاً عن كونه يجعل توسطي مستحيلاً

وفي ٣٠ يوليو الساعة الاولى صباحاً ارسل الامبراطور كتاباً آخر قال فيه :

قد كلف سفيري ان ينبه حكومتك الى الاخطار والنتائج الوخيمة التي تنشأ عن حشد الجيوش الروسية . وكنت قد نلت لك ذلك في تلغرافي الاخير . ان النمسا لم تحشد جيوشها الا ضد السرب فضلاً عن كونها لم تحشد الا قسماً من جيوشها . واذا كانت روسيا على ما جاء في رسالتك وفي بلاغ حكومتك تحشد جيوشها ضد النمسا فان التوسط الذي كلفتنيه مودة والذي قبلته اجابة لطلبك يتعذر ان لم اقل يستحيل . ان على اكتافك اليوم عبئاً ثقيلاً اذ ان السلم او الحرب موقوفان على قرارك

فاجاب القيصر في ٣٠ يوليو في منتصف الساعة الثانية بعد الظهر :

ان التدابير العسكرية التي تنفذ الآن قد اتخذناها منذ خمسة ايام اثر تأهبات النمسا بقصد الدفاع فقط . واني اؤمل من صميم فؤادي الا تؤثر هذه التدابير في وساطتك التي اقدرها حق قدرها

وفي ٣١ يوليو الساعة الثانية بعد الظهر ارسل الامبراطور كتابه الاخير وقد جاء فيه :

لقد سعيت في التوفيق بين حكومتك والحكومة النمسوية المجرية . ولكني بينما كنت اسعى ذلك المسعى اذا بجيوشك تحشد ضد حليفتي . فاصبحت وساطتي من جراء ذلك غير مجدية كما اخبرتك من قبل . وبالرغم من ذلك واصلت عملي

وقد وصلتني الآن اخبار جديرة بالثقة تنبئني بالاستعدادات الجدية التي تجري على حدودي الشرقية ولذا تراني مضطراً حفظاً لسلامة بلادي ان اتخذ نفس التدابير الدفاعية

لقد ذهبت الى اقصى ما في وسعي رغبة في توطيد السلم فلست اذاً بالذي يتحمل مسؤولية الرزء العظيم الذي يهدد العالم المتمدين اجمع

ولا يزال في استطاعتك الآن أن تقف تلك المصيبة ما دامت سلامة روسيا وشرفها غير مهددين الآن وفي استطاعتها انتظار نتيجة وساطتي

وقد بقي هذا التلغراف بلا رد . ففي اليوم ذاته ارسلت المانيا الى روسيا تطلب تسريح جيوشها في ظرف ١٢ ساعة ، وكأنها بذلك قد شهرت الحرب

ولم تكن حركات امبراطور المانيا عقب اعلان الحرب حركات من نجح في مكيدة دبرها بل انه كان بلا شك متألماً من وقوع تلك الصاعقة . ويكفي برهاناً على ذلك المعاملة السيئة التي عومل بها سفير فرنسا في المانيا عند خروجه منها كما ذكرنا سابقاً ، مما يدل على ان غضب الامبراطور كان شديداً عند ما رأى نفسه مورطاً في حرب لم يشتهيها

ولكن ذلك لا يكفي لتعليل الانذار الذي ارسل الى روسيا اذ لم يكن ثمت ضرورة تقضي به . فما الذي حمل الامبراطور في تلك الساعة على اعلان الحرب ؟ انه لم يلجأ الى هذه الخطة الا خوفاً من ضياع وقت ثمين حتى لا تسبقه دولة اخرى . وهذا الزعم لا يصح الا على فرض ان لسرعة الحشد خطورة عظيمة للجيش الالماني ، وهو الحق الذي لا مرية فيه

فان اركان حرب الجيش الالماني كان يعلم يقيناً ان حشد الجيش الفرنسي يستدعي عشرين يوماً وان حشد الجيش الروسي يستغرق نحو الشهرين . فرأى انه يمكنه سحق

فرنسا اولاً ثم يلتفت الى روسيا فيصعقها قبل ان تتم تأهبها وذلك بفضل استعداد الجيش الالماني ووفرة الذخيرة ووسائل النقل لديه . فيتبين من ذلك ان اطالة المفاوضات كانت تتيح لروسيا التأهب فتضطر المانيا الى محاربة العدوين في آن واحد . وهو ما ارادت ملافته بارسالها ذلك الانذار فجأة .

٤ — العوامل المختلفة التي يحتمل ان تكون قد اثرت
في ارادة امبراطور المانيا اللاوجدانية

بجانب تلك المفترضات الحربية التي قدمناها لا يستبعد ان تكون هناك عوامل خفية اثرت في آراء الامبراطور اللاوجدانية وحملته على استلال سيفه . فمن ذلك ان حظوة الامبراطور الميال الى السلم كانت تتناقص في اعين الجمهور بينما حظوة ولي عهده النزاع الى الحرب كانت تتزايد تدريجاً . زد على ذلك تحريض اصحاب الدعوة الجرمانية ولاسيما ان جميع القرائن كانت تدل على ان ذلك الوقت كان ملائماً لتحقيق فكرة السيطرة على العالم ، وقد لا يتسنى ذلك بعد بضع سنوات اذ تكون روسيا قد اكملت خطوطها الحديدية واستعدت للطوارئ

فقد كان لهذه العوامل على الاجمال اثر في توجيه ارادة الامبراطور

# الفصل السابع

## النتيجة . من اراد الحرب ؟

---

### ١ — خلاصة الحوادث التي ادت الى الحرب

يجدر بي بعد التفاصيل والاستشهادات السابقة ان اجمل الحوادث المباشرة التي ادت الى الحرب فاقول :

عزمت النمسا على الانتقام لمقتل ولي العهد وارادت ان تستغنم تلك الفرصة لترفع مقامها في البلقان بعد ما انتابه من الضعة اثر الحربين البلقانيتين . فارسلت الى السرب انذاراً نهائياً لا تستطيع قبوله دولة مستقلة ، وانما قصدت النمسا ان تتذرع برفضه المنتظر لشهر الحرب

ووفقاً للظاهر لم يكن قط في المسألة شيء من المخاطرة : فمن جهة كانت النمسا على ثقة من مساعدة المانيا لها ، ومن جهة أخرى كانت تعتقد بناء على تقارير السفراء — وهذه نقطة خطيرة جداً — ان روسيا و بالاجدر فرنسا تلزمان الحياد بسبب تحزبهما الداخلي وضعفهما العسكري . وكما ان روسيا لم تبد ساكناً أثر انضمام البوسنه والهرسك فقد كانت النمسا تتوقع الجمود نفسه في هذه المرة اذ لم يجد ما يحملها على تغيير خطتها . اما انكلترا فقد كانت على ابواب الحرب الداخلية في ارلندا فكيف تتعرض لمسئلة ليس لها مساس بمصالحها ؟

زد على ذلك ان حرباً ضد السرب لا بد انها تنتهي بضمها الى النمسا مما يرفع مقامها عند السلاف ، وقد كانت في حاجة الى مثل هذا الفوز بعد هبوط نفوذها

اما المانيا فلم تكن ترتجي ربحاً مادياً من المسئلة السربية وانما توقعت ربحاً معنوياً اذ تبين لاوربا سلطتها المتزايدة وقوتها العظيمة . وقد ظنت ان ذلك لا يكلفها الا السعي وراء منع اوربا ان تتعرض للخلاف الذي بين النمسا والسرب ، وقد بذلت جهدها في هذا السبيل

ولكن فات رجال السياسة ان يدخلوا في ذلك الحساب العوامل العاطفية والروحانية والجماعية التي تؤثر في كل حادث تاريخي ، ولكل منها قياس خاص يختلف عن القياس المنطقي المعروف . فات رجال السياسة ان روسيا كانت في حاجة شديدة الى اعلاء شأنها ولا سيما بعد ان ذلت للنمسا في احوال شبيهة بتلك الاحوال

ان قصر نظر النمسا الذي جعلها تعتمد على حياد روسيا كان بلا ريب سبب الحرب الحقيقي

فهذا الخطأ — أي الاعتقاد بان روسيا وسائر الدول لن تتعرض في الخلاف — هو بدء سلسلة الحوادث التي ادت الى المأساة الحاضرة . فان المانيا والنمسا استعملتا الوقاحة والغطرسة لتخويف روسيا ، ولما كانت هذه ترغب في تجنب الحرب اقترحت تسوية المشكل . فما كان هذا المسعى الا ليزيد اعداءها اعتقاداً بان لا خوف من نشوب حرب عامة ، فازدادت لهجتهم شدة وتصلباً وأخيراً اعتقدت النمسا أن في وسعها شهر الحرب على السرب دون أن تخشى على نفسها سوءاً . والحقيقة انها كانت قصيرة النظر في اتخاذ تلك الخطة لانها لم تبق لها منفسحاً للرجوع عن الحرب في حال تعرض الدول الاوربية . فلما رأت المانيا والنمسا ان تصلبهما سيجر حرباً أوربية اظهرتا شيئاً من التسامح وبذلتا كل ما في وسعهما لمنع البلاء . ولكن الامر كان مقضياً وعبثاً حاول امبراطور المانيا ارسال التلغرافات الى قيصر روسيا . ان الرجال الذين ما برحوا الى تلك الساعة يسيرون الحوادث اصبحوا اذ ذاك مسيرين طوعاً لها

وبعد ان كان دافع الدول اولاً الرغبة في حفظ مقامها واعلاء شأنها تحول في الساعة الاخيرة الى شعور آخر استولى عليها جميعاً وهو احتراز كل دولة من جارتها والسعي في سبقها . وكان من نتيجة هذا الشعور انه عجل في حشد الجيوش حتى لا يؤخذ فريق على غرة — ولا يخفى ما لسرعة الحشد من الشأن في أول الحروب

وقد كانت النمسا هي البادئة بالحشد ، فانها حشدت كل جيوشها في حين أن جيشها العامل وحده كان كافياً لمحاربة السرب . فلم يسع روسيا الا الاعتقاد بان هذا الحشد موجه اليها

فحشدت هي جيشها حتى لا تؤخذ على غرة ايضاً . وعند ذلك دخلت المانيا

في الميدان ولكي لا تسبقها روسيا انذرتها بصيغة الامر ان تسرح جيوشها للحال فلم يستطع القيصر الخضوع لمثل هذه اللهجة فنزلت الصاعقة

واضطرت فرنسا أن تؤازر حليفتها رغم رغبتها الشديدة في السلم . اما انكلترا فانها لم تشأ في البدء دخول الميدان ولكنها اجبرت على ذلك اثر خطأ ارتكبه الالمان يدل على قصر نظرهم في المسائل النفسية — نعني انتهاكهم حرمة البلجيك . فهاج عليهم الرأي العام في انكلترا . وقد كان في وسع الجيش الالماني الاكتفاء باختراق لكسمبرج بل ان هذه الخطة كانت تكسبه وقتاً ثميناً ضاع في دك الحصون البلجيكية

٢ — كيف نجيب على هذا السؤال : من ذا الذي اراد الحرب ؟

لا نكون مغالين اذا أجبنا بانه لم يشأها أحد

نعم لم يشأها أحد ، ولكن امبراطور المانيا هو الذي أعلنها فهو المسؤول عنها في نظر التاريخ . وانما يعنينا الآن ان نبين من الوجهة النفسانية كيف لم يشأها

كنت اعتقد قبل درس المستندات الرسمية ان المانيا انما تذرعت بحجة تافهة لشهر حرب تمناها مجارياً في ذلك الرأي المشهور في فرنسا بين العامة والخاصة

ولكني رغم قبول هذا الرأي كانت تعترضني بعض الافكار : نعم ان الحرب بين المانيا وانكلترا كانت امرًا منتظرًا عاجلا أو آجلاً ولكن ما مصلحة المانيا في محاربة فرنسا وروسيا وهما أفضل عملائها وزبائنها ، وقد سنحت لها فرص افضل من تلك الفرصة ولا سيما اثر انكسار روسيا في الحرب اليابانية . فبعد ان أنعمت النظر في الامر توصلت الى هذه النتيجة وهي ان المانيا — وان تكن قد أعدت الاذهان للحرب باستعدادها العظيم المتواصل — الا انها لم تشأ الحرب في الوقت الذي نشبت فيه

وبقطع النظر عن الاستشهادات التي ذكرناها قبل فان هناك ادلة كثيرة تؤيد هذا الرأي

فمن ذلك تلغرافات امبراطور المانيا للقيصر وفيها يطلب وقف تأهبات روسيا لئلا يضطر هو الى مقابلتها بمثلها حتى لا يؤخذ على حين غرة

ولو كان امبراطور المانيا عازماً على الحرب منذ البدء لما لجأ الى حيلة كهذه . فلا شك انه أخلص القول في رسائله . وبما ان الاولى من تلك الرسائل قد كتبت قبل اعلان الحرب بثلاثة ايام فيلوح لي انه لم يكن مقراً على الحرب اذ ذاك وانه كان يسعى فعلاً لقمعها

ويؤيد رأينا أيضاً ما ظهر على سفير المانيا في روسيا من اشتداد الغضب والخوف لما رأى تفاقم الخطر على ما جاء في رسالة سفير انكلترا التي نشرناها سابقاً ، فانه لا يعقل ان تصدر هذه الحركات من سفير جاءته التعليمات بالحض على الحرب

ومن هذا القبيل ايضاً ما بدا على وزير الخارجية الالمانية من الاستهجان في حديث دار بينه وبين سفير انكلترا . فكيف نعلل اتفاق الوزير والسفير فيما بدا عليهما من القلق والارتباك ، اذ لا يحتمل ان يكونا متفقين في تمثيل هذا الدور ، فضلاً عن انه لم يكن ثمت داع للاحتيال

زد على ذلك انه في ٢٦ يوليو كان الاسطول الالماني — وفقاً لما ذكره اميرال فرنسي في احدى المجلات — بعيداً عن موانئه وانه ما كان ليتمكن من تجديد مؤونته ووقوده لو اعترضه الاسطول الانكليزي

قد تبين لنا مما تقدم ان امبراطور المانيا لم يكن راغباً في الحرب ولكن بقي الحادث الراهن انه هو الذي اعلنها . فلماذا فعل ذلك ؟ قد شرحت في الفصل السابق كيف ان حلقات التحرز والتخوف ادت الى اعلان الحرب ولا سيما ان خطة اركان الحرب الالماني كانت موقوفة على السرعة في العمل . فبالرغم من ان الامبراطور والقيصر كليهما لم يكونا راغبين في الحرب فان احترازهما المتبادل جرهما اليها

فيجوز لنا اذاً ان نجيب على سؤال « من اراد الحرب » بقولنا « لم يردها احد » ولكن اذا سئلنا « ما هي الاسباب التي باشرت الحرب » وجب علينا ان نجيب « انما هي تخوف الامبراطرة الثلاثة واحترازهم المتبادل » وكان اشدهم تحرزاً وسوء ظن امبراطور المانيا . ولذا كان هو الذي اعلن الحرب وعليه تقع تبعتها

وهو المسؤول أيضاً عما اتاه جنوده من التخريب والقتل في لوفان وريمس وايبرس وغيرها . فما كان ليجسر قائد من قواده على اباحة تلك الاعمال الفظيعة من غير اذنه — تلك هي وصمة العار التي تلتصق به الى الابد !

ان التحليل النفساني المتقدم مفيد من الوجهة العلمية اذ يبين لنا كيف تنشأ الدوافع التي تحرك الناس ولكنه ضئيل الفائدة في تعليل منشأ الحرب — فان الاسباب البعيدة ما برحت تتراكم شيئاً فشيئاً حتى أصبح انفجارها منتظراً بين الساعة والاخرى وليس من الجوهري ان نعرف مصدر الشرارة التي سببت ذلك الانفجار

# الفصل الثامن

## الآراء المتداولة في المانيا وغيرها عن اسباب الحرب

### ١ — الاساس النفساني للآراء المتعلقة بالحرب

أخذ العجب من معظم المحايدين مأخذاً عظيماً لما سمعوا الآراء الغريبة التي أبداها بعض الكتاب الالمان في سبيل نشوء الحرب . وسأذكر في هذا الفصل أخطر تلك الآراء ولا سيما آراء بعض العلماء المعروفين

ولا بد لي هنا من تكرار ما قلته في كتبي السابقة ولا سيما كتاب « العقائد والآراء » من انه ليس للقياس العقلي سلطة ما على العقائد التي مصدرها العواطف أو الدين . وقد جاءت الحرب الحاضرة برهاناً ساطعاً على المبادئ التي وضعتها في ذلك الكتاب

ان الآراء المنتشرة في المانيا عن منشأ الحرب هي أفضل برهان على ان العقائد التي تنشأ من طريق الاستهواء وتنتشر بالعدوى العقلية لا تقع قط تحت نفوذ العقل وأحكامه . فارقى العقول واعلمها لا تنجو من قصر النظر متى كانت تحت سلطان العقيدة

ثم ان هذه الآراء قد أبديت بالشدة والاندفاع اللذين يرافقان انتشار الايمان الجديد . ولست اول من لفت نظره ذلك التطرف المستهجن صدوره من علماء وفلاسفة مشهورين ، فقد ذكره سواي غير واحد . ومن أغرب ما كتبه علماء الالمان مقالة للعالم الجليل الاستاذ وندت المعروف في جميع الاقطار المتمدينة فقد جاء فيها :

ان الحرب الحقيقية ـ الحرب العادلة المقدسة ـ هي الحرب التي تثيرها المانيا على اعدائها . اما الحرب التي يقوم بها الفرنسيون والروس والانكليز فانها شيء آخر . لا . ليست حرب اعدائنا حرباً حقيقية لان للحرب حقوقاً وقوانين وانما هي اعتداء عصابة لصوص لا تعرف وسيلة لغرضها الا القتل والقرصنة

ومن ذلك أيضاً قول الاستاذ اوكن الفيلسوف المعروف ان المانيا مكلفة

اصلاح الانسانية قال «اننا لا نحارب لانفسنا فقط وانما نحارب لمصلحة الانسانية جمعاء»

٢ — آراء السياسيين الالمان

ما برح سياسيو الالمان منذ اعلان الحرب يبذلون جهدهم حتى يثبتوا ان المانيا لم تسبب الحرب وان تكن قد اضطرت الى اعلانها

وقد نشرنا سابقاً فقرات من خطب المستشار الالماني في هذا الشأن واليك فقرة من الخطاب الذي القاه في الريشستاغ بتاريخ ٢ ديسمبر سنة ١٩١٤ :

ان وزارة لندن هي التي شاءت حدوث هذه الحرب الفظيعة ظناً منها انها تتيح لها بمعونة دول الاتفاق الودي ان تقهر اكبر منافس لها في اسواق العالم — فانكلترا وروسيا هما اللذان يحملان امام الله والناس تبعة هذه العاصفة التي عمت اوربا والعالم اجمع

ولا شك ان المستشار متمتع باعتقاده ان انكلترا رغبت في الحرب لقهر منافستها . وقد بينا سابقاً ان انكلترا لم ترد الحرب وانما دخلتها مرغمة بعد تردد طويل . بل ان المستشار الالماني السابق البرنس فون بولو قد بين مقاصد انكلترا السلمية في كتابه عن السياسة الالمانية . فقد جاء فيه :

كانت تستطيع انكلترا في السنوات العشر التي تلت القانون القاضي ببناء اسطولنا ان تمنعنا من اتمام هذا المشروع وتقف تقدمنا البحري . ولكن نفور انكلترا من الحرب اتاح لنا ان نقوي سلطاننا على البحار

وقد كرر المستشار الحالي غير مرة رأيه في هذا الشأن وشوه بعض المستندات والاوراق للوصول الى هذا الغرض . فمن ذلك تشويهه التقارير التي وجدت في البلجيك ومدارها تبادل آراء الملحقين العسكريين الانكليز والبلجيكيين على التدابير التي يمكن اتخاذها في حالة التعدي على الاراضي البلجيكية ، فقد محا منها العبارة التي تبين الغرض من تلك التقارير — وهو حماية حرمة البلجيك ليس الاّ — واتهم انكلترا والبلجيك بالتآمر على المانيا

ثم ان غازت المانيا الشمالية ابدلت كلمة محادثة الواردة في تلك التقارير بكلمة اتفاق كما اثبتت حكومة البلجيك تبريراً لنفسها

٣ — آراء الجرائد الكبرى والاساتذة الالمان

ولئن كانت تهم سياسيي المانيا كاذبة فان اقوالهم قريبة الى المعقول . وبعكس ذلك

ما أبداه اساتذتها فقد ظهر من كتاباتهم ان مداركهم أحط من مدارك السياسيين . فكأن اولئك الاختصاصيين خرجوا فجأة من معاملهم وغرف بحثهم وتنقيبهم فوجدوا انفسهم ازاء مسائل جديدة لم يتعودوا الخوض فيها فجاروا الرأي العام بل سبقوه واظهروا من ضعف القياس العقلي وقصر النظر المعنوي مايستغرب صدوره من علماء كانوا اصحاب مقام وشهرة في جميع الدول

وقد سرد أحد الكتاب أمثلة من آرائهم واليك بعض ما قاله :

اتهمت الصحف الالمانية والاساتذة الالمان اولا سفير روسيا في باريس بتدبير الحرب ثم وجهت تهمهم الى الملك ادوارد السابع والى السر ادوارد غراي والمستر ونستن شرشل والى الغرندوق نقولا ... حتى المسيو بوانكاره لم يخلص منها ...

ونسب الاستاذ برنتانو ( من جامعة مونيخ ) منشأ الحرب الى فرنسا وطلبها الثأر من المانيا قال :

لم يرتض الرجعيون الفرنسيون باضمحلال فكرة الثأر من المانيا بين الشعب الفرنسي ... فاملوا رجوع الملكية وظنوا ان الحرب هي خير وسيلة تنيلهم غرضهم

اما الاستاذ ادوارد ماير ( من جامعة برلين ) فتعليله أقرب الى الواقع وكل تهمته موجهة الى الانكليز . واليك بعض ما قاله في هذا الشأن :

ان الجميع في المانيا من ارقى الدوائر الى ابسط العمال يعلمون جيداً ان انكلترا هي عدونا اللدود وانها هي التي دفعتنا الى هذه الحرب وجرت معها في هذا السبيل الدول الاوربية الاخرى بقصد اذلالنا وافلاسنا ... فلا شك ان انكلترا هي التي شاءت الحرب بعد اعمال الفكرة ... وقد كان في ود اعدائنا تطويل مدة المفاوضات حتى يربحوا الوقت ، وهو ما رمت اليه اقتراحات السر ادورد غراي في سبيل عقد مؤتمر اوربي ...

... لم يخطر قط ببال المانيا ( ونقول ذلك بضمير مرتاح ) ان تتبع سياسة اعتداء نحو الدول الاخرى خلافاً للقوانين الدولية

حتى ولا نحو البلجيك !

ان اتهام الالمان للانكليز لمن اغرب مظاهر العقل الالماني وهو مشترك بين جميع الطبقات . واليك ما قاله جورنال جنيف بسويسرا ( ٢٦ مارس سنة ١٩١٥ ) في هذا الشأن :

ان اصرار الصحف الالمانية علي القاء تبعة الحرب على انكلترا يشير الى انها تعتمد على

عجز قرائنا عن التفكير والحكم والتذكر . فانه لم يكن على الارض حكومة ميالة الى السلم كالحكومة الانكليزية

٤ — آراء العسكريين الالمان

يشترك العسكريون على الاجمال مع غيرهم من الالمان باتهام انكلترا ولكن بعضهم ينسبون الحرب الى سرعة حشد الجيوش الاوربية

واليك ما جاء في محادثة للجنرال فلكنهين رئيس اركان الحرب الالماني في هذا المعنى :

ليست هذه الحرب اعتداء منا فانها لم تنشأ عن رغائب حزب عسكري . وانما هي حرب دفاعية ادت اليها التدابير الحربية التي اتخذتها روسيا . فلم نستطع الا ان نقابلها بالمثل . وقد بذل امبراطورنا وسفيرنا في روسيا كل ما في وسعهما لملافاتها

اما الجنرال فون مولتكي الرئيس السابق لاركان الحرب فقد نسبها الى انكلترا واليك ما جاء في محادثة له :

... لم أشك ساعة واحدة في ان انكلترا تستغنم اول فرصة تسنح لمحاربتنا لان ذلك من مصلحة سياستها وقد كانت تستعد منذ زمن بعيد وليست المسألة البلجيكية الا عذراً تمسكت به

٥ — رأي الجمهور في المانيا

ان اراء السواد الاعظم من الالمان ليست الاّ صورة مطابقة لآراء حكومتها وعلمائها وقد اشتهر الالماني باحترامه لأصحاب السلطة والنفوذ وخضوعه لهم . فلذلك تراه لا يجرأ ان تكون له آراء شخصية مخالفة لآرائهم

ولو اتيح لك ان تستطلع آراء السبعين مليوناً من الالمان لما وجدت اختلافاً يذكر بين آرائهم ولكان جواب الجميع عن اصل الحرب انها مؤامرة دبرتها انكلترا لسحق ألمانيا

ومتى علمنا انتشار هذا الاعتقاد ادركنا حماسة الشعب الالماني عند اعلان الحرب وفي اثنائها ، ولاسيما ان الجرائد كانت تنشر خبر الانتصار تلو الانتصار حتى انها لم تشر الى معركة المارن ، ولعل الالمان يعتقدون اليوم ان رجوع الالمان عن باريس انما تم لاعتبارات حربية . واليك بعض ما جاء في رسالة لسويسري زار المانيا بعد اعلان الحرب نشرتها جريدة التان قال :

ان الشعب الالماني باسره متأكد ان النصر لالمانيا وانه يستحيل كسر جيوشها والجميع مقتنعون بقداسة الغرض الذي تسعى اليه المانيا . ان النظام العسكري العام قد جعل للشعب الالماني روحاً جماعية لا تتأثر الا بما يوحى به من المنطقة التي فوق البشرية وهي ما يؤمها الامبراطور ووزراؤه . وانك لن تستطيع اقناعه بوسيلة من الوسائل فالحق معه وحده وجميع الامم كذابة افاقة

فترى فيما تقدم وجه الشبه بين اعتقاد الالماني لكل ما يوحى اليه بلا اعتراض وايمان المؤمن الحار فكلاهما من منبع واحد

وقد كان لبعض الشركات التلغرافية تأثير كبير في الرأي العام ولا سيما شركة ولف الشهيرة . وسرعان ما كان يصدق الشعب اغرب اختلاقاتها . ولهذه الشركة الفضل في اخبار المانيا بان الفتيات البلجيكيات كن يفقأن عيون الجنود الالمان وان القسوس كانوا يقضون على الجرحى

ولم تقتصر اخبار هذه الشركة على البلاد الالمانية بل انها كانت تنشر اخبارها في الخارج حتى انها نشرت مرة في اميركا الجنوبية خبر أسر الملك جورج الخامس اثر هجوم قام به اسطول من بلونات تسبلين على لندن !

٦ — آراء المحايدين

ان الاراء في الدول المحايدة متباينة واليك اهم الاسباب التي ذكرت عن منشأ الحرب: تفوذ الحزب العسكري في المانيا ، مؤامرة الاتفاق الثلاثي ، جنون الكرونبرنز ، ثأر فرنسا ، الجامعة السلافية ، طمع النمسا . . .

وبعض الكتاب المستقلين لم يروا من الحكمة القاء التبعة على فريق من المتحاربين . ومن هؤلاء الكتاب المؤرخ فريرو الاسباني

وعلى الاجمال لم تكن الآراء التي ابديت في الحرب مبنية على درس الحوادث وانما نشأت عن الاميال والعقائد الغريزية

# الباب الخامس

## العوامل النفسانية في المعارك

# الفصل الاول

### انقلاب الطرق الحربية

١ — العناصر الجديدة في الحروب الحديثة

ليس غرضنا في هـذا المقام ان ندرس بالتفصيل طرق الحرب الحديثة وانما اضطررنا الى ذكر خلاصتها ايضاحاً لاثر القوى النفسية فيها

سوف تعد هذه الحرب عاملا قوياً من عوامل النشوء الفردي والسياسي والاجتماعي فقد غيرت الفنون الحربية والاسلحة والآراء والعادات الخ . ولم يكن تأثير الثورة الفرنسية باشد من تأثيرها

وقبل ان ندرس الانقلابات الحربية يجدر بنا ان نلقي نظرة اجمالية على طرق الحرب الحاضرة : على وجه الارض وتحته ، وعلى سطح البحر وتحته ، وفي الهواء

اما الحروب البرية فاول انقلاب تمَّ فيها هو استبدال الجيوش القديمة التي لم يكن يتجاوز عددها ١٠٠٠٠٠ جندي بجيوش تعد بالملايين ، وانتشار أولئك المحاربين على خطوط طويلة تبلغ مئات الكيلومترات طولاً وقد كانوا فيما مضى لا يتعدون ميداناً محدوداً

على طول ذلك الخط يتقاتل الرجال مختبئين في الخنادق ويقتصر عمل القائد العام على ارسال أوامر تليفونية لتعزيز بعض الجهات أو للشروع في هجوم أو نحو ذلك

وقد استبدلت المدافع القديمة التي كان مرماها لا يزيد على مئات من الامتار

بمدافع عظيمة تسدد الرمي الى عشرة كيلومترات وعشرين كيلومتراً حتى ان اعظم الحصون مناعة لم تستطع مقاومتها الاّ بضعة ايام

اما في البحر فلم تكن الانقلابات بأقل شأناً منها في البر . وحسبك برهاناً على ذلك الغواصات التي تغرق المدرعات العظيمة في دقائق معدودة حتى اضطرت المدرعات ان تلتجئ الى الاماكن الامينة

وماذا عسانا ان نقول عن الحرب في الهواء ؟ لم تحدث الطيارات اضراراً عظيمة الى الآن. ولكن سوف يكون لها شأن عظيم متى تكونت الاساطيل الهوائية من ألوف الطيارات وهجمت دفعة واحدة على بلاد العدو ومدنه

لقد تلاشى اليوم طراز المعارك القديمة — معارك هانيبال ويوليوس قيصر ونابوليون — اذ كانت المعركة تجري بادارة القائد الذي كان يصدر أوامره وفقاً لما تقتضيه الحال . وقد كان المصور في وقت نابوليون يستطيع أن يضمّن صورته ميدان المعركة كله. أما اليوم فان السائح في ساحات القتال لا يرى قط شيئاً لا بشراً ولا خيلاً ولا مدافع لأنها جميعها مختبئة تحت سطح الارض . ولولا القذائف التي تنفجر بين حين وآخر لظن نفسه في صحراء

غير انه اذا كان ثاقب النظر لا يلبث ان يلحظ كل آن رجالاً يزحفون على بطونهم ببطء وسكون فلا يرتفعون عن الارض الاّ ليثبوا في احد الخنادق

واذا بحث ذلك المشاهد عن قائد اولئك الجنود وجده في مكان منزو يرسل منه اوامره الى فرقه وفقاً للاشارات التلغرافية أو التلفونية الواردة اليه من القيادة العليا . وجل همه قاصر على نقل الجنود الى المكان الذي يجب مهاجمته أو الدفاع عنه

اما القائد العام فقد يضطر طالبه الى السفر مسافة بعيدة عن خط القتال . ونحن نعلم اليوم انه في ابان معركة المارن كان القائد العام للجيوش الفرنسية واركان حربه على بعد ٢٠٠ كيلومتر من خط القتال

ثم ان المعارك الحاسمة التي عرفها أسلافنا قد استبدلت بمئات المعارك الصغيرة المتالية ، وقد اصبح التقدم مسافة قصيرة يستدعي اليوم التضحية برجال كثيرين . ولم نسمع في اثناء هذه الحرب عن حركات كبيرة بعيدة المجال الاّ في جهات بولونيا

وفضلاً عن الفروق المتقدمة فقد جاءت هذه الحرب بامور جديدة لم تكن في

الحسبان ، فمن ذلك ان القواد الفرنسيين و رجال الفنون الحربيـة كانوا يعتقدون بان هجوم المشاة يجب ان يتم جماعات متباعدة حتى لا تفتك بهم المدافع فتكاً ولكنهم ما لبثوا ان شهدوا الالمان في بدء هذه الحرب يهجمون صفوفاً كثيفة كالسيل الجارف فكان لهذا الانقضاض تأثير معنوي عظيم على جنود لم تعهده من قبل . والى هذا التأثير يعزى فوز الالمان في شرلروا عند اول الحرب . ولكن الحلفاء لما تدبروا هذه الطريقة اصبحوا لا يعبأون بها بل أصبحت تلك الصفوف الكثيفة هدفاً يصوبون اليه نيرانهم فيفتك في الالمان ايما فتك

واليك ما كتبـه الجنرال ملتير أحد قواد فرنسا الذين خبروا بأنفسهم الحرب الحاضرة عن وصف المعارك الاولى :

ما برح رجال فرنسا ـ رغم استيقاظهم من التخدير الذي رماها فيه السلميون الخياليون ـ ما برحوا يعتقدون ان هجوم الالمان لا يكون الا عن طريق الالزاس

وقد أظهرت المانيا في سنة ١٩١٤ نفس التفوق الذي أظهرته سنة ١٨٧٠ من حيث الخطط والتنظيم والتنفيذ

وانه لمن اليسير الآن ان نفهم سبب الدهشة العظيمة التي شعر بها جنودنا عند اول التحامهم بالعدو فقد كان الالمان يرموننا بسيل من القنابل وهم مختبئون في امكنة لم تستطع مدافعنا الوصول اليها ولا سيما ان الخطة الالمانية كانت تقضي بتوجيه العواصف النارية والحديدية على مراكزنا قبل هجوم المشاة . وقد خبرت بنفسي ما شعرنا به من الغيظ والسخط الشديدين اثناء تلك الايام المشهودة اذ لبثنا نتجالد تحت وابل من الرصاص والقذائف ونحن عاجزون عن الاشتباك بعدونا

تفوق فني ، تفوق عددي ، تفوق صناعي — تلك هي الميزات التي امتاز بها الهجوم الالماني في سنة ١٨٧٠ و سنة ١٩١٤

ولقد حسب الالمان حساب كل شيء — الا بعض العوامل النفسية

ولنتقدم الآن الى درس ميزات هذه الحرب الفنية بشيء من التبسط

٢ — الخطط الحربية الحديثة . امتداد خط القتال . الهجوم والدفاع

قد أصبحت الفنون الحربية اليوم أبسط منها فيما مضى وان تكن مسألة التموين قد زادت صعوبة وتعقيداً . فان معظم الخطط الحربية الحاضرة ترجع الى شكلين : المهاجمة الخطية وحركة التطويق ومدار الفن الحربي الحاضر ليس نقل الجنود من مكان الى آخر فقط بل نقل الذخائر والمؤن اليهم . لذلك كان للسكك الحديدية مقام عظيم .

فان الجيش الذي توافرت لديه وسائل النقل يفوق عدوه تفوقاً عظيماً وان يكن أقل عدداً . ولا يخفى ان السكك الحديدية الالمانيــة مستوفاة الشروط متشعبة الفروع بحيث يمكن نقل الجنود من مكان الى آخر بسرعة عظيمة . وقد استفاد الجيش الالماني من هذا التفوق وما برحت خطته هي ذاتها يكررها المرة بعد الثانية وخلاصتها نقل الجنود بكثرة الى احد جناحي العدو وتطويقه . قال فريدريك الكبير من زمن بعيد « ان من اليسير لجيش عدده ٣٠٠٠٠ ان يفوز على جيش عدده ١٠٠٠٠٠ اذا تمكن من مهاجمته في جناحه »

وبالرغم من ذلك توقع اركان الحرب الفرنسي اكتساح الروس للاقطار الالمانية . والحقيقة انهم على فرض دخولهم ما كانوا يستطيعون التقدم فيهــا بعيداً لافتقارهم الى وسائل النقل اذ لا ريب ان الالمان عند تقهقرهم كانوا يدمرون ويخربون كل السكك الحديدية وغير الحديدية المؤدية الى بلادهم

ان امتداد خط القتال امتداداً عظيماً قد جعل المعارك مبهمة النتائج بعكس الخطط القديمة التي كانت ترمي الى حشد الجنود في جهة معينة وتنتهي بنتيجة حاسمة . فالمعركة الحديثة مؤلفة من عدة معارك صغيرة متتالية

وقد بدلت حرب الخنادق الآراء القديمة عن الهجوم والدفاع بآراء جديدة تقتضيها هذه الحرب

اما من الجهة النفسانيــة فالهجوم يفضل الدفاع لأن متخذ الخطة الدفاعية يتوقع مهاجمة عدوه من غير ان يعرف النقطة التي سيتم فيها هجومه . وما برح كبار رجال الحرب منذ نابوليون يبينون أفضلية الهجوم على الدفاع . وهذه الافضلية من عقائد اركان الحرب الالماني . قال الجنرال برناردي :

الهجوم أفضل من الدفاع حتى ولو كان الجيش المهاجم أقل عدداً . كتب فريدريك الكبير الى لويس الخامس عشر يقول : « قد يتسرب الاختلال الى صفوف العدو ويفقد تفوقه العددي اذا ضرب ضربة محكمة » وقد نفذ فريدريك هذه الخطة في معاركه وكثيراً ما نصر بها على اعداء فاقوه عددا

غير ان حرب الخنادق — وان لم تسلب خطة الهجوم افضليتها فقد جعلتها شديدة الخطر كثيرة الفتك بالجيش المهاجم

ومما يستحق الذكر هنا ان معظم رؤساء الجيش الالماني شيوخ هرمين (مثل ليو بولد ملك بافاريا ، وهندنبرج ، ومكنسن ، وبيلو ، فقد جاوزوا السبعين ، وهسلر الذي جاوز الثمانين ) وأغلبهم كانوا قبل الحرب محالين الى المعاش

اما في ايام نابوليون فقد كان النصر حليف قواد شبان كسروا قواد اوربا الكبار . فمن ذلك نرى ان النصر اليوم يستدعي فضلاً عن الشجاعة والاقدام كثيراً من التفكير والحنكة وحسن التدبير

٣ — مقام الحصون والخنادق

قد تبدلت الآراء المتعلقة بالحصون تبديلاً تاماً بعد نشوب الحرب الاوربية . ولا يسعنا هنا نسبة هذا التبديل الى قصر النظر فالاختبار وحده كان قادراً على بيان وهن حصون انفرس ولياج ونامور تلك التي كان يعد الاستيلاء عليها مستحيلاً ، والانباء بثبات مدينة مفتوحة كنانسي لا يحميها الا بعض الخنادق المحفورة حولها

ولا ريب ان هذه الحرب قضت على الحصون الثابتة فقد دك أعظمها في ايام قليلة ، ولا سيما ان الالمان كتموا امر مدافعهم الضخمة التي ترمي الى أبعد مما ترمي اليه مدافع الحصون البلجيكية والفرنسية ، والتي تكفي بضع طلقات منها لهدم القباب الفولاذية المتينة التي كان يظن انها تقاوم اشد الصدمات

وبالجملة فقد ثبت اليوم ان الحصن يشل يد حاميته في حين انه يمكن استخدامها في ميادين القتال . ومن جهة اخرى قد أظهرت هذه الحرب افضلية الخنادق ، فما الخندق الا حصن ينتقل بسهولة من مكان الى آخر وفقاً لتطور القتال ولا يلزم للدفاع عنه الا رجال قليلون . فهو اثبت وامتن من احدث الحصون وأعظمها . وبفضل الخنادق سلبت الخطة الدفاعية شيئاً من تفوق الخطة الهجومية فان اختراق صف من الخنادق يستدعي عشرة أضعاف الرجال والمدافع اللازمة في معركة على سطح الارض

ومن ميزات الخنادق انه اذا تمكن العدو من الاستيلاء على احدها بعد بذل جهده والتضحية برجاله فليس أسهل من حفر خندق خلف الخندق الاول بل ان ميدان القتال اليوم ليس الا صفوفاً متتالية من الخنادق اذا سقط احدها تجدد القتال للاستيلاء على الخندق التالي وهكذا مما يستدعي نفاد الرجال والذخيرة بكثرة عظيمة

ولم تقضِ حرب الخنادق على الخطط الحربية القديمة فقط بل قد تعذر معها نشوب المعارك الحاسمة التي كانت تقلب وجه التاريخ (كاسترلتز ووترلو)

ولا نعني بما تقدم ان الخنادق من مبتكرات هذه الحرب فقد استعملت منذ زمن بعيد تارة للاستيلاء على الحصون بحفر خنادق موازية لها وطوراً للدفاع عن مدينة او معقل . وانما الجديد امتداد تلك الخنادق والاسلحة التي تستعمل فيها . وعلى رغم ان الجيش الفرنسي لم يستخدم الخنادق لوقف تقدم الالمان في الاراضي الفرنسية عند ابتداء الحرب فقد ورد ذكرها غير مرة في الكتب والتعليمات الفرنسية

ان الجديد حقيقةً في حرب الخنادق هو المدافع السريعة الطلق التي تجعلها بمثابة حصون مستطيلة اولاً ، وامتدادها على مئات من الكيلومترات ثانياً

ثم ان طول المدة التي يضطر الجنود الى قضائها في الخنادق قد حملت على تحسينها بقدر الامكان وادخال ما تيسر من وسائل الراحة والوقاية اليها

والحياة في تلك الخنادق تستدعي صبراً ومجالدة لا يعرفان الملل نظراً لتعرضها على الدوام الى انفجار الالغام وقذف القنابل ورمي الرصاص

ولئن كان الاستيلاء على خندق من أصعب الامور فان الثبات فيه يكون أصعب اذ انه لا يهجر في الغالب الاّ بعد ان يخرب . فلا بدّ للمستولي عليه من اصلاحه تحت نيران العدو . وعلى كل حال فان الخنادق لا تثبت في مقاومتها الاّ اذا كانت متينة البناء ومستوفاة شروط الدفاع ، ولذا لم يجدِ الروس نفعاً اثناء تقهقرهم في غاليسيا و بولونيا حتى انهم اضطروا الى احراق مدنهم لوقف السيل الالماني

## ٤ — مقام المدافع والذخائر

لم يحفل اولو الامر في بادئ الحرب الاّ بعدد الجنود ولكنهم ما لبثوا ان تيقنوا من ان كمية الذخيرة أشد خطورة وأعظم شأناً فان الخندق الذي يستطيع ان يطلق اكثر من ٦٠٠ طلقة في الدقيقة لا يتيسر الاستيلاء عليه الاّ بعد ان يطمر بوابل من النار والرصاص . وقد صدق القائد الانكليزي الذي قال انه في استطاعة جنديين توافرت لديهما الذخيرة ان يحموا وحدهما خندقاً من هجمات فصيلة من الجنود

على ان دول الحلفاء قضت اكثر من ستة أشهر قبل ان تدرك مقام الذخائر وخطورتها

ولم يخطر ببال أحد من القواد عند نشوب الحرب انه سيكون للذخائر من المقام العظيم ما كان . بل ظن اولو الشأن ان ١٣٠٠٠ قنبلة في اليوم تزيد على الحاجة . وفي شهر سبتمبر سنة ١٩١٤ لم يكن المصنوع يومياً في فرنسا وحدها يزيد على ٧٠٠٠ قنبلة فاصبح في مايو سنة ١٩١٥ اكثر من ٨٠٠٠٠ قنبلة لمدافع ٧٥ وحدها وما برح هذا العدد يتزايد بسرعة عظيمة

وقد بلغ من اهمال الحكومة الفرنسية مسألة الذخيرة ان وزير الحربية في بدء الحرب أرسل عمال المصانع الحربية الى خطوط القتال ولكن ما لبث أن اضطر الى استعادتهم فاقتضى البحث عنهم في كل فرقة من الفرق نحو الشهر

وجملة القول ان الاختبار قد دل الان على ان رجالاً قليلين وذخيرة كثيرة أفضل من رجال كثيرين وذخيرة قليلة

٥ — مقام العدد

غير أنه لا يزال للعدد مقام عظيم رغم ما بيناه من مقام الذخيرة المتزايد

ولم يبخس الالمان العدد شيئاً من حقه ومقامه الاّ انهم عينوا له حدوداً . قال الجنرال برناردي :

لا يبرح من الذهن ان للعوامل الادبية والعقلية المقام الاول دائماً حتى أنها في بعض الاحيان تفوق العوامل العددية . فقد تقوم القوى النفسية اذا كانت وطيدة ثابتة مقام قوى أخرى ناقصة وتعمل عوضاً عنها فان تأثير الرجل العظيم مثلاً كاف لزيادة قوة الجيش بل قوة الامة كلها . . .

وفي نظر الكاتب المتقدم ان متانة الجيش ووحدته اخطر من عدده . قال :

ان الجيوش التي الفتها الجمهورية سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ لم تستطع ان تقف في وجه الفرق البروسية المتينة رغم تفوقها عدداً . ولنفس السبب نصر اليابانيون على الروس مع أنهم أقل عدداً على أنه لا يجب ان نبخس التفوق العددي حقه فقد تعجز العبقرية نفسها عن التغلب على جيش جرار . فان التفوق العددي متى فاق نسبة معقولة يقضي على التفوق الادبي والعقلي

ان عدد الجنود في هذه الحرب عظيم فهو مجموع الافراد الصالحين للحرب ولا حاجة بنا ان نشير الى امتياز هذه الحرب عن جميع الحروب السالفة من هذا القبيل

وقد كانت خطة الالمان في بدء الحرب ان يهجم الجنود في صفوف كثيفة متتالية ولكنهم بعد انكسار المارن لجأوا الى الخطة « الدفاعية — الهجومية » وهي ان يبدأ

الجيش باتخاذ خطة الدفاع في مكان مختار الى ان يضعف عزم العدو الهاجم فيبدأ هو اذ ذاك بالهجوم

على ان هذه الخطة لم تأت بنتائج محسوسة في الميدان الغربي حيث الفريقان متكافئان في هذا الوقت وستبقى الحال على ما هي الى ان يتفوق فريق منهما على الآخر بعدده ومدافعه وقواده بحيث يتمكن من فتح ثغرة في خط العدو يتقدم فيها عدة كيلومترات والارجح ان بقية الخط يختل اذ ذاك من جراء هذا الاختراق

٦ — الحرب البحرية والحرب الهوائية

يظهر ان الانقلاب الذي أصاب الحرب البحرية أعظم من الانقلاب الذي أصاب الحرب البرية . فقد أصبحت معظم الاعمال البحرية تجري تحت سطح الماء ويتساءل الناس اليوم عن فائدة تلك المدرعات العظيمة التي تقدر نفقات انشائها بملايين الجنيهات اذ يكفي طوربيل او لغم لازالتها عن وجه البحر في دقائق معدودة

ان وظيفة الغواصات في هذه الحرب مزدوجة : فانها من جهة تقوم باتلاف مادي ومن جهة أخرى تهدد السفن وتخيفها حتى ان معظم المدرعات الكبيرة اضطرت ان تلتجئ الى الموانىء الامينة

على ان كبار رجال البحرية بينوا منذ أوائل القرن العشرين مقام الغواصات في الحروب القادمة . وفي مقدمتهم اللورد فيشر والسر برسي سكوت الانكليزيان فقد أنبآ بانقلاب شكل الحرب البحرية ومكانة الغواصات المتزايدة ومما قاله الثاني « سوف نرى الغواصات تطرد المدرعات من سطح البحر كما طردت الاوتوموبيل الخيل من الطرق البرية »

ولا ريب ان الزمان يخبئ لنا مفاجآت أخرى غير التي تقدمت

# الفصل الثاني

## العواطف التي توقظها الحرب . تكوّن ذاتيات جديدة

### ١ — تكون ذاتيات جديدة

ان حرباً عظيمة كالتي تجري اليوم يجب ان تعد من حوادث التاريخ العظمى التي تتطوّر معها الحياة العقلية . ولقد ينتج عن هذا التطور تقلب الذاتيات وتكوّن ذاتيات جديدة ( وقد ذكرت ذلك في بدء هذا الكتاب ) بحيث يتغير سلوك الناس لدرجة تدهش عارفيهم . بل ان اولئك الافراد أنفسهم عندما يرجعون الى وسطهم القديم ويستقرون على عاداتهم الاولى يدهشون أيضاً مما طرأ عليهم

وهذه الانقلابات سريعة الحدوث ، تتم حالما تتوافر أسبابها . فأي شيء أدهش من ان نرى مئات الالوف من الاهلين يتحولون الى جنود شديدي البأس يستقبلون الموت بثغر باسم وصدر رحب فداء للوطن والحرية — وهم يفعلون ذلك في العصر الذي بلغ فيه الترفه والترف ووسائل الراحة على أنواعها أقصى درجاتها . بل ان البسالة أصبحت لدى أولئك القوم صفة مبتذلة !

فالحرب الحاضرة برهان جديد على نظرية شرحتها غير مرة في كتبي السابقة مجملها ان ثبات الشخصية انما ينتج عن ثبات الوسط ، فاذا تغير تغيرت . حتى انك قد لا تعرف الرجل العادي بعد انقلاب وسطه . وفي كل واحد منا استعداد كامن لمثل هذا التطور . ولذا يكون من الغباوة ان يدعي احدنا انه يعرف نفسه

ان تلك الانقلابات النفسانية تصيب جميع الطبقات الاجتماعية ، وقد لفتت نظر جميع المشاهدين . قال أحدهم :

لقد تولدت روح جديدة في جنودنا بعد انتقالهم الى ميدان القتال فصبح التضحية والاندفاع والبسالة والسكوت جزءاً من فطرتهم . وقد بلغت روح التضامن بينهم مبلغاً عظيماً حتى اذا سئل فريق أن يتطوع بعضهم لمهمة خطيرة تقدموا اليها جميعاً . ولا ريب ان الحرب قد أعلت نفوس

الجنود فاني أعرف رجلاً لم يكن حسن السيرة والسلوك في باريس ولكنه قد أبدى في القتال هو وشركاؤه ما أنسى ماضيه وجعله في مصاف أشجع الشجعان

ان تلك الارواح الجديدة تتكوّن من استيقاظ بعض العواطف المستقرة في النفس البشرية واليك اخطرها فيما يلي

٢ — الشعور الوطني . اثر روح الامة

تقضي الوطنية على الفرد بتضحية جميع مصالحه الفردية في سبيل المصلحة العامة . وكلما قدم عهد روح الامة وتوطدت دعائمها على اشتراك المصالح والاماني ازدادت الوطنية قوة واستبدلت غريزة البقاء الفردي بغريزة البقاء الملي

ان روح الامة هي في الحقيقة صاحبة الشأن في القتال ، وهي تزداد نشاطاً كلما أحدق بها الخطر الذي يهددها

والوطنية صفة موروثة من قبيل العوامل الروحانية . وقلما يكون للعقل سلطة عليها ، بل ان الذي يحكم عقله في وطنيته يضعفها بلا ريب . قال المسيو شفر يليون :

الوطنية كالدين والآداب لا تدخل في حيز الحكم العقلي بل تخضع لناموس الحياة . فهي غريزة أوجدتها الحياة أثناء نشئها وارتقائها ـ كما أوجدت غيرها من الغرائز والاوهام المتوارثة جيلاً عن جيل بقصد معاونتها على غرضها الاعلى الا وهو مداومة التحسين والتقدم . . . ولذا لا يجدي المنطق نفعاً في اقناع الفرد بان استشهاده في سبيل ما لا يعلم مصيره بعد موته انما هو ضرب من الجنون . على أن الذي يفكر على هذا النمط يرتكب غلطاً فاحشاً اذ يعتد الفرد في عزلة وفي غنى عن بني جنسه ووطنه والحقيقة انه ليس الا جزءاً من المجموع الذي يدافع عن كيانه وانه يحيا بحياته كما تحيا الورقة بحياة الشجرة . ولا ريب ان الجزء الاكبر من ذاتيته اجتماعي اكثر مما هو فردي. فاذا نظرنا الى الوطنية هذا النظر رأيناها معقولة وعلمنا ان الفرد الذي يستشهد في سبيل وطنه ليس قاصر النظر وانما يقوم بوظيفة من وظائف الحياة القومية

الوطنية ميراث الموتى . وهي من تلك القوى العظيمة التي تتكون بتراكم الصفات الموروثة والتي تستيقظ دفعة واحدة متى حان وقت ظهورها . وبفعل تلك القوة رأينا أشد الرجال اختلافاً وتبايناً في الآراء من ملكيين واشتراكيين وغيرهم يتحدون معاً تحت ظل اللواء الوطني

وما كان ذلك بالامر الميسور لو لم تكن الوطنية من تلك الدوافع القوية المستقرة في أعماق النفس ، والتي تمحى امامها جميع احكام العقل

ولدينا أمثلة كثيرة تبين سلطان تلك القوة تقتصر منها على القصة الآتيـة : فرّ شاب فرنسي من صفوف الجندية سنة ١٨٩٩ وهجر بلده الى المانيا حيث تزوج المانية ولدت منه ست بنين . وكان كرهه للخدمة العسكرية عظيماً جداً حتى لم يتردد في الفرار من صفوف الجيش . فلما نشبت الحرب الحاضرة كان صوت العاطفة الملية في نفسه شديداً جدّاً بدرجة أنه ترك عائلته ورجع الى فرنسا للانتظام في جيشها

٣ — حب المخاطرة والمجازفة

حب الخطر جزء لازم من الطبيعة البشرية يتخذ في الحياة الاجتماعيـة صورًا مختلفة كالقمار ، والصيد ، والمعارك ، والاستكشافات الخ . وانك لا تجد بين الفاتحين ومؤسسي الممالك من نال النجاح المنشود من غير ان يجازف مراراً بممتلكاته وحياته

ان المخاطرة شرط ضروري للنجاح ولا سيا في المعارك . ولكن لا ينبغي أن يكون الامل ضعيفاً بحيث يعد الفشل في حكم المتوقع . ولذلك كانت صحة النظر والحكم في رجحان النجاح أو الفشل من الصفات الاولية التي ينبغي لاولي الامور التمسك بأذيالها

ولقد تعرض بسمارك في سبيل الاتحاد الالماني لاخطار جسيمة . ولو كان غيره في مكانه لتردد طويلاً قبل محاربة النمسا صاحبة الحول والنفوذ اذ ذاك ثم محاربة فرنسا التي كان من بأسها ان نصرت على النمسا في ايطاليا

ومتى كان أمل النجاح قليلاً عدّت المخاطرة تهوراً وقصر نظر

٤ — استيقاظ العواطف الدينية في فرنسا ابان الحرب

قد نشأ عن الحرب ظواهر روحانية اختلفت في فرنسا عنها في المانيا . فان المطمح الاعلى للنفس الالمانية هو الاتساع المادي والسيطرة العالمية ، يدفعها الى ذلك اعتقادها ان الله اختار الشعب الالماني لاصلاح العالم . ويبلغ من ثقة الالماني برعاية الله له انه لا يشعر باحتياج الى التزلف اليه في طلب تلك الرعاية

أما الفرنسي على الاجمال فانه أقل ثقة من الالماني برعاية الله له ، ولذا لجأ الى مداومة الطلب والتضرع الى خالقه وهو يعتقد ان ذلك الالحاح ضروري لنيل مرغوب به ، وليس أدل على هذا الاعتقاد من مقالة كتبها عضو شهير في الاكاديمية الفرنسية جاء فيها :

ان العصبية الوطنية التي حلت بنا هي كفارة عن مساوئنا وخطايانا فلاريب ان لذلك الرزء الوطني معنى وقد اتفقت جميع الطوائف في عده تكفيراً

وقد أشار ذلك الكاتب الى ان أفضل طريقة لاسكان غضب الله هي اقامة الصلوات العامة وأرسلت عريضة الى الحكومة في هذا المعنى تطلب موافقتها رسمياً. ولكن الحكومة رفضت هذا الطلب كما كان منتظراً ان تفعل. لان نفوسنا الحديثة لا تستطيع الخضوع لاله لا يستميله غير الذل والالحاح

وقال الجنرال شرفيس الفرنسي مبيناً مداخلة القوة الالهية في الحرب:

نرى بسهولة لماذا لم تشأ العناية الربانية أن تنتهي الحرب في مدة قصيرة. فان هذه الحرب سوف تكون لفرنسا خلاصاً وبعثاً. والبعث يفرض قبله القبر، ففرنسا اليوم أشبه بفراش أيوب الذي تجدد عليه ايمانه. ذلك هو التعليل الحقيقي لطول مدة الحرب

لا ريب في ان للعقائد الروحانية سلطاناً عظيماً على النفوس، ولكنها توحي الى أصحابها تعاليل غريبة عجيبة!

ولئن كانت اليقظة الدينية عظيمة جدًا في منطقة القتال فانها أخف وطأة في الداخل ولا سيما بعد ما أظهره البابا والاكليروس الكاثوليكي في البلاد المحايدة من الروح العدائية تجاه فرنسا، وبعد تشهير رجال الاكليروس وادعائهم في اول الامر ان مصائبنا هي عقاب من السماء. فقد كان من تأثير تلك المظاهر والاقوال ان خدشت احساسنا الوطني وتركت في نفوسنا شيئاً من البرود

٥ — تطور عواطف الجمهور اثناء الحرب

من العسير ان نتكلم عن تطور عواطف الجمهور اثناء الحرب وان يكن ذلك التطور جلياً في جميع الطبقات الاجتماعية. الاّ اننا لا ندري الصورة النهائيـة التي يقف عندها

وسوف يكون للرأي العام القسط الاوفر في مداومة الحرب أو طلب السلم. فان الآراء المتداولة عن مجرى الاحوال أعظم شأناً من حقيقتها. ومن ظن نفسه مغلوباً فليس الفشل ببعيد عنه

ولا تزال ثقة الالمان بنصرهم قوية وسوف لا تتزعزع الاّ متى رأوا ان اله الحرب يهجر صفوفهم

ومن العبث ان نحاول ادراك حقيقة الشعور العام اثناء الحرب فان الجرائد اليوم لا تعبر الا عما تأذن الحكومات بنشره — اللهم الاّ في انكلترا احياناً

على انه لا بأس من ايراد الفقرة الآتية المقتطفة من جريدة مجرية . وفيها ذكر تطور الرأي العام في بلاد المجر في الاشهر الاولى للحرب ( ولا شك انها تغيرت ايضاً بعد ذلك )

في الاشهر الثمانية منذ ابتداء الحرب دخل الرأي العام في ثلاثة أطوار متتابعة : كان الطور الاول ملؤه الحماسة الوطنية والاندفاع الحربي ، ثم هدأت النفوس وأصبح الجمهور لا يعبأ كثيراً بحوادث الحرب سواء كانت نصراً أو كسراً ، وفي الطور الثالث خلف الهدوء والسكون تهيج وترقب عظيمان فاصبحت أوتار الجمهور شديدة الاحساس تهتز لاتفه الامور

* * *

فنستلخص من هذ الفصل كيف تتطور شخصية الانسان وفقاً للوسط الذي ينقل اليه . نعم ان في كل منا صفات موروثة ثابتة هي النواة التي تنسج حولها شخصيتنا ولكن تغيير الوسط تغيرًا فجائياً يغير شكل النسيج الذي ينسج حولها بحيث يصبح للذاتية شكل جديد . ومن ثم نرى اختلافاً شديدًا في الناس عرفناهم ، كأنهم ولدوا ولادة ثانية

وسنأتي في الفصل التالي على ما يؤيد ايضاً نظرية تقلب الذاتية

# الفصل الثالث

## الشجاعة الحربية : منشأها وصورها

### ١ — الصور المختلفة للشجاعة

على رغم ان الحياة اثمن ما لدى الانسان فانه من السهل عليه ان يضحي بها في بعض الاحوال ولا سيما اذا كان تحت تأثير بعض الدوافع الموروثة التي تجعله ينسى غريزة الاحتفاظ ببقائه الفردي

والشجاعة هي مقاومة الخوف الطبيعي الناشئ عن الخطر . وقد تكون الشجاعة عرضية وهي اذ ذاك سهلة الممارسة ، أما الشجاعة المتواصلة فهي اصعب اكتساباً الا متى دخلت في طور العادة فتصبح طبعاً ثانياً يأتيها الانسان بلا تفكير

ولقد اتاحت الحرب الاوربية درس الشجاعة درساً نفسانياً مدعماً بملاحظات راهنة . فليس أفيد للمتأمل من الحوادث التي تقع وتدوّن حال وقوعها في ساحات القتال نفسها

واليك ما كتبه لي ضابط في المدفعية بهذا الصدد :

قد جعلتني الحرب أميز بين درجات متفاوتة من الشجاعة كانت قبل في ذهني بصورة غامضة مختلطة

وقبل كل شيء تيقنت من صحة التعبير الاسباني القائل « ان فلاناً كان شجاعاً في اليوم الفلاني »

ثم أن أجل أنواع الشجاعة مخاطرة الرجل القادم من مكان أمين لم يعرف فيه اضطراب القتال ، واقدامه بعزم وثبات على عمل يعلم خطره

وان شجاعة نفر معين من الجنود تختلف اختلافاً بيناً باختلاف الاحوال التي تكتنفهم ولا سيما اذا كان مزاجهم سريع التأثر كالمزاج الفرنسي

على ان صورة شجاعتنا الحربية قد تبدلت اليوم بعد ان اضطرنا مجرى الحرب الى التمسك بأذيال الثبات والهدوء ، فقد فقدت حدتها واندفاعها

ففي بادئ الحرب كان جنودنا يهاجمون بطريات العدو مكشوفي الجسم ومدفوعين

بقوة هائلة ، فكانوا يذهبون ضحية اندفاعهم من جهة وتأصل الطرق الحربية القديمة في أنفسهم من جهة اخرى

قال احد القواد الالمان في محادثة نشرتها جريدة الفيغارو في أول الحرب :

ان مشاتكم يستحقون كل مدح وثناء ولكن فيهم عيوباً عظيمة جداً أولها شجاعتهم واقدامهم فانهم يحاربون مكشوفي الصدور كأنهم يجعلون أنفسهم هدفاً لنا . نعم ان في ذلك من الجرأة ما فيه ولكنه غير معقول

انكم تظنون ان الشجاعة تفيد دائماً والحقيقة أنها وان أفادت في بعض الاحوال كالهجوم بالسلاح الابيض، الا ان ضرر التطرف في استخدام تلك الميزة السامية اكثر من نفعه . انكم لاتزالون تجهلون ذلك مع أنه حقيقة ساطعة. فالفوز في المعارك يستدعي الاستخفاء بقدر المستطاع والتعرض بأقل ما يمكن والاستفادة من كل مرتفع أو واد للتكمن . وسوف يأتي يوم تتعلمون فيه ذلك منا

وكتب ضابط بهذا الصدد :

ان نظرتا الى الشجاعة قد اختلف اختلافاً عظيماً منذ نشوب الحرب فاصبحت شجاعتنا اكثر اتضاعاً وحزماً وابهاماً، وقد كانت تمتاز سابقاً بالابهة والظهور والسطوع والفروسية. فان الجريئين كانوا يخرجون من الصفوف فيشاهد الجميع أعمالهم واستشهادهم . أما الآن فلا يعلم بجلد الجندي وصبره ومرونته الا جاره في الخندق . وقد أصبحت الشجاعة الحقيقية في المجالدة وهدوء الخاطر وقوة الارادة

فنرى من هذه السطور انه قد تبدل التسرع والاندفاع بالتفكير والصبر والحذر ولا شك انها أجزل فائدة وأقرب ايصالا الى الغرض المطلوب

### ٢ — البطالة والبأس

ان الاحوال الصعبة التي تجري فيها الحرب الحاضرة أما ان تؤدي الى الهزيمة أو الى البأس والبطالة . ولحسن الحظ انها أدت الى البطالة ، بل ان هذه الصفة اصبحت شديدة الانتشار حتى يصح عدها شرطاً اساسياً للاشتراك في هذه الحرب . فان مجرد قراءة التقارير العسكرية اليومية كاف للاقناع بهذه الحقيقة واليك بعض الامثلة المقتطفة بلا نظام :

كورتان : احتياطي في الفرقة . . . من المشاة : بعد ان قتل رجال مدفع رشاش الماني قفز في خندق يحميه عشرون المانياً فقتلهم تارة برصاصه وطوراً بحربته

شيلار : ملازم ثاني في فرقة . . . من الرواف : ارسل في ليل ٨ اكتوبر سنة ١٩١٤ مع ثلاثة رفاق للاستكشاف فالتقى في طريقه باربعين المانياً كامنين وراء الزرع فقتل منهم ثمانية عشر والجأ الباقين الى الفرار

الكابورال لبوك : في فرقة . . . أسر وحده كبيتن و ٢٣ جنديا من ورتمبرغ بفضل اقدامه ورباطة جأشه

عديدة هي الامثلة من هذا القبيل ، فان الجنود من جميع الطبقات الاجتماعية سواء في البسالة والمروءة . على ان تلك الامثلة هي من النوع المتقطع أي انها ظهرت في زمان ومكان معينين . ولكن حياة الخنادق تستدعي نوع الشجاعة المتواصل . ويمكننا ان نحكم بما تستلزم تلك الحياة من المقتطفات التالية

هذه فقرة من مقالة كتبها ضابط فرنسي شهد معركة ايبرس :

بقينا ١٣ ليلة و١٢ يوماً — وقد جرحت في اليوم الثالث عشر — غارقين في حفر ممتلئة بالطين يبللنا الماء والنداء الليلي وترتعد فرائصنا من البرد القارس — وذلك تحت وابل من الرصاص والشرابنل والقنابل والمقذوفات التي لم تجعلنا نستريح ربع ساعة لا ليلاً ولا نهاراً

في مثل ذلك الموقف ذهبت احلام البسالة والتفوق والظهور التي كنا نتصورها في مخيلتنا ، فانه لم يكن في وسعنا الا البقاء في امكنتنا نستنشق دخان القذائف وتصم آذاننا الانفجارات ، نسمع تارة انين رفيق مجروح وطوراً نشاهد دماغ جار يتطاير في الهواء او يد صديق تمر امامنا كلمح البصر الخ . . . وجملة القول انه كان علينا أن نسمع ونرى ونرتعد من غير ان نتحرك . . وكأننا دخلنا قبورنا قبل القدر المحتوم

واليك ما قاله المسيو ليون بورجوا يصف حياة الخنادق :

انهم يتألمون في الظلام الحالك والبرد القارس من غير ان ينبسوا ببنت شفة متيقظين لادنى صوت مستعدين للهجوم وللموت . هكذا تتوالى الليالي عليهم وهم متنبهون ثابتون لا يزعزعهم شيء . ومثلهم رؤساؤهم . ومتى دارت رحى القتال لا يرون حتى رؤساءهم لان معظم الاوامر تأتيهم بالتلفون . ومتى انتهت العاصفة رجعوا الى امكنتهم وعدوا انفسهم — ولا يلبثون ان يعيدوا الكرة بلا كلل ولا ملل

فاذا ذكرت جريدة الجيوش في اليوم التالي خبر تقدم مئات الامتار فانها انما تلخص مئات الاعمال المجيدة بكلمات قليلة . . .

### ٣ — اثر العادة في الشجاعة

ان للعادة اثراً عظيماً في منشأ تلك الشجاعة المتواصلة التي تستدعيها الحرب الحاضرة ، اذ يكفي لتوطيدها في النفس ان يتكرر الخطر وان يتمكن الجندي من مقاومته في المرات الاولى حتى تصبح الشجاعة ملكة فيه وتتحول الشجاعة المتقطعة الى شجاعة متواصلة

لذلك لا يجوز ان نقدر صعوبة الحياة على خطوط القتال باكثر مما تستحقه ، فان

العادة تلطفها وتسهل سبيلها . وانما هي تظهر بصعوبتها الهائلة لمن يدخل عليها لاول وهلة . وليس أشبه بحالة الجندي من حالة العامل في المنجم تحت الارض : فانك تشمئز لو عرض عليك ان تعيش مكانه في جوف الارض تحت الظلام الحالك والخطر الدائم ، أما هو فقد تعود حياته حتى أصبح يحبها ويكره الحياة في الهواء المطلق . فمن ذلك نرى أثر العادة في الطبع البشري

وبفضل العادة نجد الجنود في الخنادق يضحكون ويفرحون ( كما شهد بذلك غير واحد من الذين زاروهم ) غير حافلين بالخطر الذي يكتنفهم والموت الذي يهددهم في كل دقيقة . وقد يتحسرون على الوقت الذي قضوه في صفوف القتال عند رجوعهم الى مكاتبهم وحقولهم

وللبشاشة مقام كبير في الحرب لانها تقوي الجنود وتبعث فيهم العزائم . ولذلك رأيت الرؤساء الذين يفهمون قيمتها يسعون بجميع الوسائل لينفثوها في جنودهم

واليك ما قاله أحد الجنود مبيناً أثر العادة في حياة المقاتل :

ليس من العسير ان يتعود الرجل عيشة القتال . فانها لا تقتضي اكثر من ثمانية ايام حتى يتعود الجندي بعدها ان يعيش بين الدوي والانفجار ، ويستهجن الهدوء والسكون . ويصبح من السهل عليه اذ ذاك أن ينام بين تلك الاصوات المزعجة . وقد يستيقظ اذا سكنت العاصفة . هذه حقائق مشاهدة في كل يوم وهي تدل على سلطان العادة

ان كل الخطابات التي يرسلها الجنود تشير الى سرعة تعودهم حالتهم الجديدة . اما منشأ العادة فليس هذا مكان الافاضة فيه وانما نقتصر على القول بانها نتيجة قابلية الانسان للتكيف وفقاً لوسطه . ولولا هذه القابلية لما تيسر للانسان ان ينتقل الى وسط الخنادق مع ما بينه وبين الحياة العادية من الفرق الشديد

على ان تأثير العادة لا يظهر الا اذا وجد الانسان في نفس الاحوال وتعرض لنفس الاخطار التي عهدها . فاذا طرأ بعض التغيير على الصورة التي تعودها يضطرب في بادئ الامر ريثما يتعود تلك الصورة الثانية . فقد لوحظ ان الجنود الذين أصبحوا لايعبأون بنوع معين من القنابل او القذائف يضطربون اذا تبدل نوعها وشكل انفجارها

يكفي ما تقدم لبيان مكانة العادة في حياتنا . ففي السلم وفي الحرب على السواء تصدر عن العادة ثلاثة أرباع أعمالنا

ولما كانت الشجاعة المتواصلة لا تجدي نفعاً عند تغير الحال فما يبدو من اليأس يكون اذ ذاك نتيجة عامل آخر عظيم الشأن نعني به قوة الارادة

٤ — أثر العدوى العقلية

للعدوى العقليـة أثر عظيم في الحياة الاجتماعية ولـكنها مع ذلك اعظم شأناً في الحياة العسكرية . واليها يرجع الفضل في توثيق عرى الاتحاد المتين بين الجنود ، وهو ركن الاعمال الحربية

ولا يخفى ان العدوى العقلية هي قابلية الانسان للاحتذاء بمن حوله بحيث يريد ويعمل ما يريدون ويعملون ، من غير ان يكون لارادته الشخصية دخل في عمله

ومعظم تأثير تلك العدوى في العواطف . فقلما تؤثر في العقل والافكار . وبفضل العدوى العقلية ترى اهل الجماعة الواحدة يقولون ويعملون الاشياء ذاتها

ولقد نرى كثيراً من الحالات العقليـة المـكونة من مجموع عواطف مختلفة — كالتفاؤل والتشاؤم والخوف والشجاعة وغيرها — سريعة الانتشار بين الناس . وقد تنتشر الافكار أيضاً بالعدوى ولـكن بنسبة ما فيها من العناصر العاطفية والروحانية . فان الفـكرة المنطقية العقلية التي ليس فيها شيء من العواطف لا تنتقل بالعدوى

ويظهر أثر العدوى العقليـة حالما يدخل الفرد في مجموع من الناس يجمعهم غرض واحد أو مهنة واحدة كجماعة من الجند مثلاً . فيستعيض الفرد اذ ذاك عن روحه الفردية بروح الجماعة التي ينتسب اليها فيشعر ويفكر بعواطف وآراء مجموعه لا بعواطفه وآرائه الشخصية

قال أحد الضباط الفرنسيين مبيناً أثر العدوى العقلية :

انها لمعجزة عظيمة حين يرتدي الرجل ثوبه العسكري فان عقله يتغير فجأة ويضعف فيه شعوره باستقلاله المعنوي ويحس حاسة جديدة يجوز تسميتها حاسة الجماعة

على ان للعدوى العقلية ضرراً كبيراً وهو ان العقل يصبح بها شديد التأثر من الاشاعات والآراء المتداولة ولا سيما اذا كان الجيش في حالة ضعف او تقهقر ، اذ يكفي الجندي ان يسمع ادنى كلمة او خبر شؤم حتى يفر مضطرباً بلا نظام

# الفصل الرابع

## تأثير الاغلاط النفسانية في منشأ الحرب

---

### ١ — كلمة اجمالية عن ضعف النظر وعدم التبصر في الفعاليات السياسية

يمكن التعبير عن معظم الظواهر الطبيعية بصورة رياضية محدودة . أما الظواهر الاجتماعية فهي على عكس ذلك متشعبة الاصول والنتائج لا يمكن حصرها تحت قاعدة ثابتة تصح دائماً بحيث يمكن التنبؤ بحدوثها . حتى الحوادث القريبة يتعذر التنبؤ بها . وقليلة هي الادمغة التي تدرك سلسلة الحوادث التاريخية التي تنتج مباشرة عن حادث معلوم . فكيف بالنتائج البعيدة ! ويندر ان تجد بين رجال السياسة من يتبصر في تطور الاحوال ويدرك ما يكون من أمرها في المستقبل

بل أغرب من ذلك ان بعض الحكومات لا تعجز عن التبصر والتنبؤ فقط بل يفوتها ملاحظة الحوادث الجارية عند جيرانها مع ان لديها جميع وسائل الملاحظة والاستعلام من سفراء وملحقين حربيين وجواسيس . فمن ذلك جهل نابوليون الثالث قوة المانيا سنة ١٨٧٠ ولا ريب انه لو علمها لاجتنب تلك الحرب المشؤومة

ولو استطعنا الوقوف على نظام المانيا واستعداداتها الحربية قبل سنة ١٩١٤ — وقد كان ذلك ميسوراً لمندوبينا لو كانوا أبعد نظراً وأدق ملاحظة — لكنا قد احتطنا لهذه الحرب وأصلحنا ما بنا من خلل ونقص

ويتجلى جهل الساسة باظهر صوره فيما يختص بطباع الامم وامزجتها النفسية . فانهم يحكمون على غيرهم قياساً على أنفسهم ، ويقيسون الجميع بمقياس واحد . وقد كان معظم الحكام فيما مضى أصحاب تبصر فيما يتعلق بشؤون شعبهم وأخلاقه ولكنهم في الغالب لم يستطيعوا ان يدركوا أخلاق الشعوب الاخرى

فنابوليون مثلاً كان يفقه الروح الفرنسية ولكنه جهل الروح الروسية والاسبانية فدفعه جهله هذا الى حروب آلت بدولته الى الاضمحلال . وميزة بسمارك انه فقه —

فضلا عن الميزات النفسية لامته — ميزات الامم الاخرى . فكان علمه هذا دليلاً له يرشده الى الحد الذي ينبغي له الوقوف عنده والطرق التي تهيج الرأي العام ونحو ذلك

ان أمثلة ضعف النظر السياسي كثيرة جداً . وقد ازدادت السياسة صعوبة لتشعب أطراف السياسة الاوربية الحديثة واختلاط المصالح فيها . ومن الغريب في هذا المقام ان أحد رجال السياسة الفرنسيين كتب قبيل نشوب الحرب « ان النمسا محبة للراحة التامة فهي لا تهدد أحداً على الاطلاق »

فكيف نعلل عدم التبصر هذا ؟ ولم ذلك العجز عن فهم عواقب الامور ؟ ان السبب الاكبر في ذلك هو ان معظم رجال السياسة تحت تسلط بعض العقائد والآراء السياسية يقيسون عليها جميع الحوادث الجارية ، ولا سيما ان تلك العقائد والآراء مستمدة غالباً من رغائبهم وعواطفهم وليست مبنية على الواقع

ولو رجعنا الى معظم الاغلاط التاريخيــة وجدنا عند منشأها ضعف النظر وعدم التبصر في الامزجة النفسية الملية ، ولاسيما العوامل الروحانية والجماعية والعاطفية المتسلطة على حياة الامم . وقد جاءت الحرب الحاضرة بامثلة كثيرة تؤيد ما تقدم وسنحللها فيما بعد بشيء من التفصيل

٢ — ضعف النظر والاغلاط النفسانية في فرنسا

كثيرة هي أغلاطنا النفسانية . نذكر في مقدمتها « الوهم السلمي » الذي جعلنا نهمل استعدادنا للحرب زمناً طويلاً والذي كان الدافع الاكبر لمقاومة قانون « الخدمة ثلاث سنوات » في حين كانت الحال تقتضي ذلك القانون نظراً لخطة التهديد التي اتبعتها المانيا

ولقد كان الاعتقاد باستحالة نشوب الحرب بين الدول الاوربية منتشراً انتشاراً عظيماً حتى ان معظم الوزراء الذين تقلدوا زمام الاحكام في فرنسا وقت اعلان الحرب كانوا من الذين صوتوا ضد قانون الخدمة ثلاث سنوات . فبينما كان الالمان يزيدون عدتهم وتأهبهم كنا نحلم بسلم عام

ولقد كان المظنون — على فرض نشوب الحرب — أنه لا بد من أن تنتهي في

أجل قصير اذ ان الاسلحة الحديثة من مدافع كبيرة وصغيرة ومفرقعات الخ . لا تبيح تطويلها وان البلاد لا تستطيع ان تحيا بلا زهرة شبانها ورجالها اذ يهددها الجوع ، ونحو ذلك من الاقوال . وقد دل الاختبار على ضعف هذا النظر فلا شيء يدل على قصر أجل هذه الحرب ولا سيما ان الاهلين قد تعودوا الحياة الجديدة التي يعيشونها الآن مع ما بها من حجز الحرية والضيق المادي والتلهف وغير ذلك

وقد كان يظن — نظراً لعدد الجيوش العظيم — انه يكفي اشتباك المتحاربين في بضع معارك حتى ينال النصر فريق . وقد رأينا ان ميزة هذه الحرب خلوها من المعارك الحاسمة

قليلون هم الكتاب الذين تنبأوا بهول هذه الحرب . على انني في كتابي المعنون « روح السياسة » ذكرت الحرب المقبلة التي كنت أتوقع حدوثها . قلت :

لا يبرح ذهننا ان تلك الحرب ستكون نزاعاً هائلاً لم يعرف التاريخ مثله وانها ستقضي على فريق من الامم المتحاربة قضاءً تاماً . في تلك الحرب سيجهل الناس الشفقة ويعم التخريب في البلاد حتى لا يبقى فيها بيت ولا شجرة ولا رجل

لنضع تلك الصورة امام مخيلتنا ولنترك المتشدقين يتفلسفون في السلم العام واخاء الامم وغير ذلك من الاوهام التي تذكرنا بالمجادلات الدينية التي قامت بين اهل بيزنطه حين كان الاتراك على ابوابها

وقد بين المسيو جبريل هانوتو الوزير السابق بعض الاغلاط السياسية التي ارتكبناها قال :

كان يجب على دول الحلفاء من يوم اظهرت تركيا ميلاً الى الدولتين الجرمانيتين ان تتخذ الاحتياطات لشل يدها وفصلها عن هاتين الدولتين . فان ذلك الميل زاد الخطر على روسيا براً وبحراً وهدد انكلترا في قنال السويس والهند

ومن الغريب انه لم تؤخذ قط تدابير من هذا القبيل ، فان نيات تركيا بقيت مجهولة لدرجة ان فرنسا اقرضتها قبل الحرب قرضاً قدره ٥٠٠ مليون فرنك ، وان الدول ظلت مكتوفة الايدي في الوقت الذي لم يبق فيه شك من غرضها ولا سيما بعد دخول الغوبن والبرسلو مضيق الدردنيل . فقد كان الواجب مطاردتهما حتى الاستانة

تلك سلسلة اغلاط نشعر بعواقبها في الوقت الحاضر

٣ — ضعف النظر والاغلاط النفسانية في المانيا

رأينا كيف كان ضعف نظر الفرنسيين مجلبة لتأخرهم في بادئ الحرب . أما الالمان

فقد ارتكبوا أيضاً عدة أغلاط جسيمة كلفتهم كثيرا . وقد نشرت احدى الجرائد الفرنسية منذ بضع سنوات مقاوضة جاء فيها ان من جملة ما يعتمد عليه الالمان لاحراز النصر ما يأتي :

١ — تحزباتنا الدينية والسياسية

٢ — الحركة المضادة للعسكرية Antimilitarisme

٣ — « الاتحاد العام للعمال » وقد كان يظن ان هذه الجمعية القوية تحرض على اعتصاب الجنود والعمال في حال نشوب الحرب

٤ — انحطاطنا جسمانياً وأدبياً

٥ — اختلال النظام في جيشنا واسطولنا

٦ — معاهدنا السلمية

ويعلم القراء الآن كيف خالفت الحال ظن الالمان في هذه الشؤون . فقد أهملوا عاملاً رئيسياً ألا وهو الروح القومية التي تجمع الافراد وتهدم الحواجز بينهم

ومن أعظم الغلطات التي ارتكبتها المانيا انها لم تفكر في عواقب اختراق البلجيك الذي هاج السخط العام في انكلترا وكان الباعث الاول على اتحاد احزاب أوشكت أن تنشب الحرب الداخلية بينها

ثم ان ألمانيا لم تحسب لمقاومة البلجيك الضعيفة حساباً فتعرقلت خطة الانقضاض على باريس

وقد بينا في فصل سابق ما كان لاعتقاد المانيا بأن روسيا وفرنسا وانكلترا لن تعرض نفسها لحرب اوربية من اتخاذها خطة التهديد ونصحها للنمسا باستعمال الصرامة مع السرب

وارتكبت المانيا من جهة ايطاليا أيضاً خطأً كبيراً بامتهانها والتكبير عليها

ومن اكبر الاغلاط التي ارتكبتها استخدامها الوسائل الهمجية في البلاد التي اكتسحتها مما نفر الدول المحايدة ولا سيما اميركا ، مع ان المانيا بذلت مالها ونفوذها لاستمالة الرأي العام فيها

قال المسيو بريو الفرنسي ( العضو في الاكاديمية ) الذي ساح في اميركا بعد الحرب :

قد حدث اثناء وجودي في الولايات المتحدة تطور محسوس في العواطف . فان كثيرين من

الذين مالوا الى المانيا في بادىء الحرب قد بدلوا ان غيروا خطتهم . اذكر في مقدمتهم الاستاذ بتلر رئيس جمعة كولومبيا اعظم جامعات اميركا وقد جاهر اولاً بميله الى المانيا ولكن الحوادث اسرتته [illegible] فصبح لا يخفي اعجابه بفرنسا ومحبته لها . وقد مررت في المدن نفسها بضعة اشهر بعد زيارتي لها أول مرة فرأيت ان حرارة الضيافة والاستقبال قد ارتفعت ارتفاعاً عظيماً . . . انه كان للفظائع التي ارتكبها الالمان في البلجيك اسوأ وقع في الجمهور الاميركي

ولقد توالت أعمال الالمان الدالة على خرقهم وعدم دربتهم . فمنها منشور علماء الالمان الذي انكروا فيه اموراً جلية . ومنها غباوة بعض أساتذتهم الذين جاهروا بان المانيا ترمي الى استعمار الدول الصغيرة . ومنها تشويههم وجه الحقيقة ومبالغتهم في نشر اخبارهم ومنها الاعتذار الغريب الذي تذرع به المستشار الالماني لتبرئة نفسه من القول الشهير الذي قاله في المعاهدات وخرق الورق

على انه لايسعنا ان ننكر نجاح الالمان في استمالة تركيا اليهم وقد استخدموا لهذا الغرض عاملين ما برحا شديدي التأثير على تركيا نعني بهما القوة والمال . ولا ريب اليوم انه لو اتخذ الحلفاء من دسمبر سنة ١٩١٤ خطة الحزم والعزم تجاه تركيا لبقيت على حيادها، بل الارجح أيضاً انها ما كانت لتمنع أسطول الحلفاء من دخول الدردنيل اثر البارجتين الالمانيتين

واليك فقرة مستخلصة من جريدة التاج الالمانية نقلتها الطان بتاريخ ٢٩ مارس سنة ١٩١٥ :

كثيرة هي الغلطات التي ارتكبناها في حسابنا ! لقد كنا ننتظر أن تثور الهند عند اول طلقة نارية . وهاهم أولاء جنودها اليوم يحاربوننا بالالوف وعشرات الالوف . كنا نظن ان المستعمرات البريطانية تنفصل عن انكلترا فوجدناها تأخذ بناصرها وتسعفها . كنا نؤمل نجاح الثوار في افريقيا الجنوبية واذا بهم يفشلون . ظننا ان الحرب الاهلية تنشب في ارلندا فخاب ظننا ورأينا الفرق الارلندية على صفوف القتال . اعتقدنا ان انكلترا في حال الانحلال والتقهقر واذا بها تقاومنا أشد مقاومة

وحدث لنا مثل ذلك من جهة فرنسا وروسيا . ظننا الاولى واهية الاخلاق واهنة القوى واذا جنودها شديدو البأس . وتوهمنا ان روسيا تعجز عن اي عمل جدي وأن الشعب الروسي غير راض عن خطة حكومته فسقطت اوهامنا ازاء الواقع

# الفصل الخامس

## الاغلاط الحربية الناشئة عن الاغلاط النفسانية

١ — اثر العوامل النفسانية في الخطط الحربية

اتفق جميع النوابغ في الفنون الحربية على خطورة العوامل النفسانية في الحرب. قال نابوليون « ان معظم الاعتماد في الحرب على العوامل الادبية . فالى الحالة النفسانية والفكرية يرجع اكثر من نصف الواقع »

قد تنشأ الاغلاط الحربية عن امور شتى كقلة الذخائر والمؤن أو جهل بعض الوسائل العلمية الحديثة أو غير ذلك . على ان الاغلاط التي تنشأ عن العوامل النفسانية كثيرة أيضاً . وقد بينا في فصول سابقة خطورة بعض الاخلاق والصفات كالصبر والمجالدة والاستنباط وغيرها

ويكفي أن يكون خطأ التقدير في بادئ الحرب جسيماً حتى تتوالى حلقات الفشل . ففي سنة ١٨٧٠ مثلاً كانت الحكومة الفرنسية تعلم قوة الجيش الالماني العامل ولكنها لم تحسب الاحتياطي حساباً ظناً منها أنه أشبه بالاحتياطي الفرنسي القديم النظام في ذلك الوقت

٢ — الاغلاط الحربية التي ارتكبتها فرنسا بناء على أغلاط نفسانية

ليس بين هذه الحرب والحروب التي سبقتها أوجه شبه وجيهة ولكن على الرغم من وسائلها المستجدة لم تخرج عن فعل القواعد الجوهرية العامة التي تصح دائماً

ولا يسعنا في هذا المقام تفصيل جميع الاغلاط التي ارتكبت فنقتصر على أشدها وطأة :

لم يكن في استطاعة اركان حربنا قبل سنة ١٩١٤ أن يجهل الطرق الالمانية الحديثة ولكن هناك عاطفة أسميها « عجب الجماعة » عمت أبصارهم وجعلتهم يعتقدون تفوق الطرق الفرنسية . ولم يرجعوا عن تلك الآراء الا بعد الانكسار الاول اذ علموا انه

لا يمكن محاربة الالمان الاّ باستخدام طرقهم ووسائلهم . فقد جهل قوادنا خطورة الخنادق والمدافع والذخائر

ولا بد لنا من التسليم بأن التربية العسكرية عندنا كانت ناقصة . فان الحرب لم تكد تنشب حتى تجلت جميع ضروب النقص التي سببت فشلنا منذ ٤٥ سنة كالافتقار الى الكشافة ، والعجز عن الاستخفاء في طيات الارض ، والهجوم من بعيد بلا مساعدة كافية من المدفعية . وقد تمكنا الآن بفضل قابليتنا للتكيف السريع من اصلاح ذلك الخلل . ولو استدركنا هذه الامور قبل الحرب لاقتصدنا في مالنا ورجالنا

ولقد كان من اسهل الامور على ملحقينا العسكريين ملاحظة الطرق الالمانية في المناورات العامة ، بل ان الواجب كان يقضي عليهم بحضورها . ولكنهم لم يفعلوا ، وما ذلك الاّ لان الافكار القديمة الثابتة في الذهن تمنع قبول ما لا يوافقها من الافكار المستحدثة

ومن جملة الاغلاط النفسانية التي ارتكبها الفرنسيون اخلاءهم التحصينات القائمة حول ريمس اعتقاداً منهم بأنها غير ملائمة للدفاع عن المدينة ، فكان ذلك تمهيداً لضرب كاتدرائيتها . والحقيقة ان قليلاً من التحسين والتدبير كان كافياً لجعلها من امنع الحصون . والدليل على ذلك ان الالمان تمكنوا ان يحتفظوا بها زمناً طويلاً من غير ان يسترجعها الحلفاء . ولا يزال الكتّاب الحربيون الى اليوم لا يفقهون معنى لذلك الاخلاء . قال احدهم :

لا نعلم السبب الذي حملنا على اخلاء تحصينات ريمس الامامية وتركها في ايدي العدو حتى انه ما لبث ان استخدمها لرمينا واصبحت نقطاً خطيرة يرتكز عليها الجيش الالماني . فمن تلك الحصون ضربت ريمس بالقنابل واصيبت كاتدرائيتها المقدسة من قبل الدين والتاريخ والفن

اما الاغلاط التي ارتكبها اركان الحرب فكثيرة لان أوهامه كانت عظيمة ، ولكن اعظم تلك الاغلاط اعتقاده بان الهجوم الالماني يتم من جهة الالزاس فقد ترتب عليه حشد جميع الجيوش على تلك الحدود حين كان العدو متجهاً الينا من جهة الشمال . وذلك بالرغم من كل ما كتبه الرجال الحربيون من فرنسيين والمانيين مبينين حقيقة المقاصد الالمانية

### ٣ — اثر الاغلاط النفسانية في الحرب البحرية

وقد كان للعوامل النفسانية تأثير عظيم في الطريقة التي استخدم بها الحلفاء اسطولهم. وفي مقدمة تلك العوامل الحذر الزائد. فقد جاء برهانا على تأثير العوامل النفسية في العوامل المادية، فلا ريب انه لو اتبعت اساطيل الحلفاء في البحر المتوسط الطرادين «غوبن» و «برسلو» لكنا منذ زمن بعيد في الاستانة

واليك ما قاله الاميرال ديكوي الفرنسي مبيناً احجام اساطيل الحلفاء وخوفها :

« قد كان الواجب على اساطيل الحلفاء حال نشوب الحرب ان تتخذ خطة الهجوم والعمل بنشاط وجد... وانه كان من السهل علينا في بدء الحرب ان نضرب الاسطول النمسوي ضربة قاضية ولم يكن المانع من ذلك عدم استعدادنا البحري. وانما نقص معلوماتنا وقصر نظرنا وتحرزنا الزائد كل هذا هو الذي شل ايدينا بدلا من الاقدام — ونعني الاقدام بتبصر وهدوء ورباطة جأش — وهو الشرط الاول لكل نجاح عظيم

وقد بين الكاتب كيف ان احجام الحلفاء في بدء الحرب ولا سيما انكلترا التي كانت على تمام الاهبة والاستعداد منع من احراز نصر بحري اكيد. فقد كان الاسطول الالماني حينئذ يقوم بالمناورات البحرية بعيداً عن مراكزه التي لا غنى له عن الالتجاء اليها للتموّن والاستعداد فلو فاجأه الاسطول الانكليزي اذ ذاك لما كان ريب في نصره. ولكنه ترك للعدو مجال التحصين وبث الالغام. وحدث في البلطيق مثل ذلك أيضاً

ثم ان هذه الحرب بينت بعض الاغلاط السياسية التي ارتكبها ساسة الانكليز السالفين. وأهمها منح اللورد سالسبري جزيرة هلجولند لبسمارك سنة ١٨٩٠ (ولا يخفى مكانتها الحربية الحاضرة) مقابل اعتراف المانيا بحماية انكلترا لجزيرة زنجبار. ولعل الوزير الانكليزي ظن صفقته رابحة والحقيقة ان الفرق عظيم بين هذه الجزيرة وتلك

اما من جهة الروس فقد بين الاميرال المتقدم ذكره الاغلاط التي ارتكبوها وهي لا تقل عن اغلاط الانكليز والفرنسيين. فانهم اقتصروا على اتخاذ الخطة الدفاعية منذ بدء الحرب وقد كان في امكانهم الاتيان ببعض الاعمال الجدية. كل ذلك يثبت المبدأ الذي ذكرته سابقاً وهو ان العوامل النفسانية هي روح العوامل المادية ومحركتها. ولا تظهر قوة الماديات ما لم يكن وراءها ارادة قوية تدبرها وتدفعها الى الامام

لسنا نعني بما تقدم ان اساطيل الحلفاء لم تأت بفائدة ما اثناء الحرب . فهي مع احجامها عن الخطة الهجومية فقد كفى وجودها لمجرد توطيد سلطة الحلفاء على البحار وشل أيدي الاسطول الالماني وحصر المانيا حصراً اقتصادياً صارماً

٤ — الاغلاط الحربية التي ارتكبها الالمان

لا يسعنا الا الاعتراف بان أغلاط الالمان كانت أقل جسامة من أغلاط الحلفاء نظراً لاستعدادهم الطويل ولكنها لا تستخف مع ذلك . وقد بينا أمثلة من قصر نظرهم فيما تقدم

وقد ظن الجنرال برناردي رغم تسليمه بخطورة الخنادق ان الالمان لن يستخدموها كثيرًا . قال في كتابه « الحرب اليوم »

اما نحن فلن ندافع عن انفسنا منزوين في حفر من الارض لان عبقرية الشعب الالماني تأبى تلك الحرب . . . وانه من العسير على الجندي النشيط ان يستعيض عن المجال الواسع للعمل بالاستخفاء في خنادق محفورة تحت سطح الارض .

وقد أظهر أحد كبار الجندية الالمانية — نعني المرشال فون در غولتز — ضعف نظر بيّن في تنبؤاته في سنة ١٩١٢ أثر حرب البلقان فقد كان يجاهر لجميع الصحفيين ان الجيش التركي منصور على الجيوش البلقانية لا محالة لخطأته وقائع قرقليسه ولولو برغاس وسقوط ادرنه الخ . . .

ان ادارة العوامل النفسانية اعسر من ادارة المدافع . وقد أظهر الالمان ضعفاً من هذا القبيل واقتصرت وسائلهم النفسانية على خطة الارهاب وسنرى عواقبها في الفصول الآتية

وقد بين الكولونل فايلر السويسري سوء تدبير الالمان وجهلهم القواعد البسيكولوجية قال :

ما برحت الحكومة الالمانية منذ ١٥ شهراً تعد الشعب بنصر قريب الحدوث ولكنه لم يتم ابداً فمن ذلك وعدها بسقوط باريس في ستة اسابيع ، وسقوط كاليه ، وتخريب لندن بمناطيد تسبلن ، وحصر انكلترا بالغواصات الخ . .

# الباب السادس

## المبادىء النفسانية للطرق الحربية الالمانية

---

# الفصل الاول

## الاساس النفساني للطرق الحربية الالمانية

---

### ١ — غرض الحرب

لا يمكننا ان نرمي الالمان باهمال العوامل الادبية في المعارك . فقد عرفوا قدرها ، الا انهم لم يحسنوا دائماً استخدامها . والمبدأ الاساسي الذي اتفق عليه جميع كتابهم الحربيين هو ان غرض الحرب النصر على العدو واخضاعه بجميع الوسائل المتيسرة . قال أحدهم « يجب ان تقهر روح العدو وتذل حتى يُنتزع النصر من ايديه » . وقهر روح العدو يستدعي بعض العوامل النفسانية فضلا عن العوامل المادية

ثم ان الالمان لا يعدون الحرب وسيلة لاذلال العدو واخضاعه فقط بل هي في نظرهم أفضل طريقة تتذرع بها الامة الراقية لبيان تفوقها الادبي على سائر الامم

وكان اول من وضع هذا الرأي الفيلسوف هيجل ، ثم تلاه غيره ممن توسعوا في شرح مذهبه . واليك ما قاله احدهم في مبحث عن « الحق الادبي للحرب » :

الحرب امتحان بين الامم يكون من زمن الى آخر لمعرفة النسبة الحقيقية بين قواها ونظاماتها وبيان ما تستحقه كل منها . فالحرب اذاً تسهل ظهور الحقيقة . ذلك هو اساسها الادبي السامي الذي يبين فضلها الاكبر على التاريخ . ورب معترض يقول ان الحرب لا تدعم غير التفوق المادي . فالجواب ان الحرب الحاضرة تثبت عكس ذلك فهي تظهر ايضاً التفوق الادبي والعقلي . فالحروب هي احكام عادلة يصدرها التاريخ فيرفع بها البعض ويخفض البعض الاخر

وقبل ان نستجلي المبادئ النفسانية التي عمل بها الالمان في هذه الحرب يجدر بنا ذكر بعض المساعي التي بذلتها الدول المتمدينة لحصر اضرار الحرب بقدر الامكان

٢ — حقوق الحرب

يظهر ان الاغريق تفردوا بين الشعوب القديمة في الاعتراف للحرب بحدود وقوانين . قال بوليس « لئن كانت الحرب اضطراباً يصيب الامن والحق فان لها مع ذلك قواعد خاصة يجب أن تتبعها »

اما بقية الشعوب القديمة ولا سيما الرومانيون فلم تعرف للحرب حداً سوى ارادة المنصور . فقد كان مطلق التصرف في حياة المغلوبين وممتلكاتهم يحرق مدنهم ويخرب منازلهم ويأمر بقتلهم أو بيعهم أرقاء أو غير ذلك

ظلت الانسانية على هذه الحالة الفطرية زمناً طويلاً . ولم يطرأ عليها تغيير يذكر الاّ في العصور الحديثة فاصبح المتحاربون يتجنبون قتل غير المتحاربين ويعنون بتطبيب الجرحى الخ .

ويعلم الجميع انه اجتمع في مدينة لاهاي مجمع دولي كان غرضه سن القوانين التي يجب اتباعها في الحرب . ولا ريب في ان مقاصد القائمين بهذا المشروع جميلة تستحق المدح . ولكنهم لو أنعموا النظر لوجدوا ان أحلامهم يستحيل أن تتحقق . فقد فاتهم انه لا قيمة للقانون ما لم يكن مدعماً بقوة كافية تلجئ الناس الى احترامه والعمل به . ولا شك ان اتفاقات لاهاي تضر بالدولة التي تحترمها اذا أهملتها الدول الاخرى . ولقد علم الالمان ذلك فلم يقبلوا تلك العهود الاّ على امل أن تشل بها أيدي أعدائهم حتى يتفوقوا عليهم . ولم يخطر ببالهم أن يمارسوها بصدق واخلاص

الا انهم بانتهاك تلك الاتفاقات انما يعملون بمبادئ معظم مشترعيهم وفلاسفتهم الذين لم يخفوا احتقارهم لكل معاهدة تقف بالمنصور عند حدٍ معين . فالقوة في نظرهم حق مطلق لا يستطيع أحد أن يحصره

وجملة القول انهم قد رجعوا الى المذهب القديم الذي لا يعترف بقانون بين الاعداء. وانما الحرب عندهم مظهر من مظاهر النزاع المستمر الذي يجري في العوالم الدنيا

٣ — المبادئ النفسانية التي يعتمد عليها اركان الحرب الالماني

يكفي ما تقدم لندرك ان الاعمال الوحشية التي أتاها جنود الالمان والتي جلبت عليهم سخط العالم بأسره لم تصدر عن اندفاع جنود نشتهم خمرة النصر فقط

بل هي نتيجة مبادى وضعها فلاسفة الالمان ونشرها كتابهم الحربيون . وقد لخص الاستاذ اندلر تلك المبادئ في مقالة نشرتها احدى المجلات الفرنسية بتاريخ ١٥ يناير سنة ١٩١٥ اليك بعضها :

من اقوال اركان الحرب الالماني : ان الوجهة الادبية التي اتخذها القرن التاسع عشر ترمي الى توطيد الرحمة والرأفة بالناس الى درجة الاحساس الزائد المستهجن . وقد بذلت بعض المساعي لتطبيق تلك المبادىء على الحرب ولكن ذلك مخالف لكنه الحرب وغرضها الاصلي ... فيجب على الضابط ان يرجع الى تاريخ الحروب القديمة لمقاومة تلك الآراء المتطرفة

وقال كلوزويتس الكاتب الالماني الشهير : ان الذي يستخدم القوة والشدة بلا حجب للدماء ، لا بد ان ينصر عاجلا او آجلا — الا اذا استخدم العدو وسائله نفسها . وان لمن الجهل والغباوة ادخال مذهب التساهل والاعتدال في فلسفة الحرب

وقال الجنرال هرتمن : ان الضرورة الحربية تقضي باهمال جميع الاعتبارات التي يسعى القانون الدولي في توطيدها ... وليس للقوانين الدولية ان تعرقل الخطط الحربية ... فالحرب بطبيعتها مناقضة لجميع المبادىء التي تركز عليها المدنية والحضارة . . . ولا معنى لقول بعضهم « الحرب المتمدينة » . وان الفقر والخراب والدمار وسائل ضرورية لكسر العدو ويكفي تبريراً لها انها تؤدي الى الغرض المطلوب من الحرب

وقال كلوزويتس في موضوع الضرائب والطلب التي ينبغي فرضها على البلاد المفتوحة : لا يجب ان يقف هذا الحق الا عند حد انهاك الشعب وافلاسه وخرابه

وجاء في تعاليم اركان الحرب الالماني : قال هارتمن : ان الطلب الحربية يجب ان تشمل جميع مرافق البلاد بلا استثناء وان تستنزف ثروتها قطرة قطرة ولا ينبغي الاكتفاء بما يلزم من زاد وذخيرة. ويستخلص من ذلك ان الضرورة الحربية لا يجب ان تميز بين الاملاك العمومية والاملاك الخصوصية وان لها حق الاستيلاء على كل ما يلزم حيثما كان وبأي وسيلة كانت

وقد طبق الالمان هذه المبادئ بشدة منذ ابتدأت الحرب الحاضرة غير عابئين باحتجاج المحايدين على تخريبهم للآثار التاريخية والفنية التي تعد ملكاً للانسانية جمعاء . بل انهم دهشوا لتعرض اولئك المحايدين في أمور يعدونها لهم حقاً لا نزاع فيه

### ٤ — الوسائل النفسانية التي تستخدمها الجيوش الالمانية

كثيرة هي الوسائل النفسانية التي يستخدمها الالمان كالارهاب والمفاجأة والهجوم الليلي وغيرها ولكنها جميعها تنشأ عن مبدأ واحد وهو التأثير في نفس العدو . واليك أهم تلك الوسائل واحدة واحدة :

﴿ الارهاب ﴾ هو المبدأ الاساسي الذي يعتمد عليه قواد الالمان وهو أصل

الذابح والحرائق . ولما كنا سندرس تأثيره في فصل تال نقتصر هنا على كلمة اجمالية :

سعى الالمان منذ بدء الحرب في نشر الرهبة والخوف بين اعدائهم فخربوا المدن وقتلوا الاهلين وسجنوهم وطلبوا منهم طلبات باهظة . ولكي يلقوا الرعب في القلوب لم يترددوا في هدم الآثار المحبوبة . وانا نعلم الآن النظام الذي اتبع لتنفيذ تلك الخطة في معظم مدن البلجيك وقراها : فقد كانوا يجمعون السكان كلهم في مكان معلوم فيرمون البعض منهم بالرصاص ثم يسلبون المنازل ويحرقونها

تلك هي الاعمال التي كان يأتيها الالمان في رائعة النهار والتي يفاخر بها قوادهم . قال الجنرال فون بولو في منشور لاهالي لياج بتاريخ ٢٢ اغسطس ١٩١٤ « ان القائد الالماني الذي أحرق جهة اندن كلها وقتل مئة من الاهلين انما فعل ذلك بموافقتي التامة »

على ان هـذه الوسائل الوحشية هي خير ما يتباهى به قواد الالمان محافظة على تقاليدهم منذ قديم الزمن

﴿ جعل ميدان الحرب في أرض العدو ﴾ ولكي يتمكن الالمان من استعمال وسائلهم المتقدمة تراهم يبذلون جهدهم لجعل ميدان الحرب في أرض العدو . وهو مبدأ أساسي يعتمد عليـه اركان الحرب الالماني وقد احتاط لتنفيذه بجميع الوسائل الفعالة كالاكثار من السكك الحديدية والاسراع في حشد الجيوش وغير ذلك

ولقـد بلغ تمسك الالمان بهذا المبدأ ان حرمة البلجيك لم تقف دون تنفيذه حتى عرضوا أنفسهم لعدوان انكلترا

ولا ريب ان لمحاربة العدو في أرضه فوائد عظيمة اهمهـا الاستيلاء على مرافقه الاقتصادية ومصادره المالية . قالت احدى الجرائد الالمانية شارحة هذه المسألة :

تقضي خطتنا باستجلاب اقل ما يمكن من المانيا لتموين الجيش . والاستفادة بكل ما يمكن من البلاد المفتوحة ليس للجيش فقط بل لالمانيا ايضاً

وفي الاشهر الثلاثة الاولى كان اربعة اخماس مؤونة الجيش من البلاد المفتوحة ، ولا تزال منها الى اليوم ثلاثة اخماسها فكان جيش الغرب وحده يكسب المانيا يومياً مبلغاً يتراوح بين ٣ و ٤ ملايين مارك ( شلن ) . هذا فضلا عما يتيسر نقله الى المانيا والاستفادة به ولو اضفناه الى ما تقدم تضاعف المبلغ

﴿ الهجوم بصفوف كثيفة ﴾ ولكي يبلغ الالمان الغرضين السابقين — أي ارهاب العدو ومحاربته في بلاده — هجموا أفواجاً عظيمة متكاثفة

ان هذه الخطة تستدعي استعداداً طويلا ولا تتم بالجيش العامل وحده بل يجب أن يشترك فيها الاحتياطي كله . والارجح اليوم ان المانيا استخدمت مليونين من الجنود لاكتساح فرنسا

﴿ وسائل شتى للارهاب ﴾ لم يحجم الالمان عن استعمال جميع الوسائل التي ظنوا انها تؤثر في نفوس الاعداء فمن تلك الوسائل الهجوم الليلي والغازات الخانقة والقاء القنابل من المناطيد الخ . وقد لا يكون للوسيلة التي يستخدمونها غرض سوى التأثير المعنوي كالقاء القنابل على المدن مثلاً فقد دل الاختبار ان الاضرار المادية التي تأتيها طفيفة

ومن الاعمال التي أتاها الالمان عملاً بهذا المبدأ ضربهم بعض المدن الصغيرة على الساحل البريطاني فقد كان دون هذا العمل اخطار جسيمة كالالتقاء باسطول من اساطيل العدو أو الاصطدام بالالغام المبثوثة تحت سطح الماء . ولكن ذلك لم يثن الالمان عن عزمهم

ويمكننا أن نذكر في هذا الباب أيضاً اغراق الباخرة لوزيتانيا وغيرها . ولكن تأثيرها في نفوس المحايدين كان شديداً جدًّا حتى خسرت المانيا ما كان باقياً لها من ودّ وميل عندهم

﴿ المفاجأة ﴾ مهما يكن العمل الحربي الذي يريد الالمان اتيانه فانهم يبذلون جهدهم لاتيانه على غرة ، ولذا تراهم يكثرون من الهجوم الليلي . قال أحد الكتاب الحربيين:

لا يخشى الجيش بالنظر الى قوته بل بالنظر الى ما ينطوي تحت تلك القوة من العوامل المجهولة . فان الخوف يتأتى عن ابهام الخطر وجهل حقيقته اكثر منه عن احداقه ووقوعه

# الفصل الثاني

## تطبيق مبادىء اركان الحرب الالمانية : الاحراق والقتل والسلب

١ — قصص القتل والنهب والاحراق عن دفاتر الاسرى الالمان

ليست الحوادث التي سنأتي على ذكرها الا نتيجة الطرق التي يستخدمها الالمان والتي اساسها كلها : الارهاب

وبعض تلك الحوادث لا يتيسر اثباتها اثباتاً تاماً لا يقبل الشك . فان الالمان ينكرونها بمجملها . ولكن الادلة والبراهين قد توالت من مصادر مختلفة حتى أصبح انكارها متعذراً ، بل لدينا اعترافات صريحة وجدناها مدونة في دفاتر الاسرى الالمان ومذكراتهم

وقيمة هذه الادلة موقوفة على مصدرها اكثر من وقوفها على عددها . فاننا نعلم يقيناً ان ملوك الاشوريين كانوا يفقأون عيون الاسرى بأيديهم وان لم يكن لدينا مستندات كثيرة ، وانما يؤكد لنا ذلك اهتمامهم بتصوير أنفسهم وهم يقومون بهذا العمل فيما نحتوه من الصور على جدران قصورهم . ومثلها الاعترافات المستخلصة من الدفاتر الالمانية فانها في قوة اليقين . واليك امثلة شتى مقتطفة من بعضها ننقلها عما نشره الاستاذ بديه في « مجلة باريس » بتاريخ اول يناير سنة ١٩١٥ :

٣ سبتمبر سنة ١٩١٤ في سومبي ( جهة المارن ) — تذبيح فظيع . احراق القرية الى مساواة الارض ورمي الاهلين في المنازل الملتهبة حتى يحترقوا معها

٢٤ اغسطس — قد احرقت قرية جه دوسيس الجميلة ( في الاردن ) وان يكن أهلها أبرياء على ما يتراءى لي . فقد قيل لي ان أحدهم كان راكباً دراجة فوقع عنها فجأة فسببت الصدمة اطلاق بندقيته . فكانت نتيجة ذلك ان صوبنا الرصاص الى جهته ورمينا بالاهلين الذكور في النار . . . بهذه الطريقة هدمنا ثمانية منازل وفي واحد منها ضربنا بالحراب رجلين وامرأتيهما وفتاة عمرها ١٨ سنة وقد أوشكت تلك الفتاة ان تنال رحمتي فان منظرها كان ممتلئاً طهارة !

٢٥ اغسطس ( في البلجيك ) — قد رمينا ٣٠٠ من اهل المدينة بالرصاص واستخدمنا الباقين في مهمة الحفر . وكان ينبغي ان يشاهد منظر النساء في تلك الساعة !

وفي التاريخ نفسه نشر الجنرال ستنجر قائد الفرقة الثانية والخمسين أمراً لجنوده بقتل جميع الاسرى قال فيه :

منذ اليوم لا ينبغي ان نبقي أحداً في أسرنا بل يجب ان نقتل جميع الاسرى وجميع الجرحى سواء كان لديهم سلاح او لم يكن . وكذلك يجب قتل افواج الاسرى الذين جمعناهم خلف خطوطنا — وذلك كي لا يبقى وراءنا عدو حي

هذا قليل من كثير . وقد نشرت مقتطفات من هذا القبيل وبجانبها صورتها الاصلية بخط كاتبها حتى لا يبقى ريب في صحتها . ومن المنتظر ان ينكر الالمان كل عمل فظيع ولكن لا سبيل الى انكار ما دونه جنودهم وضباطهم بخط أيديهم

٢ — قصص القتل والنهب والاحراق من مصادر شتى

انّ الحوادث التي دونت في بعض التقارير الرسمية والمصادر الاخرى لا يمكن الاعتماد على صحتها كصحة الاعترافات المستخلصة من الدفاتر المتقدم ذكرها . ولكنها تثبت ما جاء في تلك الدفاتر ، ولذلك ننقل بعضها . واليك فقرات من تقرير اللجنة التي الفتها الحكومة البلجيكية لجمع الاخبار المتعلقة بنكبة مدينة دينان :

... وحالما انتهى الجنود من التخريب والسلب احرقوا المنازل . فلم تلبث المدينة قليلاً حتى أصبحت أشبه شيء بجمرة عظيمة مستعرة . وبالجملة ان مدينة دينان تلاشت بأسرها تقريباً — كان فيها ١٤٠٠ منزل فلم يبق قائماً منها سوى ٢٠٠

ولدى اللجنة قائمة بأسماء الضحايا الذين قتلوا في دينان وهي تحوي ٧٠٠ اسم فضلاً عن الذين لم تعلم أسماءهم . ومن ذلك العدد ٧٣ امرأة و٣٩ ولداً يتراوح عمرهم بين ستة اشهر و١٥ سنة

وقد كان في دينان ٧٦٠٠ نفس أهلك عشرهم على أقل تقدير ، فلا تجد أسرة لم تفقد أحد أعضائها وبعض الاسر تلاشت كلها

وجاء في جريدة الطان بتاريخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٩١٤ عن مذابح دينان ما يأتي :

قد قتل بعض الاسرات جميعاً رمياً بالرصاص . ولكي يتم القتل بسرعة اضطر الالمان الى استعمال مدفعين رشاشين في مكان عمومي فكانا يحصدان مئات الاهالي المجموعين في ذلك المكان رجالاً ونساء واولاداً

وفي تاريخ ٣١ دسمبر نشرت الجريدة نفسها شيئاً عن معاملة الالمان للاسرى قالت :

في ٦ سبتمبر انتزع السلاح من الفارس باكلاند ثم ربط الى شجرة وطعنه أحدهم بحربة اخترقت جوفه . وفي تامين أتي بضابط فرنسي كبير ووثق الى جذع شجرة ثم ربطت كل من رجليه الى فرس وما هي الا هنيهة حتى ضرب الفرسان وانتزعت أعضاء ذلك المسكين . قال الشاهد

مرتجفاً » ولقد رأيت بعيني لباسه يحترق وجسمه يتقطع ! »

ونشرت الفيغارو بتاريخ ٢٦ يناير سنة ١٩١٥ القصة التالية التي جرت في لونجوي :

اتي بشيخ هرم فربطت رجلاه باسلاك حديدية أدمته واركته ثم علق على باب وظل معلقاً عشرين ساعة حتى قضى نحبه ولا سميع لندائه ولا مجيب لتضرعته

ومن أفظع فظائع الالمان ما أتوه في مدينة لوفن . قال المسيو فوجلستر السويسري الذي كان يقطن المدينة اذ ذاك نقلا عن جورنال جنيف بتاريخ ٥ مايو سنة ١٩١٥ ما يأتي :

بدأ الذبح والاحراق في وقت معين اثر اشارة متفق عليها ولا يستطيع انسان ان يصف هول ذلك المنظر ! ولم يلبث الجنود قليلا حتى تمايلوا سكارى واتوا اعمالا لا يعرف لها اسم . وكان الضباط يصدرون الاوامر الى أولئك الجنود . قال الشاهد : لقد سمعتهم باذني يأمرونهم قائلين « اقتلوا واحرقوا كل ما تجدونه » وان من العسير الآن تقدير الذبائح والخسائر بتمامها . وقد كان السكان يبلغون ٤٣٠٠٠ فاصبحوا لا يزيدون على ٢١٠٠٠

وقس على ذلك

ولكي يبرر الالمان تلك الاعمال البربرية اتهموا الاهلين بانهم ناصبوهم العدوان وبادروهم برمي الرصاص . ولكن على فرض اننا صدقنا شيئاً من تحككتهم فماذا نعلل صنوف العذاب التي ذاقها السائحون الروس في البلاد الالمانية عند أوائل الحرب . فقد كتب المسيو رزانوف كتاباً يصف فيه ما تم لاولئك المساكين لخصته مجلة العالمين بتاريخ اول اغسطس سنة ١٩١٥ ، والذي يميز تلك الاعمال الفظيعة ان مرتكبيها من الضباط والمتعلمين لا من عامة الجند . ومن جملة ما ذكره الكاتب :

ان الشابات كن ينتهكن على مرأى من والديهم فاذا دفع السخط هؤلاء المساكين الى الاحتجاج والاعتراض كانوا يرمون بالرصاص للحال . وكثيرون هم الذين انتحروا او اصيبوا بخبل من بينهم . هذا فضلاً عما وصموا به بعض الرجال ومنهم بعض القناصل من الرذائل الشنيعة التي لا يجري القلم في وصفها

على ان تلك الصفات ليست من المستحدثات بين الالمان والتاريخ ينبئنا ان سلوكهم لم يكن أشد تأدباً في الحروب الماضية . قال ولنتن سنة ١٨٠٧ يصف فرقة المانية كانت تحارب تحت قيادته :

اؤكد لكم ان الاخلاق في تلك الفرقة الالمانية هي هي من قائدها الى أحط جندي فيها . فلم

تلد الارض اناساً أشد فظاعة وأحط أخلاقاً من اولئك القوم ؛ فقد كانوا يقتلون ويسلبون كل من يلقونه في طريقهم

ويشبه اكتساح الالمان للبلاد المتمدينة في هـذا العصر اكتساح أسلافهم الجرمان للامبراطورية الرومانية . فقد كان الجوع يدفعهم الى اراضيها الغنية ، وكثيراً ما كان الامبراطرة الرومان يقتلونهم أفواجاً . ويقال ان الامبراطور بروبس وحده قتل منهم ٤٠٠٠٠٠ نفس

لا ريب ان تدمير الآثار الدينية في لوفان وسواسون وريمس واراس وغيرها ما كان ليتم لولا موافقة امبراطور المانيا . ونجد تعليل ذلك في كرهه الشديد للمذهب الكاثوليكي كما يستدل من بعض كتاباته . وهذه فقرة من كتاب أرسله الى قريبة له اعتنقت ذلك المذهب : « اني اكره الديانة التي اعتنقتها واعتقد ملاشاتها القصد الاول من حياتي »

وقال في خطبة له نقلتها جريدة « لا فرانس » بتاريخ ٣ اكتوبر سنة ١٩١٤ :

ان الكنائس الكاثوليكية التي يطلب اليكم تبجيلها ليست في الغالب سوى اهانة لله القادر على كل شيء فان له فيها مقاماً ثانوياً في حين ان المقام الاول للقديسين وما هم الا اصنام حديثة احلتها الخرافات اللاتينية محل الله . بل ان في كاتدرائية ريمس صور بعض ملوك فرنسا الفاسدين في مصاف الصور المقدسة وبعضها مقدم على صورة الله نفسه

ولعل تلك الاسطر تساعدنا على ادراك شيء من البواعث التي حملت على تخريب تلك الكاتدرائية

### ٣ — الفظائع النمسوية

لم يكن سلوك النمسويين عند اكتساحهم السرب باكثر رأفة من سلوك الالمان في البلجيك . قال الاستاذ ريس السويسري ( من جامعة لوزان ) الذي درس الحوادث في مكان وقوعها :

اليك طرق القتل والتشويه التي وقفت عليها مما استعمله النمسويون : الرمي بالرصاص . الطعن بالحراب . قطع الرقبة بالسكين . الانتهاك فالقتل . الرمي بالحجارة . الشنق . الضرب المستمر . اختراق البطن . احراق الاحياء . بتر الاعضاء من أرجل وآذان وأنوف . قلع العيون . قطع الاثدية . كشط الجلد . وأخيراً رمي طفلة لم تبلغ ثلاثة أشهر من العمر طعاماً للخنازير

ويذكر القراء الفظائع التي حدثت اثناء الحربين البلقانيتين . ولكن المتمدينون

قولوا اذ ذاك ان اهل البلقان همج تعودوا الذبح والقتل منذ عهد بعيد !

على انه لا يمكن تبرير الالمان بمثل هذا العذر ولا بد من الاعتراف بان أرقى درجات المدنية لا تقلل من توحش الانسان

### ٤ — خطة الارهاب وعواقبها الوخيمة

يتذرع اركان الحرب الالمان لتبرير حوادث القتل والاحراق بقولهم ان الارهاب ضروري لتخويف المغلوب وحمله على طلب الصلح . ولقد استعمل الارهاب منذ زمن قديم في ابان الثورات وغيرها ، واستعمله الملوك أيضاً للتأثير في نفوس اعدائهم وتخويف الذين يترددون في الخضوع لهم . هذا فضلا عن ان مشاهدة الالم والعذاب مما يسر الغرائز الوحشية المستقرة في بعض الطبائع البشرية

ومن أمثلة الارهاب ما ذكرناه من ان ملوك الاشوريين كانوا يفقأون عيون اسراهم ويكلفون جنودهم كشط جلودهم وهم أحياء لتكسى بها اسوار المدينة

وقد كان الرومانيون ايام خشونتهم يعدون كل غريب عدواً وكانوا لا يرأفون بأسراهم ابداً ، ولكن ذلك التوحش تلطف تدريجاً . وقد مدح شيشرون القائد مارسلس لانه لم يمس آثار سيراكوز باذى

اما الالمان اليوم فقد رجعوا بوسائلهم الوحشية الى أبعد أزمنة التاريخ فنظموا طرق القتل والنهب والعذاب . وما برح رجالهم يبشرون بضرورة هـذه الوسائل قال بسمارك سنة ١٨٧٠ :

ان الخطة الحربية الصحيحة تقضي بضرب العدو ضربة شديدة ويجب قبل كل شيء ان يحمل أهل المدن كل ما يمكنهم حمله من صنوف العذاب حتى يسأموا القتال ويجبروا حكومتهم على طلب الصلح . فلا ينبغي ان يترك للاهلين سوى عيونهم كي تذرف الدموع

وقد علمنا كيف أتبع الالمان هذه النصائح حرفاً بحرف فاحرقوا معاً القرى والاهلين نساء واطفالاً وأذاقوهم صنوف العذاب . ومن العبث الآن ان نبحث في تلك الاعمال الشنيعة من الوجهة الادبية القانونية . وانما الميسور لنا ان ندرس نتائجها

كانت عاقبة تلك الوسائل غير ما انتظر الالمان . فقد جلبت عليهم سخط العالم اجمع وأوجدت لهم أعداء في كل مكان

زد على ذلك ان الارهاب لا يأتي بالنتيجة المطلوبة الا اذا كان قصير الاجل . فانه

اذا طال استعماله ولد في نفس العدو عاطفة البغض الشديد وهي من العوامل الخطيرة المودية الى النصر . فكل رأى الشعب المغلوب الحالة التعيسة التي أمت به فضل الموت على الرضوخ لذلك الحكم الجائر

قلنا ان المقاومة تزيد اذا طال الارهاب . هذا فضلاً عن الذكر السيء الذي يبقى في النفوس. فقد كان جزء كبير من تجارة البلجيك قبل الحرب في يد الالمان . فهل تعود اليها بعد الصلح ؟ الارجح انها لا تعود

ثم ان استعمال فريق لوسائل التوحش يفرض ان العدو ان يتمكن من دخول ارض ذلك الفريق للثأر منه . وهذه مسئلة فيها نظر ولا يدري أحد ما تخبئه الاقدار ، حتى نابوليون رب الحرب لم يلبث ان لعبت به أيدي الدهر ورمته على صخرة القديسة هيلانة

٥ — تبرئة الالمان لانفسهم

أنكر الالمان أولاً جميع ما نسب اليهم من الاعمال الفظيعة ثم أخذوا يبررونها مدعين انهم انما قابلوا تعدي الاهلين بمثله

ولا يخفى ان المستشار الالماني اتهم فتيات البلجيك على منبر الريشستاغ بأنهنّ كنّ يفقأن عيون الجنود الالمان . واتهمت الجرائد الالمانية قسوس البلجيك بأنهم كانوا يفقأون عيون الاسرى ويقطعون أصابعهم

ولكن شتان بين هذه التمحكات الفارغة والحوادث الثابتة التي اتاها الالمان !

على ان هنالك أمراً ما عتم ان نقض جميع دعاوي الالمان . وهو انه ما برح بين البروتستنت والكاثوليك في المانيا منافسة شديدة . ولما كان البروتستنت قد تعودوا ان يتهموا الكاثوليك باتيان الاعمال الشنيعة على انواعها فقد أنشأ هؤلاء منذ مدة بعيدة وكالات للتحري والتحقيق نخص بالذكر بينها مكتب باكس Pax . وبما ان التهم الموجهة ضد الاكليروس البلجيكي تعد — ان صحت — وصمة عار على الدين الكاثوليكي فقد قام مكتب باكس بتحقيق التهم المتقدمة حتى اضطر الحكومة الى الاعتراف بأن ما نسب للاكليروس البلجيكي هو محض اختلاق

ثم ان الالمان قد برروا احراق المدن المفتوحة كلوفان مثلاً بقولهم ان المدنيين تعدوا

على الجنود في حين أنه ينبغي لهؤلاء تجنب أي مداخلة في الامور الحربية . على انهم ما لبثوا مدة قصيرة حتى نقضوا تلك القاعدة بانفسهم . يدلك على ذلك اعلان نشر على سكان بروسيا الشرقية حين اكتسحها الروس جاء فيه :

عندما يتعدى العدو حدود الامبراطورية الالمانية تبدأ حرب الدفاع عن الوطن يجوز فيها استعمال جميع الوسائل . ومن الواجب على كل رجل قادر على حمل السلاح ان يصد هجوم العدو وان يطارده . وينبغي لجميع الاهلين أن يتسلحوا لجعل العدو متعباً مشغولاً . ولمنع الزاد والذخيرة عنه . واسر كشافته وتدمير مستشفياته بكل الوسائل الميسرة . ومفاجأته ومقاتلته ليلا

٦ — التعاليم النفسانية المستخلصة من طرق الارهاب

ظن فريق من العلماء ان تقدم المدنية الذي رقى العقل والعلم قد أثر في العواطف والغرائز فجاءت هذه الحرب تنقض ذلك الوهم وتبين ان القوانين او النظامات الاجتماعية تخبئ تحتها الروح الهمجية التي أورثنا اياها أسلافنا الاقدمون — حتى اذا ما خف عنها الضغط ظهرت بأشنع مظاهرها في العالم والجاهل على السواء . لان الوسائل التي ترقي العقل والعلم لا تؤثر في الغرائز والاخلاق ، والتعليم الذي يكتسبه المرء في المدرسة قلما يؤثر في عواطفه

نرى مما تقدم كيف يكون مستقبل الجنس البشري لو عمت تلك الروح الالمانية جميع الشعوب المتمدينة . ومن الغباوة أن تتمسك دولة بالقوانين الدولية والانسانية في حين ان العدو لا يعرف قانوناً يقفه عند حده

ونرى أيضاً كيف رجعت الانسانية الى الوراء وضعفت فيها الرأفة والشفقة . ويكفي للاقتناع بذلك ان تقابل الاعلانات التي كان يذيعها نابوليون بونابرت على جيشه في ايطاليا اثناء حملته عليها والاعلانات التي يذيعها قواد الالمان مرددين فيها عبارات القتل والسلب والاحراق

ويظهر جلياً ان جميع العوامل التي اعتمد عليها الناس لتلطيف العلاقات بين الدول كالروح الاشتراكية والروح الانسانية واتفاقات لاهاي الخ . لم تجد نفعاً

واننا نؤمل أن تجمع الفظائع الالمانية بعد الحرب في كتاب يتعلمه الاولاد في المدارس ولا سيما أهل المقاطعات القريبة من المانيا حتى لا يذهب عن ذاكرتنا ما يترتب على اكتساح الالمان وحتى تضطر الحكومة الى التيقظ على الدوام

# الفصل الثالث

## اثر الطرق الحربية الالمانية في المحايدين

١ — الاثر النفساني للطرق الالمانية على آراء المحايدين

لم يعر الالمان في أول الامر ادنى التفات لاحتجاج العالم أجمع على الفظائع التي ارتكبوها . فقد كانوا ينفذون خطة مرسومة لهم باقل جزئياتها

ولكن تأنيب المحايدين أخذ يتزايد حتى لم يستطع الالمان غض النظر عنه . فقد ادركت الحكومة الالمانية انه اذا كانت القوة تقدر على سحق الحق فان التمادي في استعمالها يولّد عدواناً لا يلبث ان يصبح قوة يعتد بها

علمت المانيا جلياً ان التمادي في الفظائع التي ليس لها قيمة حربية انما هو خطأ نفساني، اذ يتعذر على المانيا بعده ان ترغب في رقي مدنيتها وسيطرتها على الدول الاخرى

فحالما شعر الالمان بخطأهم سعوا بجميع الوسائل لاستمالة الرأي العام فاستخدموا لذلك الجرائد والرسائل والمحاضرات وغيرها . ولكن لسوء حظهم ان تيار السخط كان قد بلغ زخماً شديداً جداً وان فظائعهم كانت واضحة جلية يتعذر انكارها . وقد اعترف الالمان أنفسهم بفشلهم في مساعيهم فقد قالت غازت كولونيا ما يأتي :

ان المساعي التي تبذلها المانيا اليوم لاستمالة المحايدين بواسطة الصحافة قد أتت متأخرة فضلا عن كونها لا تتم دائماً بالحذاقة اللازمة

يجب الاعتراف بان مهارة الالمان — ولا سيما البروسيون — لا تنيلهم دائماً محبة الاجانب وليس من ميزات التوتون تدبر عواطف الامم الاخرى وحسن التصرف بها

وسنذكر الآن احتجاج نفر من اكابر الممثلين لشعوب مختلفة على الفظائع الالمانية . وهو درس لالمانيا ولكل دولة تود الاقتداء بها ، يبين ما تجلب الطرق الالمانية من السخط على مستعمليها وكيف تخلق لهم اعداء في جميع انحاء العالم

٢ — التأثير في اميركا

اول من نذكر رأيه المستر روزفلت رئيس الولايات المتحدة الاسبق ، فقد كتب

في جريدة نيويورك تيمس بتاريخ ٨ نوفمبر سنة ١٩١٥ ما يأتي :

لم تقترف البلجيك ذنباً ما ولكن أرضها انتهكت رغم ذلك وأخضع أهلها
ولقد ثبت الآن ان بعض المدن المفتوحة قد ضربت بالمدافع خلافاً لاتفاقات لاهاي الصريحة .
ثم ان ذلك الانفاق يمنع أيضاً معاقبة جماعة من الاهلين على ذنب اقترفه بعض الافراد ولكن الالمان دمروا مدناً بأسرها كفيزه ولوفن وايرشوت ودينان . زد على ذلك ان الالمان قصدوا الارهاب لا العقاب

وكتب الدكتور أليوت وهو من أكبر رجال اميركا ورئيس جامعة هارفرد الشهيرة سابقاً الى جريدة نيويورك تيمس بتاريخ ٢٠ اكتوبر سنة ١٩١٤ يقول :

لقد تأثر الرأي العام عندنا تأثراً عظيماً من جراء الوسائل الحربية التي يستخدمها الالمان فانه يستحيل في نظر الشعب الاميركي أن يبرر القاء القنابل من السفن الهوائية على المدن الآهلة بغير المحاربين ، واحراق أحياء المدن غير المحصنة ، وتدمير الآثار الفنية الثمينة ، وبث الالغام العوامة في البحر الشمالي وفرض الضرائب الباهظة على مدن اصبحت على شفار الخراب ، والقبض على مدنيين بدون سلاح وجعلهم رهائن بحيث اذا حدث اضطراب قتلوا جميعاً

وكتب المستر تشرش رئيس معهد كارنجي الشهير رداً على منشور العلماء الالمان الذي بعث به اليه الدكتور شابر الالماني قال :

اني أشعر بالرأفة عندما أرى المساعي العظيمة التي يبذلها الالمان لاسترجاع ثقة اميركا بهم
ألا قل لي أيها الدكتور على فرض ان الاحوال انقلبت وان جنوداً أجانب دخلوا برلين ورآهم اهلها يخربون ويقتلون هل تطلب من هؤلاء المساكين أنت والثلاثة والتسعون عالماً الذين أمضوا المنشور أن يبقوا مكتوفي الايدي ولا يثأروا من اولئك المغتصبين ؟
لم يكن لكم عذر في شهر الحرب فقد كنتم بفضل أسلحتكم وحصونكم في مأمن من تعدي أي دولة عليكم وكانت سفنكم تنقل سلعكم الى جميع جهات العالم والناس يثقون بدولتكم لانها دولة انسانية . أما الان فقد خسرتم كل ثقة ولن يتيسر لكم في نصف قرن استرجاع ما فقدتموه من المكانة الادبية والمادية

### ٣ — الرأي العام في سويسرا وغيرها من الدول المحايدة

قد كان جزء من سويسرا ميالاً للالمان ولكنه ما لبث ان تحول حالما بلغته أخبار المذابح والاحراق في البلجيك . قال المسيو روسل أحد قضاة سويسرا :

ان اكتساح لوكسمبرج رغم اتفاق سنة ١٨٦٧ واكتساح البلجيك رغم اتفاق سنة ١٨٣١ زلتان لا عذر لهما . ولا يكفي البحر كله لغسل وصمة العار التي لحقت المانيا من جرائهما
متى اصبحت الدول لا تحترم ما يعده الافراد في معاملتهم امراً مقدساً — نعني الامضاء —

فاعلم أن المدنية في خطر . اذ علام تقف الثقة في المعاملات الدولية ؟ وما قيمة المعاهدات اذا كانت عرضة لتمزيق القوي ؟ هل يكفي عذراً عن تلك الاعمال الشنيعة ان الاسلاف اتوا مثلها أو افظع منها ؟ أفليس اذاً من اثر لتسعة عشر قرناً مرت على العالم المسيحي ، والعلوم والفنون التي حصلها الانسان . ولرقي التشريع ، ولجميع ما أنتجته القرائح البشرية من الاعمال السامية ؟ . . .

وكتب الاستاذ هنري بوجي السويسري مقالة عن « الرأي في سويسرا » نشرها في مجلة العالمين بتاريخ ١٥ افريل سنة ١٩١٥ نقتطف منها ما يأتي :

منذ اول الحرب هاج سخط الرأي العام السويسري على المانيا اثر اختراق البلجيك واثر الخطاب المملوء وقاحة الذي القاه المستشار الالماني لتبرئة ذلك العمل . نعم ان فريقاً كبيراً من الاهالي والصحف في الجزء الالماني الاصل من سويسرا كان ميالاً في البدء الى المانيا نظراً للرابطة الجنسية واتفاق المصالح . ولكن بعد الفظائع التي ارتكبت في البلجيك وفرنسا — بعد تخريب مالين ولوفان وتتويج هذه الاعمال بضرب كاتدرائية ريمس — تحول الجزء الاكبر من الاهلين والصحف على الالمان واحتج الكثيرون على تلك الفظائع ، حتى ان الاستاذ فتر نفسه وهو اكثر السويسريين ميلاً الى الالمان كتب رسالة مفتوحة شديدة اللهجة الى علماء المانيا اثر جريمة انتهاك لوفان

اما الدول الاخرى المحايدة كهولندا والدانمرك ونروج فلم يكن الرأي العام فيها جلياً واضحاً كما كان في اميركا وسويسرا . على انها قريبة جداً من المانيا تخشى صولتها وتوحشها . ومثال البلجيك كاف لمنع الناس فيها من ابداء آرائهم بحرية

أما في اسبانيا فقد انقسم الناس حزبين وقد كان الكاثوليك — على الاقل في اول الامر — متعصبين لالمانيا . ويجدر بنا هنا ذكر شيء مما كتبه رامون كاجال اكبر علماء اسبانيا قال :

قد كان أسلافنا سكان الكهوف يسلبون ويقتلون بصراحة من غير أن يزيدوا المصاب بنظريات وكتب فلسفية . أما اليوم فان المتمدين لما شعروا بقوتهم اخذوا ينشرون المؤلفات الطويلة ليس فقط لتبرئة جريمتهم وعسفهم بل ليبرهنوا على انهم شعب مصطفى من بين سائر الشعوب يجوز له ما لا يجوز لغيره

# الباب السابع

## مجهولات الحرب

---

# الفصل الاول

## النتائج المباشرة للحروب الحديثة

---

### ١ — تمهيد

كثيرة هي نتائج الحروب الحديثة، وتأثيرها شديد مستمر. فقد شعرت فرنسا بوطأة انكسارها في سنة ١٨٧٠ مدة نصف قرن تقريباً

ومن المستحيل الآن استجلاء عواقب الحرب الاوربية كلها فسأقتصر على خلاصة اذكر فيها ما بينه الاختبار من النتائج المتشعبة التي تنشأ عن الحروب الحديثة، والنفقات التي تستدعيها، والاثر النفساني الذي يترتب عليها

على انه يتعذر مشابهة الحرب الاوربية بالحروب السالفة. فان التاريخ لم يعرف نزاعاً بلغ ضخامتها وهولها. فلا عجب ان تكون نتائجها فريدة في عظمتها وشدتها. وان لمن العسير اليوم استكشاف تلك النتائج — سواء في ذلك المادية والنفسية — نظراً لتشبكها وتداخلها

### ٢ — آثار الحروب الحديثة

كان حشد الجيوش في الزمن القديم أمراً سهلاً جداً. فقد كان كل جندي يحمل معه أسلحته وزاده الضروري وهو في الغالب قاصر على كمية من الدقيق يخبزه بنفسه اذا لم يتمكن من الحصول على شيء في البلاد التي يمر فيها. ومتى حاصر الجيش احدى المدن كان يصنع الآلات اللازمة له في اثناء المحاصرة — كالمنجنيق مثلاً وغيره

اما اليوم فان الجنود والمؤن والذخائر والزاد اللازمة تستدعي مدينة متنقلة تحوي المعامل والمخازن والبوسطة والتلغراف والمستشفيات الخ . فكل هذه العناصر لا بد من وجودها خلف صفوف القتال ولولا ذلك لتعذر القيام بأقل عمل حربي

ونظرًا لاتساع ميادين القتال وما تستدعيه من انتقال الجنود بلا انقطاع قد أصبح من الضروري وضع نظام واسع متشعب للسكك الحديدية والاوتوموبيلات حتى يتيسر تموين الجنود ونقل الجرحى بسهولة

ان الاوردي المؤلف من ٤٥٠٠٠ رجل و ١٢٠٠٠ فرس وألفي عربة يبلغ طوله على الطريق المستطيل خمسين كيلومترًا . ولكي ينتقل يلزمه مئة قطار حديدي على الاقل

وجملة القول ان نظام النقل أصبح من الخطورة في المكان الاول . ويعلم الجميع ان نقصه كان من البواعث على تقهقر الجيوش الروسية بعد دخولها غاليسيا في حين ان وسائل النقل عند الاعداء كانت متوافرة تمكنهم من نقل جيوشهم بسرعة عظيمة من مكان الى آخر

ولكل اوردي في الجيش اركان حرب ( مؤلف من ٥٠ ضابطاً و ٣٠٠ رجل و ٢٠٠ فرس و ٣٥ عربة ) تصدر منه جميع الاوامر والخطط

والاوردي هو وحدة مستقلة ، ولما كان لا يحمل زادًا وذخيرة لأكثر من ثمانية ايام فلا بد خلفه من ادارات ومصالح لتموينه . ويتلقى قائد كل اوردي أوامره مباشرة من القائد العام اما تلغرافياً أو تلفونياً

ولكي يدرك القارئ خطورة السكك الحديدية يجب أن يذكر ان حشد الجيوش الفرنسية في عشرين يوماً استدعى سفر ١٠٠٠٠ قطار

ولا يبرح الذهن ما يترتب على شغل وسائل النقل بتوريد المؤن والمهام الحربية من التغيير المحسوس في حياة الامة وعلاقاتها الداخلية والخارجية اذ تصبح المصانع والمعامل ولا همّ لها سوى تموين الجيوش . فينجم عن ذلك نقص عظيم في الصادرات كما حدث لالمانيا وفرنسا فقد هبطت فيهما الصادرات هبوطاً عظيماً . ومن جهة اخرى فقد ازدادت الواردات لان الدول المحايدة تجلب من الخارج كل ما تستطيع جلبه . ولما كان التصدير يزيد الثروة الاهلية لان ثمن الصادرات يأتي من الخارج ويضاف الى تلك الثروة ، وعكسه التوريد لأنه يستلزم خروج المال لدفع ثمن الواردات ، فالحرب

تؤول حتماً الى انفاق الثروة الموجودة

كانت المانيا تصدّر سنوياً قبل الحرب ما قدره ١٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك وتستورد بنحو هذا القدر . أما الآن فانها لا تستطيع الاّ تصدير شيء قليل للدول المحايدة في حين انها تضطر الى استيراد اشياء كثيرة منها . فكان من نتيجة ذلك انها لجأت الى الاقتراض وارسال الذهب الى الخارج لدفع ثمن مشتراها . ولا يمكن ان تدوم هذه الحال طويلاً لأن المخزون من الذهب عند كل دولة محدود القدر

٣ – اثر الحروب في الشعوب

كان اثر الحروب فيما مضى محصوراً في قسم صغير من الشعب ، فقد كانت صعوبة النقل تجعل مقاطعات الدولة الواحدة كأنها منفصلة بعضها عن بعض

ولم يكن أعظم الجيوش اذا ذاك يتجاوز عددها مئة ألف . اما اليوم فبفضل وسائل النقل أصبح ملايين الرجال يزحفون على مقاطعات برمتها ينشرون فيها الخراب والدمار . وقد نال المقاطعات الفرنسية التي اكتسحها الالمان قسط وافر من النهب والتخريب وقدر الالمان أنفسهم قيمة المسلوب في البضعة الاشهر الاولى للحرب بنحو مليارين من الفرنكات . أما البلجيك فقد قدر أحدهم ما فقدته اثناء الاثنين والثمانين يوماً الاولى بنحو ٥٤٠٠٠٠٠٠٠ فرنك ولا يخفى ان المانيا ما برحت منذ ذلك الحين تستنزف البقية الباقية من ثروة ذلك الشعب النشيط

وقد حلّ ببولونيا وغاليسيا وارمينيا مثل ما حل بالبلجيك وشمالي فرنسا . واليك فقرة من جورنال جنيف بخصوص بولونيا قالت :

قد شملت الحرب ثلاثة أرباع بولونيا ويقال ان ٥٠٠٠ قرية و ٢٠٠ مدينة قد دمرت واحرقت وسلبت . . . ولم يعد في تلك البلاد صناعة أو تجارة تذكر بل انك تجد الفقر والجوع والامراض حيثما سرت . ويؤكد بعض الشاهدين انه قد مات من الاهلين في بولونيا أكثر مما قتل من الجنود

واذا كان هذا ما تم في البلاد المتمدينة فليتصور القارئ ما حلّ بالبلاد الارمينية البعيدة عن الحضارة . فقد بلغ فيها الذبح والاحراق والسلب والهتك والجوع والفقر من الهول والفظاعة ما لم تره عين ولم تسمع به اذن

٤ — خسارة الرجال

قد فاقت الخسارة في هذه الحرب كل ما دونه التاريخ . على انه من العسير الآن الحصول على ارقام صحيحة . واليك ارقاماً رسمية عن خسارة فرنسا في ١٥ فبراير واول مايو سنة ١٩١٥ :

| | لغاية ١٥ فبراير | لغاية اول مايو |
|---|---|---|
| قتلى | ١٨٦ ٥٤١ | ٣٢٧ ٠٠٠ |
| جرحى | ٤١٥ ٨٦٣ | ٥٩٢ ٠٠٠ |
| اسرى ومفقودون | ٢٤٣ ٣٢١ | ٣١٧ ٠٠٠ |

ولا يدخل في ذلك خسارة معركة اراس ( يوليو سنة ١٩١٥ ) ومعركة شمبانيا ( سبتمبر سنة ١٩١٥ ) . وعلى فرض ان نصف الجرحى يعودون الى ساحات القتال يصح القول بان خسارة فرنسا في السنة الاولى للحرب بلغت مليوناً

أما المانيا فخسارتها تبلغ اكثر من ضعفي خسارة فرنسا في المدة نفسها لانها تحارب في ميدانين معاً اولاً ولانها تهاجم بصفوفها الكثيفة ثانياً

وبجمع خسارة الدول المتحاربة كلها يظهر انها لا تقل عن ستة ملايين من الرجال للسنة الاولى ، هذا فضلاً عن الاسرى

وشتان بين هذه الارقام وخسارة اعظم المعارك السالفة . خذ مثلاً معارك نابوليون الكبرى كينا وواجرام مثلا فلم تزد خسارة الاعداء في واحدة منها على ٣٠ ٠٠٠ ، الا في معركة ليبسيك حيث بلغت خسارتهم ٦٠ ٠٠٠

ان اعظم المعارك الماضية أشبه اليوم باشتباك بسيط بين الكشافة تذكره البلاغات الرسمية في بضعة اسطر

٥ — نفقات الحروب الحديثة

البون شاسع بين نفقات هذه الحرب ونفقات الحروب الماضية . فان حروب نابوليون مدة عشرين سنة لم تكلف انجلترا اكثر من ٢١٥ مليار فرنك . وبلغت نفقات حرب القرم مليارين ، وحرب الترنسفال نحو الخمس مليارات

اما اليوم فان نفقات اليوم الواحد تقدر بملايين الجنيهات . قال المسيو هلفريخ المالي الالماني في خطاب القاه بمجلس الريشستاغ بتاريخ ٢٠ اغسطس سنة ١٩١٥

« ان نفقات شهر واحد تزيد الثلث على مجموع نفقة حرب سنة ١٨٧٠ »

ومن أهم ابواب الانفاق المدافع والذخائر . فان المدرذنوت الواحدة تحرق ١٩ طناً من الفحم في الساعة اذا كانت سائرة على أعظم سرعتها . وفي كل ساعتين تقدر ان تطلق ١٥٠ مدفعاً من مدافعها الاثني عشر وقيمة ذلك خمسة ملايين فرنك . وقيمة الطلقة الواحدة من مدفع ٣٠٥ مليمترات يزيد على خمسة آلاف فرنك . اما مدافع ٧٥ الصغيرة فان القنبلة الواحدة من قنابلها تقدر بثلاثين فرنكاً

وقد نشر احد الاختصاصيين في جريدة الماتان بتاريخ ٩ يوليو سنة ١٩١٥ التقديرات التالية :

ذكر بلاغ رسمي فرنسي صدر في ٢٧ يونيه ان مدافعنا اطلقت في ٢٤ ساعة ٣٠٠٠٠٠ قنبلة في جهة اراس . وهذا القدر يعادل تقريباً كل ما اطلقته مدافع الميدان في حرب سنة ١٨٧٠ ويبلغ وزن هذه القنابل ٤٥٠٠٠٠٠ كيلوغرام أي ان نقلها قد استلزم ٣٠٠ عربة كبيرة من عربات السكة الحديدية . ولو نقلت على طريق العربات لزم لها ٤٠٠٠ عربة يجر كلا منها ستة رؤوس من الخيل . وتقدر نفقة هذه القنابل بنحو ٩٣٧٥٠٠٠ فرنك

وهناك امور كثيرة تفردت فيها هذه الحرب . فمن ذلك ان العالم الكيمي الكبير السير وليم رمسي بيّن في اكتوبر سنة ١٩١٤ ان المانيا تنفق يومياً الف طن من القطن لاجل صنع الذخائر الحربية . وانه لو منع الحلفاء توريده الى المانيا لاضطرت الى التسليم في افريل من السنة التالية

ومن أبواب النفقة ما فرض على الحكومات من اعالة اسر الجنود فقد انفقت الحكومة الفرنسية وحدها في هذا السبيل ١٣٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك ( أي ثلث الميزانية السنوية المعتادة ) الى تاريخ ٣٠ يوليو سنة ١٩١٥ ووزعتها على ٣٢٥٣٣٦٧ نفساً

تلك ارقام تساعدنا على ادراك ما تستلزمه الحرب من النفقات الباهظة . وقد اضطرت جميع الدول المتحاربة الى عقد القروض . وفي امكانها ان تكرر هذا الاقتراض الى ان تستنفد مال الجمهور والمصارف فيضطر احد الفريقين الى التسليم حتماً ولا شك ان هذا العامل سيمنع دوام الحرب زمناً طويلاً كحربي الثلاثين سنة والمئة سنة فيما مضى

### ٦ — مدة الحروب الحديثة

فنرى مما تقدم ان هذه الحرب سوف تنتهي بفعل العوامل الاقتصادية لا الحربية.

فان حرب الخنادق لم تبق الا املاً ضعيفاً بتفوّق أحد الفريقين تفوقاً بيناً . والميسور لكل منهما انما هو فل قوى الآخر تدريجياً . فالفريق الذي تضعف قواه قبل غيره هو المغلوب

ورب قائل يقول ان حروب نابوليون دامت نحو عشرين سنة فالجواب ان وسائل التخريب كانت قليلة وفعلها كان محصوراً . فقد خسرنا في سنة واحدة من المال والرجال اكثر مما فقدته فرنسا في طول تلك المدة

وتختلف مدة الحروب التي توالت منذ نصف قرن : فحرب القرم سنة ١٨٥٤ استغرقت سنتين وحرب الترنسفال ( ١٨٩٩ ) سنتين ونصف . ودامت الحرب الاهلية الاميركية خمس سنوات . غير ان معظم الحروب الاخرى انتهت في مدة أقصر من تلك . فحرب السبعين بين فرنسا والمانيا لم تدم اكثر من ستة أشهر والحرب الروسية اليابانية ( ١٩٠٤ ) دامت ١٨ شهراً والحرب الاسبانية الاميركية ( ١٨٩٨ ) أربعة أشهر والحرب البلقانية الاولى ( ١٩١٢ ) خمسة اشهر ، والثانية ستة أسابيع

ولعل أقرب تلك الحروب الى هذه الحرب هولاً وفظاعة الحرب الاهلية الاميركية بين ولايات الشمال وولايات الجنوب . فانها لما انتهت سنة ١٨٦٥ كان لدى الولايات الشمالية مليون جندي ولدى الولايات الجنوبية ٧٠٠٠٠٠ جندي . وقد زادت خسائر الفريقين على المليون . وبلغ التحمس فيها مبلغاً عظيماً جداً حتى ان النساء بعن حليهنّ وكل ما لديهنّ واقترحن اخيراً ان يحلقن شعورهنّ لتباع في الاسواق الاوربية

# الفصل الثاني

## غوامض المعارك الحربية

١ — قيمة البلاغات الرسمية عن المعارك

لست أبغي في هذا المقام وصف معارك الحرب الاوربية وانما غرضي ان استخلص منها بعض التعاليم البسيكولوجية . فمن تلك التعاليم اثر الارادة في الخطط الحربية ، ومنها العواقب الوخيمة الموقوفة على ضعف النظر . وقد وجدت في تلك الوقائع ايضاً ما يثبت النظرية الآتية وهي انه من المستحيل ان نعرف بالضبط تفاصيل الحوادث متى كان مشاهدوها يعدون بالآلاف ، ولا شك ان معلوماتنا عن حقيقة الحوادث التاريخية الكبرى قاصرة جدا

ولا يمكن الاعتماد على البلاغات الرسمية التي يصدرها الفريقان لسببين : اولاً لان الدولة قد تضطر الى التكتم والسكوت إما لأغراض حربية او لتستر انكسارها أو تقهقرها ، وثانياً لان بعض الدول تتعمد تشويه الحقيقة والكذب في بعض الاحيان خشية تهييج الرأي العام . وقد أظهر الالمان براعة خاصة في هذا الفن

ومن سيئات خطة التكتم والسكوت ان انكشاف الحقيقة محتم عاجلاً أو آجلاً . ولعل اركان حرب الجيش الفرنسي كان مخطئاً في بدء الحرب اذ التزم خطة السكوت حتى ان السواد الاعظم من الفرنسيين لم يدروا ان الالمان كانوا على مقربة من باريز الاّ بعد انتصار المارن . ومن جهة أخرى فقد كانت البلاغات تنشر أخبار السفك والنهب والاحراق وسائر فظائع الالمان ، فكأنها بذلك خدمت الالمان الذين كانوا يتمنون بلا شك القاء الرعب في قلوب الفرنسيين حتى لا تطول مقاومتهم

غير أن لاركان الحرب عذراً في ذلك. فقد دلت الحوادث السابقة على ما قد ينجم عن ضغط الرأي العام من التدابير السيئة . ففي سنة ١٨٧٠ كان الرأي العام سبباً في انتخاب القائد بازين لقيادة الجيوش الفرنسية ، وفي ارسال الجنرال مكماهون الى سيدان

وغير ذلك من الغلطات . كذلك حدث في الحرب الاسبانية الاميركية فان الرأي العام هو الذي دفع الحكومة الى ارسال الاسطول الاسباني الى كوبا . ولما كان ميناؤها ضيقاً فلم تتمكن البوارج الحربيـة من الخروج لاّ واحدة واحدة فكان كسرها من أسهل الامور على الاسطول الاميركي

٢ — معركة المارن وتضارب الآراء فيها

وهناك عوامل اخرى تجعل تدوين الحوادث بالضبط صعباً جداً . بل قد تتضارب أقوال قائدين اشتركا في معركة واحدة ، اذ يسعى كل منهما في بيان فضله ومهارته . وقد يفعل ذلك مدفوعاً بدافع داخلي من غير أن يشعر به

وأفضل مثال نقدمه على صعوبة ادراك الحقيقة معركة المارن فان وقائعها لا تزال غامضة الى اليوم ويحسن بنا في هذا المقام ان نراجعها لعلنا نستطيع استجلاءها :

يعلم القراء ان اركان حرب الجيش الفرنسي كان يتوقع هجوم الالمان من جهة الالزاس . وليس هذا مقام البحث عما بعث على هـذا الوهم ولا سيما ان الكتاب الحربيين من الالمان ( وفي مقدمتهم الجنرال برناردي ) بينوا صريحاً الخطة التي يتبعها الجيش الالماني في حال محاربته الجيش الفرنسي. وقد تُرجم كتاب الجنرال برناردي عن « الحرب اليوم » الى اللغة الفرنسية ونشر في سنة ١٩١٣ ووردت فيه تفاصيل الهجوم الالماني كما تمّ فعلاً في صفحة ٣٣٧ من الجزء الثاني

كان غرض الالمان الاول الاستيلاء على باريز لأنه يؤدي الى نتيجة حاسمة . وكانوا يعتقدون انه متى تمّ لهم ذلك تضطر فرنسا الى التسليم وعقد الصلح فيتسنى لهم اذ ذاك التحول الى جهة روسيا وقهرها . وقد ثبت اليوم من مصادر مختلفـة ان الالمان كانوا عازمين على احراق باريس حياً حياً لحمل الحكومة على قبول الصلح . وقد فصّل تلك الخطة كل من المسيو ترو ليو عضو مجلس الشيوخ في جريدة لافرنس بتاريخ ٢ افريل سنة ١٩١٥ والمسيو لافيس المؤرخ الشهير في مجلة باريس ، واليك مجملها :

كان غرض العدو ان يحرق اقسام باريس السبعة القسم بعد الاخر . فاذا لم تقتنع الحكومة الفرنسية بضرورة الصلح بعد احراق القسم الاول أحرقوا القسم الثاني وهلم جرا . ولم يبق ريب اليوم انهم كانوا ينوون اتيان هذا العمل الشنيع . ولا غرابة في ذلك فقد قال أحد أسلافهم وهو القائد جنسريك الجرماني منذ مئات السنين « ان دافعاً داخلياً يدفعني الى احراق رومة »

ولا شك انه لو تمت تلك الاماني الوحشية لكان ذلك الحادث من أعظم حوادث التاريخ، ولكانت نتائجه أعظم من نتائج استيلاء الاتراك على الاستانة سنة ١٤٥٣

ولكن باريس لا تزال قائمة والحمد لله . وقد تمّ خلاصها بعوامل يجدر أن تتخذ حجة على الذين يعتقدون بان مجرى التاريخ مرسوم لا يستطيع الانسان تحويله . فان ارادة الانسان قد تأتي بالمعجزات وتقف في سبيل امور تعد مقضية

وقد كانت خطة القائد العام للجيش الفرنسي تقضي بالتقهقر الى جنوبي باريز . ولكن تلك الخطة تغيرت فجأة اذ وقف التقهقر اثر اتجاه ميمنة الجيش الالماني بقيادة فون كلوك الى الشرق بعد أن كان المتوقع هجومه على باريس . وهنا يعترض الباحث سؤالان خطيران : ( ١ ) لماذا رجع القائد العام الفرنسي عن مواصلة التقهقر وفقاً لخطته الاولى ( ٢ ) لماذا عدل الجنرال فون كلوك عن مهاجمة باريس واتجه شرقاً بعد أن أصبح على أبوابها

اما السؤال الاول فليس من السهل الاجابة عليه ولدينا تعليلان معقولان : فالتعليل الاول هو ان الحكومة الفرنسية طلبت الى القائد العام وقف التقهقر . والتعليل الثاني هو ان القائد العام اغتنم فرصة تحول الجنرال فون كلوك شرقاً فهاجمه . ولعل الاصح ان هذين العاملين اتحدا معاً

بقي السؤال الثاني : لماذا عدل الجنرال الالماني عن الهجوم على باريس بعد ان أصبح على أبوابها ؟ يعتقد فريق من المؤمنين ان ذلك تمّ باعجوبة الهية . والحقيقة ان مرجعه عوامل حربية وبسيكولوجية

اننا نعلم يقيناً ان الجنرال فون كلوك كان على ثقة من دخوله باريس فلماذا عدل عنها ؟ لا بد لنا هنا من التخمين : فربما فضّل ذلك القائد ان يضيف الى الاستيلاء على باريس فخر الاحداق بالجيش الفرنسي وأسره . الا أنه لم يحسب حساباً لجيش الجنرال مونوري الذي تألف بسرعة عظيمة من عناصر مختلفة وأرسل لمهاجمة ميمنة جيش فون كلوك التي لم تكن محمية كما ينبغي

هذه كلمة اجمالية ولن يتسنى لنا الوقوف على حقيقة هذه المعركة العظيمة الا بعد زمن طويل . على ان الذي لا ريب فيه هو انها أعظم حادث حدث في تاريخ فرنسا وقد جاءت دليلاً على ان الانسان قادر بعزمه وارادته على توجيه تاريخه

# الفصل الثالث

## عقبات الصلح

### ١ — صعوبة الصلح

دون الصلح عقبات كؤود قد لا تظهر لاول وهلة ، حتى على فرض ان الجيوش الالمانية قد كسرت كسرًا تاماً وان الحلفاء دخلوا برلين . فانه من العسير ان يضمن الحلفاء دوام الصلح وان تتلاشى في الالمان فكرة الثأر من فرنسا وحلفائها . وقد وقع نابوليون في مثل هذه الحال اذ ظن نفسه قد امن شر بروسيا بعد سحقها في يانا ولكنه ما لبث بضع سنوات حتى دخلت الجيوش البروسية باريس

والذي يتراءى لنا هو ان هذه الحرب بدء سلسلة حروب أخرى قد تدوم زمناً طويلاً ويتخللها فترات سلم . ولكي تكون تلك الفترات طويلة بعض الطول — أي نحو ١٠ أو ١٥ سنة — يجب ان يكون أحد الفريقين منهوك القوى ومفلساً افلاساً تاماً . ولقد عرف التاريخ حروباً لم تنته الا بالخراب التام في احدى الجهتين . نذكر منها الحرب الاهلية الاميركية . قال أحد مؤرخيها :

سوف يذكر الاميركان طويلا حربهم الاهلية التي دامت خمس سنوات . تلك الحرب التي خاض غمارها الفريقان بعزم وحزم شديدين الى ان فرغت مرافق الولايات الجنوبية واستنفدت مالها ورجالها

ولا شك ان الصلح المبكر وخيم العواقب للحلفاء . يكفيك برهاناً على ذلك ان تطلع على مرامي المانيا وامانيها . وهذه شروط للصلح الالماني ذكرها الكونت برنستورف سفير المانيا في الولايات المتحدة قال :

يجب ان تكسر فرنسا وتجعل دولة صغيرة كالبرتغال حتى ولو استدعى ذلك قتل خمسة ملايين من الفرنسيين . وان تنزع منها مقاطعات كبيرة يبلغ عدد سكانها ١٥ مليوناً . وان تدفع غرامة قدرها عشرة مليارات . وان تشتري أسلحتها من المانيا . وان تجبر على هجر انكلترا وروسيا • وان تعقد محالفة مع المانيا تربطها لمدة ٢٥ سنة . . .

واليك فقرة من مذكرة سرية أرسلتها الجمعيات الكبرى الزراعية والصناعية الى المستشار الالماني بتاريخ ٢٠ مايو سنة ١٩١٥ . قالوا :

يجب اخضاع البلجيك لالمانيا اقتصادياً . وان تضاف الى البلجيك البلاد الفرنسية المحاذية لها . وان تستولي المانيا على الحصون الكبيرة ولا سيما فردون وبلفور . وان يطرد الفرنسيون القاطنون تلك الجهات ليحل محلهم الالمان . أما من جهة روسيا فيجب الاستيلاء على بولونيا وعلى ولايات البلطيك

وقد وافق على هذه الشروط عدد كبير من اساتذة الالمان في منشور أمضوه ، بل زادوا عليها الاستيلاء على جميع المستعمرات الفرنسية

ويستدل أيضاً على مرامي المانيا من خطب المستشار ووزير المالية في مجلس الريشستاغ وخلاصتها انه يجب افلاس العدو واستنزاف موارده . وقالت غازت فوس الالمانية بتاريخ ١٩ اغسطس أثر خطاب المستشار الالماني ما يأتي :

لما كنا نحن الشعب الامثل فالواجب علينا من الآن فصاعداً ان نقود الانسانية بأسرها وانها لخطيئة لا تغتفر لنا اذا حابينا شعوباً أحط منا

فلا يجب ان تبرح من ذهننا تلك الاقوال وأمثالها . وقد أصاب رئيس الجمهورية الفرنسية اذ قال في احتفال ١٤ يوليو سنة ١٩١٥ :

ألا فليعلم اعداؤنا — ولا يغتروا — ان فرنسا لن ترضى بصلح مؤقت لا يكون الا تمهيداً لحرب افظع واعظم من هذه الحرب ولا تستطيع ان تبقى حياتها مهددة لهجمات جديدة واخطار مهلكة

## ٢ — اسباب الحروب الآتية

مهما تكن شروط السلم التي يتفق عليها الفريقان فسوف تكون العقدة الكبرى للدول الاوربية بعدئذ ابعاد أسباب الحرب بقدر المستطاع

ويرجح الآن انه سيكون لمبدأ الجنسيات شأن كبير في تكوين خريطة اوربا الآتية عوضاً عن مذهب التوازن الدولي القديم العهد

ان مبدأ الجنسيات ( الذي يقضي بجمع اهل الجنس الواحد معاً ) صحيح نظرياً ولكن يتعذر العمل به في بعض الجهات التي اشتد فيها اختلاط الشعوب المختلفة ، كالبلقان مثلاً . وستظهر مشاكل سياسية — في القارة الاسيوية — فضلاً عن المشاكل الاوربية ، ولا سيما بين اليابان والصين . وقد نالت اليابان امتيازات

اقتصادية خطيرة في البلاد الصينية أثر الخلاف الذي حدث اثناء الحرب الاوربية . وسيكون من نتيجتها ان يسيطر اليابانيون على الاسواق الصينية — وهي أهم اسواق اسيا — ويقل فيها النفوذ الاوربي

٣ — رأي الكتاب الاجانب في نهاية الحرب وحالة اوربا بعد السلم

مستقبل اوربا مظلم يتعذر استجلاؤه في الوقت الحاضر . فكل يرى بشأنه رأياً يتفق مع مزاجه وعقله . على انه يحسن بنا ان نلقي نظرة على تلك الآراء . وسأنتخب منها ما كان صادراً من رجال معروفين

قال الاستاذ ماير ( من جامعة برلين ) ما يأتي :

نعلم امراً اكيداً وهو ان رجوع الحال على ما كانت مستحيل : فسوف يختلف شكل العالم عما عهدناه . وستنشأ مشاكل جديدة ينبغي حلها وتستيقظ مسائل كان يظن انها حلت حلاً نهائياً

سيكون بين نتائج هذه الحرب التي شهرتها انكلترا ( ! ) ازدياد نفوذ اليابان وتقدمها تقدماً عظيماً جداً ومن ثم يبدأ نزاع عظيم للسيطرة على المحيطين الباسفيكي والهندي . فتكون انكلترا بتحالفها مع اليابان كأنها قوت عدوها وهددت حياتها وحياة المدنية الاوربية

وكتب الكونت اندراسي المجري مقالة عنوانها « الحرب العالمية والحرية » بيّن فيها ان الخطر المقبل ليس من جهة اليابان بل من جهة روسيا صاحبة الاراضي الواسعة والموارد العظيمة . قال « متى تنظمت تلك القوى الكامنة أصبحت اكبر خطر يهدد اوربا »

اما من جهة المانيا فالمسئلة هي : هل تنحلّ وتستقل دولها وإماراتها ام تبقى تحت النفوذ البروسي ؟ يعتقد المسيو باينس سفير البلجيك في برلين سابقاً ان الارجح بقاؤها متحدة لما استفادته جميعاً من ذلك الاتحاد قال :

لقد كانت الحماسة في المقاطعات الالمانية غير بروسيا تعادل حماسة اهل بروسيا انفسهم بل ان المظاهرات كانت اشد دفعاً في مونيخ ( عاصمة بافاريا ) منها في برلين . وكذلك في درسدن ( عاصمة ساكس )

ويجدر بنا ان نذكر أقوال الاستاذ استريث فانه من الالمان القليلين الذين لم يتعاموا عن حقيقة الحال قال :

لنفرض ان المانيا نصرت نصراً تاماً او لنفرض ان الحلفاء هم الذين احرزوا النصر فهل

يمكن ان تدوم الحال ؟ لا نظن ذلك ممكنا فان المانيا لن تستطيع وحدها الوقوف في سبيل الشعوب الاسيوية . كذلك الحلفاء لا يستغنون عن المانيا التي هي حاجز طبيعي بينها وبين آسيا . فلن يتيسر بقاء المدنية الاوربية الا باتحاد الدول العظمى الثلاث أي المانيا وانكلترا وفرنسا

نقتصر على تلك الامثلة وهي تبين انه يتعذر على أحد الفريقين ابادة الفريق الآخر مهما يكن النصر عظيماً . وان قيام فرنسا بعد انكسار حرب السبعين واسترجاعها قوتها ونشاطها مما يؤيد هذا الرأي

ثم ان هنالك أمراً جوهرياً لم نعره التفاتاً بعد . وهو ان نظام المانيا السياسي — مهما هو عليه من الصبغة الاستبدادية — لا يزال خلف نظامات الشعوب الديموقراطية — كاميركا وانكلترا — بقرن على الاقل . فلا بد ان تتطور المانيا في هــذا السبيل وينال الشعب الالماني ما نالته الشعوب المتمدينة من الحقوق السياسية

٤ — دلالة الاختبار على ان الحروب لا تأتي بفوائد محسوسة

كثيرون هم الكتاب الذين بينوا ضرورة الحرب بزعم انها مظهر من مظاهر تنازع البقاء الشامل لكل كائن حيّ . ومن يلق نظرة اجماليــة على التاريخ يرَ انه ليس الا سلسلة حروب عظيمة تفصلها فترات سلم من حين الى آخر

على ان الحرب قد أصبحت شديدة الفظاعة وخيمة العواقب . فان امماً باسرها — لا جيوشاً فقط — تحارب اليوم . ولا بد ان تخلف هذه الحرب وراءها من الخراب والدمار والافلاس ما يتعذر اصلاحه . فهل يأتي يوم تمتنع فيه تلك الحروب أو على الاقل تصبح نادرة ؟

قد يتأتى ذلك لا ببيان فظائع الحرب من الوجهة الادبية بل بالبراهين المادية المحسوسة التي تؤثر في الرأي العام

ومتى تغيرت الآراء تغير السلوك . فقد تقتنع المانيا بعد خرابها وأفلاسها مثلا من من الامور الآتية :

أولاً انه ليس من المؤكد ان الالمان شعب مختار للسيطرة على العالم

ثانياً انه قد يلذ قتل الجيران واحراق المدن والآثار ولكن تلك اللذة تكلف كثيرًا من المال والرجال

ثالثاً انه قد يثري الناس في هذا العصر بالمنافسة الاقتصادية ولكن الحرب تخربهم وتفلسهم

رابعاً انه أفضل للانسان ان يتعاطى الاعمال مع جيرانه من ان يقتلهم

خامساً ان الارتباط المادي والمالي بين امم الارض محكم جداً بحيث لا يمكن ان تعيش امة في معزل عن غيرها

تلك حقائق بسيطة يدركها الانسان متى حكم عقله وتمييزه ولكنها لم تتأصل بعد في الطبع البشري . وسوف يموت الوف وملايين حتى يعمل الانسان بها

# الخاتمة

لقد خبرت اوربا نكبات عظيمة قبل اليوم . فكانت تمر تلك العواصف الدموية على الاجيال السالفة فيظنها الناس ختام كل شيء ، ثم لا يلبثون ان يروا عالماً جديداً يقوم من بين الانقاض المتراكمة

بل يتراءى لنا ان الامم متى دخلت في طور معلوم من تاريخها لا تستطيع أن تتقدم الا بفعل تلك الانقلابات العظيمة ، ولعلها ضرورية لترفع عن الامم ضغط الماضي الثقيل ولتحررها من أوهام وعادات تأصلت فيها

ان المانيا تضحي اليوم بثروتها وسعادتها تحقيقاً لرغبتها في السيطرة على الامم فيحق لنا أن نلعنها . على انه كان في استطاعتها ان تحقق رغبتها عن طريق آخر . فقد كانت على وشك استعمار قسم كبير من العالم استعماراً اقتصادياً ، ولو ترك لها المجال لأصبحت جميع موارد الثروة في يدها

ولكن الالمان أخذوا بأوهامهم فظنوا انهم يستطيعون اعادة تاريخ روما واحراز السيادة التامة على العالم ، ونسوا ان أهل هذه المدنية متمسكون بحريتهم وانه لديهم من الوسائل ما يمنع أي جبار من اخضاعهم . فان معظمهم يفضلون الهلاك على الخضوع للقوة الجبرية

لا نعلم ما تخبئه الاقدار ، فالمستقبل مكتوب في كتاب لا يستطيع العقل البشري ان يقرأ فيه . على اننا وان لم نتمكن من استجلاء المستقبل فالسهل الميسور لنا ان نتبصر في الماضي الذي يحمل في طياته صورة الحاضر والمستقبل

ذكر مونتسكيو في كتابه « أسباب عظمة الرومان وتقهقرهم» ان من الميزات التي كان لها قسط وافر في ارتقاء الرومانيين اعترافهم بصفات أعدائهم وتقديرهم لها حق قدرها . فحقيق بنا أن نعنى بدرس الطرق الالمانيــة الحربية والصناعية . ولا نعني بذلك ان نقلدها تقليداً أعمى بل أن نقتبس منها ما يوافق مزاجنا وعاداتنا

* * *

يتبين من مراجعة الخطط الالمانية في هذه الحرب انها رمت أولاً الى الاستيلاء

على أرض العدو في جميع الميادين . ولكن الاراضي التي يحتلونها اليوم لا تجديهم نفعاً ما زالت انكلترا تحاصر المانيا بحراً وتمنع عنها تجارتها الخارجية التي لا تستطيع ان تحيا بدونها طويلاً

وسيكون من منافع هذه الحرب ان تفقدنا بعض الاوهام التي كانت سائدة علينا والتي أوشكت أن تذهب بعظمة فرنسا

فقد علمنا عواقب الشقاق والخلاف اللذين زعزعا اركان المجتمع الفرنسي . فان الامم التي لا تنجو من الحروب الاهلية تبيد من التاريخ . وان أعداء الداخل يمهدون السبيل لأعداء الخارج

ولكي نوطد بناءنا الاجتماعي ينبغي لنا أن نبذل كل ما في وسعنا لتطهيره من عوامل الفساد التي تنخر فيه . وفي مقدمة ما يجب الاعتناء به التخلص من سلطة بعض الكلمات الوهمية ؛ فان كلمات كالسلام والسلم والاشتراكية والاخاء العام ونحوها تعمي الجماهير عن حقيقة الحال

ثم يجب ان يتمكن فينا الشعور بالواجب واحتمال المسؤولية والتعاون والاتحاد . فقد وهبتنا الحرب هذه الصفات فعلينا ان نحتفظ بها في السلم

كذلك ينبغي سن القوانين الاجتماعية الصالحة والعناية بالتربية الصحيحة — وأخص بالذكر تربية الاخلاق فقد دخلنا في طور من المدنية لا تقوم فيه قائمة للاعمال العظيمة بغير الاخلاق الراقية كالثبات والدقة والنشاط والارادة ونحوها . ولا يستطيع الذكاء مهما يكن عظيما ان يأتي عملا نافعاً بدونها

* * *

ان الدول الاوربية معرضة اليوم لخسارة أعظم من خسارة ثروتها ورجالها — نعني خسارة بعض الصفات التي هي فخر المدنية وجمالها كالصدق والاستقامة والغيرية والبر بالعهود وسائر صور الشرف في الانسان — وقد قال أحد كبار العلماء الالمان ان مبادئ الحرية والاخاء والمساواة التي تعتمد عليها الهيئة الاجتماعية الحاضرة مقضي عليها بالزوال ليحل محلها قاعدة « تنازع البقاء و بقاء الاصلح » وهي ما يسميه العلماء الالمان بالعدل الحيوي

على ان هذه القاعدة وان كانت سنة الحياة لمدنيا ( وهو ما لم يثبت بعد بصورة

قاطعة ) فقد بذل العلم جهده ليخرج الانسان من سلطانها ويحمي ضعفه من طوارىء الطبيعة الجائرة

فهل نطرح تلك الثمار التي جنتها المدنية جانباً لنرى الاشلاء تتكدس فوق الاشلاء والنار والحديد ينشران الخراب والجوع والدمار على الربوع الجميلة والآثار الشائقة ؟ وهل كتب للقوة الجبرية ان تظل حاكمة على الجنس البشري ؟

بئس التقدم والارتقاء لو كانت هذه آخرته ! وبئست الحياة في عالم يفقد زينته ورونقه ليحل مكانها النزاع الوحشي المتواصل

لا . لن يتم ذلك لاننا لا نريده . ولئن كانت السنن الطبيعية عظيمة فعظيم أيضاً العلم الذي يخضعها

بل لا يجب ان نكثر من ذكر السنن الطبيعية لاننا لا نعلم منها الا النذر اليسير . وان السماء والارض تحويان من الاسرار ما لم تحلم به العقول البشرية . فللطبيعة احكام غير احكامنا ولها قياس غير قياسنا : اننا لا نعرف الا ما كان محدداً محصوراً . اما االطبيعة فلا تعرف حداً غير اللانهاية والابدية

* * *

ولا يجوز ان تعمينا هذه التأملات الفلسفية عن حقيقة الحال في ميادين القتال ، فلا يزال العمل شاقاً أمامنا . ولئن كان جانب من أرضنا في يد العدو فلا بأس علينا ما زالت ارادتنا ثابتة. فلن يجد الفاتح نفعاً من الاستيلاء على الارضين مازالت روح الامة سليمة قوية

ظن هنيبال بعدان نال النصر على آخر الجيوش الرومانية في معركة كان انه ذل رومية الى الابد . ولكن ارادة رومية أحيتها . وقد شهد التاريخ ان قرطاجنة هي التي بادت وتلاشت

ليس بين امم الحلفاء امة ضعفت ارادتها اذ ان الجميع يفضلون الموت على التسليم . فهذا العزم كافٍ لضمان النصر ومن المستحيل اليوم أن يوجد جبار يخضع قوماً رغم ارادتهم . وقد خبر نابوليون ذلك في اسبانيا فمع انه دخل مدنها وكسر جيوشها لم يستطع ان يخضعها

على قوة ارادتنا قبل كل شي يقف المستقبل . فعلينا ان نتخذ هذا الشعار « النصر أو الموت » . وليس في الكون ما يستطيع ان يقف في سبيل العزيمة الصادقة لا الطبيعة ولا الانسان ولا الاقدار نفسها . قد قلت ذلك غير مرة . وها انا ذا اكرره

# فهرس الكتاب



## الباب الاول

### ما يلزم من علم النفس لفهم هذا الكتاب



## الباب الثاني

### نشوء المانيا الحديثة

## الباب الثالث

### اسباب الحرب البعيدة



## الباب الرابع

### اسباب الحرب المباشرة

## الباب الخامس

### العوامل النفسانية في المعارك

## الباب السادس

### المبادىء النفسانية للطرق الحربية الالمانية



## الباب السابع

### مجهولات الحرب